

مجهول

امرأة في برلين

ثمانية أسابيع في مدينة محتلة

ترجمة: ميادة خليل


امرأة
في برلين
ثمانية أسابيع في مدينة محتلة

المترجم: ميادة خليل

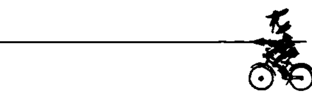
عنوان الكتاب: امرأة في برلين - مذكرات امرأة مجهولة

الطبعة الأولى: ٢٠١٦.

صورة الغلاف: Hulton-Deutsch من مجموعة CORBIS

الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-25-0



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org



ثمانية أسابيع في مدينة محتلة

ترجمة: ميادة خليل

المتوسط

مقدمة المترجم

عن الكتاب

في مكتبة الكنيسة البروتستانتية في مدينتي، كان ينتظرني هذا الكتاب. في زاوية من مدخل الكنيسة، مكتبة صغيرة للكُتُب المستعملة، مقابل بضع سنتات، تضعها في صندوق صغير، يعود ريعه للكنيسة، تحصل على كنوز الأدب العالمي. هناك بين الكُتُب، كتاب أصفر قديم، لم يُكتب على غلافه شيء، أخذتُه، وبعد ثلاث صفحات، عثرتُ على العنوان، وقرأتُ الصفحة الأولى - بعد مقدمة الكتاب - كعادتي في اقتناء أيّ كتاب. "الحرب" الكتاب عن الحرب. أعدتُ الكتاب فوراً إلى مكانه. تُرعبني هذه الكلمة "الحرب". أهرب منها قدر استطاعتي. أعرف كل شيء عن الحرب. بعد أسبوع، عدتُ إلى المكتبة، ووجدت الكتاب في مكانه. نظرتُ له طويلاً، وقرّرتُ شراءه أخيراً. كان هذا الكتاب قَدَري.

الكتاب عن الحرب. لكن الكاتب شخص استثنائي. عالم مجهول، تكتشفه صفحة بعد صفحة. عالم امرأة مجهولة. امرأة استثنائية.

عن الترجمة ...

ترجمتُ الكتاب عن الترجمة الهولندية (Vrouw In Berlijn). ترجمها عن الألمانية المترجم: يان هـ. يونكر (Jan H. Jonker)، ونُشرت في عام ١٩٥٩، وهي الطبعة السابعة للكتاب من دار نشر A. W. Sijhoff's Uitgeversmij N.V. في لايدن. اعتمدتُ في ترجمتي على النسخة الهولندية، بالطبع، لكني كنتُ أعود - بين الحين والآخر - إلى النسخة الألمانية

(Eine Frau in Berlin ـ عن دار نشر Eichborn Verlag 2002.) مع معرفتي المتواضعة باللغة الألمانية.

المترجم الهولندي ترك العبارات الألمانية، مثل المقولات المأثورة، كما هي، بلغتها الألمانية دون ترجمتها إلى الهولندية، وكذلك الجمل باللغة الفرنسية. تركها المترجم بلغتها الأصلية مستنداً في ذلك إلى معرفة الهولنديين باللغة الألمانية - هي اللغة الثانية إلى جانب الإنكليزية والفرنسية، ويتحدّثها ويقرؤها غالبية الشعب الهولندي - وقربها الكبير من اللغة الهولندية. وهو السبب نفسه الذي جعله يترك العبارات الفرنسية دون ترجمة، تماماً كما كتبتْها الكاتبة في مذكّراتها. أما الكلمات والعبارات الروسية؛ كتبتْها الكاتبة كما تنطقها بالأحرف الألمانية، ومعظمها لم توضح أو تُلمح الكاتبة إلى معناها، لكنها وضّحت معنى بعض العبارات في سياق الجملة. كنتُ أحوّل هذه "الأصوات" إلى حروف، ثمّ إلى كلمات، ثمّ أبحث عن معناها. استعنتُ بقواميس اللغة، للّغات الألمانية والفرنسية والروسية - ويجب أن أشير - هنا - إلى أن القواميس ورقية، بالتأكيد! - القواميس التي اعتمدتُ عليها هي لـ فان داله (Van Dale Groot woordenboek). اللغة الأساسية والمشتركة للقواميس التي اعتمدتُ عليها هي الهولندية، والألمانية، والإنكليزية، بطبيعة الحال.

هير وتعني سيد، فراو وتعني سيدة، فرولاين وتعني آنسة، كتبتُها هكذا، كما تُلفظ باللغة الألمانية. أما أسماء الأماكن والشخصيات الألمانية؛ فكتبتُها كما تُلفظ باللغة الألمانية.

حاولتُ - قدر الإمكان - الاقتراب من معنى الجمل المكتوبة في اللغة الفرنسية، ومعاني الكلمات في الروسية. وأرجو أن أكون قد وُفّقتُ في ذلك.

عنها

عند الانتهاء من قراءة الكتاب. بكيتُ كثيراً. "هل هذا كل شيء؟" قلتُ لنفسي. كنتُ أريد أن أعرف هذه المرأة أكثر. كنتُ أريد أن أرى خربشاتها،

كتاباتها المختزلة الأولى لهذه المذكّرات، كيف يبدو خطّ يدها؟ لكن المؤكد أنها امرأة استثنائية، وإلا كيف يمكن لإنسان أن يشهد هذا كله، ويكتب عنه دون كره! دون لهجة انتقام! دون غضب! كيف يمكن ذلك؟! كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟!

شابّة في الثلاثين من عمرها، واسعة الاطّلاع، مثقّفة، وذكية جداً، كتبتْ بعين امرأة شجاعة، عن كل ما كان يدور حولها. عين مجروحة، لكنها عادلة، حاولتْ استكشاف العدوّ بدلاً من كرهه، حاولتْ أن تتعرّف على وجه الإنسان في هذا العدوّ، أن تجرّده من أسلحته، وتراه كما هو، إنسان مثلها تماماً. بدل أن تتّهم هذا العدوّ، كانت تضع أسباباً لسلوكياته الإجرامية. كانت تكتشف الوجه الآخَر للأشياء طوال الوقت. أما حزنها؛ فكان عميقاً، لكنها أهملتْه، يسقط منها - أحياناً - هنا وهناك، لكنها لم تُعره اهتماماً، لم تقف عنده طويلاً، ليس مهماً أمام آلام شعبها. وفي هذه المحنة، أعادت اكتشاف حياتها، ونفسها. كانت متحفّظة في ذِكْر تفاصيل كثيرة، حدثت معها، أو حتّى الإشارة إليها. مجرّد ثلاث نقاط، تكفي؛ لنعرف بشاعة ما حدث. كتبتْ، بصدق، بإخلاص، بعدالة وهدوء، ومن شعور بالقوّة، وليس الضعف.

هذا الكتاب دعوة لقراءة سِيَر الشعوب قراءة تأمّلية؛ لنتوقّف عند بعض النقاط: بعد استسلام ألمانيا، التزم الألمان بقوانين المحتلّ. وعي الشعب الألماني من أنهم يسدّدون حسابات الحرب، وسياسة هتلر، وأن جنود العدوّ لم يفعلوا أكثر من ما فعله الألمان بهم من قبلُ. قوّة المرأة الألمانية وشجاعتها، صبرها، وقوفها مع الرجل دون مِنّة؛ لأنها تفعل ذلك، على أنه أخلاق وسلوك، ولا تنتظر أي شيء، في المقابل. وعند صبر المرأة الألمانية، يجب أن نتوقّف كثيراً.

بشاعة الحرب لا تتغيّر كثيراً، باختلافات الزمان والمكان، لكن تأثيرها يتغيّر، آثارها إما أن تتفاقم، أو تتضاءل وفقاً للمعايير الثقافية والاجتماعية للأفراد. تأمّل معي - عزيزي القارئ - هذا كله، وأنت تقرأ هذا الكتاب.

بعد صدور الكتاب واهتمام الصحافة، تمّ التعرّف على شخصية الكاتبة، وهي الصحفية الألمانية مارتا هيلرس. هيلرس كانت تعمل كصحفية في برلين، وتكتب في عدّة صحف ومجلات. وُلدت في كريفلد ١٩١١، ودرستْ في جامعة السوربون، باريس. كتبتْ بعض الأعمال لصالح النظام النازي، ولكنها لم تكن عضواً في الحزب. لاقى الكتاب - عند صدوره في ألمانيا ١٩٥٣ - انتقاداً شديداً. إما "تجاهلوه، أو لعنوه" كانت هذه العبارة المستخدَمة في وصف آراء القرّاء عند صدوره. كانت ردود الأفعال السلبية تتوجّه نحو تصوير المرأة على أنها ضحية، وكيفية تعامل النساء الألمانيات مع الضباط السوفييت. ومن ما قاله الناشر الألماني للطبعة الألمانية الصادرة عام ٢٠٠٣ هانس ماگنوس أنسينزبيرگر في مقدمته للكتاب: "من الواضح أن القرّاء الألمان لم يكونوا مستعدّين لمواجهة الحقائق المزعجة. النساء الألمانيات لم يتصوّرن الحديث عن واقع الاغتصاب. والرجال الألمان كانوا لا يفضّلون أن يُنظَر لهم على أنهم متفرجون عاجزون عندما طالب المنتصرون الروس بغنائم الحرب.. موقف الكاتبة كان ظرفاً مشدّداً: يخلو من الشفقة على الذات، مع رؤية واضحة لسلوك أبناء وطنها قبل وبعد انهيار النظام النازي. كل شيء كتبتْه تبدّد في وجه الرضا وفقدان الذاكرة لسلطة ما بعد الحرب". النسخة الألمانية للكتاب استُنسخت في السنوات التالية لصدوره لأول مرّة في ألمانيا، وكان حديث السيدات الألمانيات في السبعينيات.

الطبعة الأولى باللغة الإنكليزية للكتاب صدرت في الولايات المتحدة عام ١٩٥٤. بعد وفات هيلرس بعامَيْن؛ أي في ٢٠٠٣، صدرت طبعة جديدة للكتاب في ألمانيا، وكانت من أفضل الكُتُب مبيعاً لـ ١٩ أسبوعاً. ينس بيكسي، وهو محرّر أدبي ألماني، كشف عن هويتها عند صدور الكتاب في عام ٢٠٠٣، ومرّة أخرى، بلا اسم. الطبعة الجديدة للكتاب، باللغة الإنكليزية، صدرت في ٢٠٠٥، بالإضافة إلى صدوره، بسبع لغات أخرى. الكتاب تحوّل إلى فيلم ٢٠٠٨ بالاسم نفسه، باللغة الألمانية، وأخرجه ماكس فيربرُك، وقامت بدور البطولة فيه نينا هوس.

ماذا حدث لها بعد انتهائها من كتابة هذه المذكّرات؟ هل عاد حبيبها گيرد؟ هل قرأ مذكّراتها؟ كانت تتمنّى ذلك، على أي حال. وربمّا كانت تكتب مذكّراتها من أجله. عندما انتهيتُ من هذا الكتاب أخيراً، من قراءته وترجمته إلى العربية، لم ينته، بالنسبة لي، بدأ تأثير هذا الكتاب منذ اللحظة التي قرأتُ فيها آخر صفحة، وظلّت مفتوحة حتّى كتابة هذه الكلمات.

الحرب لا تنتهي. وكذلك الأعمال العظيمة.

المقدمة

الكاتبة لهذه المذكّرات الاستثنائية كان عمرها ثلاثين عاماً عندما بدأتُ بكتابتها في ٢٠ أبريل ١٩٤٥.

في مقدمة جان جاك روسو لاعترافاته، الكتاب الذي يُعدّ من أكثر الكتابات جرأة في تجريم النفس، نقرأ الكلمات الآتية: «إني أخذتُ على عاتقي ما ليس له مثيل، ولن يوجد له نظير، إلى حدّ الآن على الإطلاق». لا يوجد مقولة أنسب من هذه لتقديم هذا العمل.

عندما أخذتُ المسودة بين يدَي للمرّة الأولى، بدأت الحوادث تُلحّ عليّ - حوادث مع مذكّرات أخرى، معاني وفضائح. بعد عدد من الصفحات، لم تكن الإثارة الحسية لروسو، هي ما تبادر إلى ذهني، لكن ذكريات عن رواية (الجوع) لـ كنوت همسون، صادفت مقاطع، أوحت لي بالرعب، وذكّرتني بـ لويس - فرديناند سيلين وروايته « Voyage au bout de la nuit» (رحلة إلى آخر الليل)، وواقعية قوية أخرى، ذكّرتني بهنري ميللر. وجدتُ بنفسي علاقة أكيدة مع المفاهيم للكاتب المنسي مع الأسف، نور آنس ياغر، الذي يُعدُّ كتابه «Kranke Liebe» (الحب المرضي(*)) واحداً من أكثر الكُتُب التي صدرت يأساً وصراحة.

هذه الاستدعاءات لأسماء كبيرة لا تعني - على أي حال - اقتراح مقارنة أدبية، وإنما للتأكيد على نموذج متفرّد كهذا الكتاب، كُتب في أيام فظيعة،

---

*) العنوان الأصلي للكتاب هو Fængsel og fortvilelse (باللغة النرويجية) ممكن ترجمته إلى: السجن واليأس. وتُرجم العنوان بالصيغة نفسها: السجن واليأس في الترجمة الإنكليزية للكتاب (Prison and Despair).

ليس مثل المفاهيم المذكورة أعلاه، لكنْ؛ كعلاج ذاتي: بعد كل شيء، بعض التجارب يمكن طردها من الأفكار، بتحويلها إلى كلمات.

لهذا نحن لسنا بصدد إبداع أدبي؛ حيث الكاتب يأخذ بنظر الاعتبار الجمهور، لكننا بصدد «وثيقة إنسان»، سيكون من المستحسن تكريس بعض الكلمات لواقعيتها. أعرف الكاتبة منذ سنوات. جاءت من عائلة متوسطة فاضلة، البيئة التي تؤسّس فيها الفتاة الشابة زواجاً ناجحاً منذ خمسين عاماً - ولا شيء أكثر من ذلك.

تلقّت تربية ممتازة، وأثبتت - بالفعل - مواهبها الشابة، التي مكّنتها في وقت مبكّر من تكوين موقف مستقل. بينما كانت ترسم، تصوّر، وتدرس، سافرتُ إلى معظم دول أوروبا. ذوقها وتجربتها الشخصية منعاها من أن تتورّط في واحدة من منظّمات (الرايخ الثالث).

رغم حُرّيّة اتخاذ قراراتها بنفسها، عقدت علاقة مناسبة، ربطتْها ببرلين في السنة الأخيرة من الحرب - حتّى بعد فوات الأوان لمغادرة المدينة. وعندما سقطت عاصمة سِفْر الرؤيا الشيوعية، التي بفضل الجلاء، استضافت أربعة ملايين شخص، بدأت الكاتبة بكتابة مذكّراتها.

من الجمعة ٢٠ أبريل إلى الجمعة ٢٢ يونيو، خربشتْ في دفاتر الحسابات المالية القديمة، وعلى أوراق منفصلة ما حدث معها، ومع سكّان البناية؛ حيث المأوى الذي عثرت عليه. تلك الصفحات أمامي، بينما أنا أكتب. الحيوية، في تلك الملاحظات المتسرّعة، في السّرّ الذي كُتب بقلم رصاص، مزيج من الاختزال، دفتر عادي ورمز سرّيّ (الاحتفاظ بمثل هذه المذكّرات كان خطيراً للغاية)، الدلالات الكثيرة المختصرة، هذا كله كان من الممكن أن يضيع، بسبب حيادية الكلمة المطبوعة. لكنْ؛ من هذه اللغة نفسها، يجب أن يحسّ القارئ بالمشاعر، التي أحسّتْها الكاتبة، عندما كتبتْ ملاحظاتها.

تعرفتُ - هنا - على البناية الموصوفة. سكنتُ بنفسي في ذلك الحي، وبالتالي كنتُ معروفاً إلى حدّ ما، لبعض الأشخاص الذي سكنوا هناك.

عندما عدتُ إلى برلين في ١٩٤٦، للبحث عن الأصدقاء المفقودين، زرتُ المنزل مرّة أخرى. رجل قابلني على الدرج، وأصبحتُ مغموراً تحت تيار من القصص عن الأحداث الأخيرة. تلك القصص، لم أسمعها من الرجال فقط، لكنْ؛ من النساء والفتيات الشابات أيضاً. فُرضَت عليّ، مع رغبة عاطفية للاعتراف، لدرجة أني استجبتُ لهم كصديق للكاتبة، التي عادتْ في نهاية الكتاب. فقط حقيقة أني تعرّضتُ لمثل هذه التجارب في مكان آخر، وأعرف قدرة الاعترافات في الخلاص، جعلني أتراجع.

بعد ستة أشهر، التقيتُ الكاتبة - من جديد - في مكان آخر. في هذا اللقاء، سمعتُ بعض الأشياء، التي كشفت سرّها، والتي تتعلّق بهذه المذكّرات. عندما - بعد ستة أشهر أخرى - تمكّنتُ من قراءته، وجدتُ فيه تفصيلاً، يصف ما عرفتُه من قصص الآخرين. احتجتُ - على أي حال - إلى خمس سنوات لإقناعها بأن مذكّراتها كانت فريدة من نوعها، ويجب أن يتمّ نشرها، ببساطة. ما كتبتُه أعلاه، يجب أن يُظهر - بوضوح - أن هذا الكتاب يحتوي على الحقيقة، وليس غير الحقيقة. لهذا لا يمكن أن تسبقه العبارة المبتذلة: «كل الشخصيات في هذا الكتاب هي شخصيات وَهْمية تماماً؛ أي توافق بينها وبين الواقع هو محض صدفة» لأسباب سياسية، ولمراعاة مصالح الآخرين، تتغيّر كل الأسماء والكثير من التفاصيل.

السبب وراء رغبة الكاتبة في أن تظل مجهولة، من الواضح جداً أنه بحاجة إلى تفسير.

قراءة هذا الكتاب تثير مشاعر متضاربة، يمكن تفسيرها، من خلال شخصية الكاتبة.

الصادم على وجه الخصوص هو الموضوعية الباردة التي كتبتْ بها

انهياراتها، حتّى يدرك المرء أن هذه ليست موضوعية متعمّدة، مصطنعة، بروح اختراع، دوس باسوس الأدبي لـ (العين الفوتوغرافية)(*) لكنها اكتسبت هذه البرودة؛ لأن مشاعرها قد فترتْ، فترتْ من الفزع. «أظن، أن اليأس قد صلّب أعصابي»، أشار البحّار في قصّة إدجار آلن بو، بجفاف، بعد أن نجا - بصعوبة - من دوامة مائية. الحالة الذهنية للكاتبة لا يمكن - أيضاً - تسميتها بالاستسلامية رغم أن شخصيتها - في بداية الكتاب - كانت توحي بميلها للاستسلام. على سؤال محتمل، إن كان يمكنها التصرف بطريقة مختلفة، في حالة أو أخرى، يمكنني أن أجيب، أن - بقدر معرفتي للبيئة - هذا السؤال في غير محلّه. شعرتُ أني دُعيتُ للتأكيد على شيء ما، شيء لم تُلمّح له الكاتبة، بالمرّة: من خلال معرفتها باللغة الروسية، قامت بدور وسيط خاص لمنزل مليء بالناس. في الصراع بين الشرق والغرب اتضح أن العَلَمَ الأبيض لم يكن - أبداً - حماية حقيقية، وأكثر من وسيط متطوّع مات بين الحدود.

مَن يستطيع - وهو يواجه مثل هذا المصير الاجتماعي - المطالبة بحقّ استخدام المعيار الأخلاقي، الذي نادراً ما ينطبق على الفرد؟ لم يكن يوجد أي رجل، يمكنه ذلك؛ لأن هناك الكثير قد ماتوا، بسلاح محشو بالرصاص موجّه نحوهم، كانوا يُجبَرون على أن يقولوا لزوجاتهم أو بناتهم: «اذهبي، بحق السماء». وأولئك الذين لم يروا - أبداً - سلاحاً محشوّاً بالرصاص موجّهاً نحوهم - من الأفضل أن يُبقوا أفواههم مغلقة. وأيضاً لا تملك أي امرأة الحقّ في قول رأيها، إلا إذا هم أنفسهم - ذات مرّة - ينجرّون في منحدر مفاجئ لموت هائل. من السهل جداً تمرير حُكم ما، إذا كنتَ تجلس على أريكتكَ.

ما يبدو غريباً في هذا الكتاب، هو افتقاره لأي شعور من الكراهية. لكنْ؛ عندما تفتر المشاعر كلها، لا يمكن إشعال جذوة الكراهية. من سيغموند فرويد (رغم أني لا أريد أن أكون مخطئاً في تعميم مصطلحات التحليل

---

*) العين الفوتوغرافية في إشارة إلى ثلاثية باسوس (U.S.A. trilogy) تناول مقاطع عن تيار السيرة الذاتية للكتابة الواعية تحت عنوان: «Camera Eye».

النفسي المعروفة) تعلّمنا أن الغرائز يمكن توجيهها، من جديد، وأن شره غريزة ما ممكن التملّص منه، وتحويله إلى أخرى.

ليس هناك أي شخص لم يلاحظ أن بين سكّان هذه البناية البرلينية كان هناك غريزة واحدة، تهيمن على كل شيء: الجوع. لكنها - أيضاً - غريزة البقاء، وبأي ثمن!

أيضاً، أريد أن أكرّر ملاحظة، قالتها لي الكاتبة قي ١٩٤٧. «ولا أحد من الضحايا يمكنه حمل معاناته، كتاج من شوك» قالت، «بالنسبة لي، أنا مقتنعة، بأن ما حصل لي، كان نوعاً من تسديد الحساب» البحث عن العدالة وسط هذه الوحشية كلها، يبدو لي هو السمة البارزة لهذه المذكّرات، إنه «وثيقة إنسان»، وليست «وثيقة سياسي».

وهكذا نجتِ الكاتبة من الدوّامات، هكذا استطاعت - الانتصار سرّاً- الصعود من أعماق الدوّامة، ليس بمساعدة إحدى قوى الطبيعة، لكنْ؛ لأنها - رغم إخضاعها - كانت الـ «أنا» العميقة داخلها، لا تُقدَّر بثمن.

سي. قي. شيرام(*) / أغسطس ١٩٥٤

---

*) سي. قي. شيرام (C. W. Ceram) هو الاسم المستعار للصحفي الألماني كورت فيلهلم ماريك (Kurt Wilhelm Marek) الذي وُلد في برلين ١٩١٥. عُرف من خلال أعماله الشهيرة عن الآثار. اختار الكتابة تحت اسم مستعار؛ لإبعاد نفسه عن أعماله السابقة كداعية للرايخ الثالث. من أشهر أعماله كتابه «Götter, Gräber und Gelehrte» (الآلهة، القبور والعلماء) في ١٩٤٩. كورت ماريك هو المسؤول عن نشر هذا الكتاب. توفي في هامبورغ ١٩٧٢. خُصّصت جائزة باسمه في علم الآثار (The Ceram Prize) بعد وفاته.

بعد ظهر الجمعة ٢٠ أبريل ١٩٤٥، الساعة الرابعة.

مذكّرات، بدأت في اليوم الأول من المعركة بالقرب من برلين.

ليس هناك أي شكّ في ذلك، الحرب تقترب من برلين.

ما كان فرقعة بعيدة جداً البارحة، اليوم هو هدير مستمر. أنتَ تتنفّس ضجيج البنادق. أذنيكَ صماء، يمكنك - فقط - سماع إطلاق نيران المدفعية الثقيلة. اتجاه الحريق لم يعد من الممكن تحديده. نحن نعيش في نطاق من المدافع، يضيق كل ساعة.

بين الحين والآخر لحظات من الصمت المشؤوم. فجأة تذكّرتُ أننا في فصل الربيع. بسبب الخرائب المحترقة، تأتي رائحة الليلك من الحدائق العامة. جذل الأكاسيا أمام السينما مليء بالأوراق الخضراء. الآن تحيط أرض محفورة بالمخازن والأكواخ في برلينر شتراسه: بين الهجمات الجوّيّة، يجب على البستانيّين قضاء الكثير من الوقت في الحفر. وحدها الطيور كانت تقف هذه السنة بارتياب أمام شهر أبريل: ليس هناك عصافير في مجرى تصريف المياه فوق سطوح المنازل.

في الساعة الثالثة، جاء صبي الجرائد إلى كشك الجرائد. بضع عشرات من الناس كانوا يقفون في انتظاره. اختفى في غمضة عين خلف تلك الأيادي والرؤوس كلها. گيردا، بنت البوّاب، انتَزعت عدداً من إصدارات المساء، وأعطتني واحدة.

لا يوجد صحف حقيقية بعد الآن، مجرّد ورقة واحدة، لا تزال رطبة مطبوعة على الجانبَيْن. في طريقي إلى المنزل، قرأتُ نشرة الڤيرماخت (نشرة القوّات المسلحة). أسماء أماكن جديدة: مونشبيرغ، زيلو، بوخولز. تبدو كأنها أسماء محرّفة.

نظرة سريعة على أخبار الحدود الغربية. ما الذي نفعله هناك؟ مصيرنا يخرج لنا من الشرق، وسوف يتغيّر مناخنا، بشكل مناسب، تماماً كما حدث في العصر الجليدي. لماذا؟ كيف حدث هذا في العالم؟ أنت تضايق نفسكَ بالأسئلة، وبلا فائدة. سوف أفكر في هذا اليوم فقط، في المشاكل الآنية.

في كل مكان حول كشك الجرائد، تقف مجموعات من الناس، يهمسون ووجوههم شاحبة: «يا إلهي، مَن كان يظن أن الأمور سوف تصل إلى هذا الحدّ؟!».

«لقد اختفى آخر بصيص لنا من الأمل».

وعن غرب ألمانيا: «ليس لديهم ما يخشونه. حصل معهم الأسوأ». كلمة «الروس» لم تعد تُذكَر. شفاههم لا تريد نطقها.

عدتُ مجدداً إلى العلّيّة. ليس بيتي. لم يعد لي بيت. الغرفة المفروشة، التي قُصفت، لم تكن لي أيضاً. لكني طوال ست سنوات ملأتُها بـ جوّي الخاص، كُتُبي ولوحاتي ومئة شيء وشيء، أشياء جمعتُها: نجوم البحر من آخر سفرة لي في نوردرني، الگليم الذي جلبه لي گيرد من بلاد فارس. مُنبهي المنبعج. صور، رسائل قديمة، كرّاسات رسم، مجموعة من العملات المعدنية، جمعتُها من اثني عشر بلداً، قطعة حياكة، انتهيتُ من نصفها - جميع الهدايا التذكارية والفوضى التي يجمعها المرء على مدى السنوات.

الآن ضاع هذا كله، ولا أملك أي شيء منها سوى حقيبة سفر مع ملابس قديمة، أشعر أني عارية وخفيفة. والآن أنا لا أملك أي شيء لي. غرفة العلّيّة

المجهولة هذه، على سبيل المثال. في الواقع هي ليست مجهولة تماماً. المالك زميل قديم، كنتُ أزوره - غالباً - قبل أن يُستدعى للتجنيد. كنا نقوم ببعض الأعمال، التي تنسجم مع العصر: لحمه الدنماركي المعلّب مقابل كونياكي الفرنسي، صابونتي الفرنسية مقابل الجوارب التي حصل عليها في براغ. لا يزال لديّ بعض الوقت لمراسلته، وإبلاغه أن غرفتي قد قُصفت، وللحصول - أيضاً - على إذنٍ، للسكن هنا. المرّة الأخيرة التي سمعتُ فيها شيئاً عنه كانت من ڤيينا؛ حيث كان يعمل في الرقابة لصالح الڤيرماخت. أين هو الآن؟ على أي حال، ليس هناك طلبات كثيرة على غرف العلّيّة. بالإضافة إلى أن الغرفة يدخل المطر إليها؛ لأن ألواح السطح مكسورة جزئياً، وانتُزعت من مكانها بعيداً بسبب الريح.

لا أستطيع أن أجد الراحة هنا، أظل أمشي جيئة وذهاباً خلال الغرف الثلاثة. أفتّش الخزائن والأدراج بانتظام بحثاً عن شيء صالح للاستعمال، مثلاً شيء صالح للأكل، للشرب، أو الاحتراق. لم أجد - تقريباً - أي شيء مع الأسف. يبدو أن فراو ڤايرس، خادمة زميلي السابقة، أنجزت عملها، بدقة. في الوقت الحاضر، كل شيء ملكٌ للجميع. أنت تنتمي إلى الأشياء بغموض، ولا ترى فرقاً واضحاً بين أملاك الآخرين وأملاكك.

وجدتُ رسالة معنونة إلى زميلتي، محشورة في أحد الأدراج. خجلتُ أن أقرأها، لكني فعلتُ. رسالة حب، رميتُها في المرحاض. (لا يزال لدينا بعض الماء) قلب، شوق، وحب. شغف. كم هي غريبة ومجهولة هذه الكلمات. الحب النقي ذو المذاق الخاص يفترض - على ما يبدو - وجبات منظّمة وفخمة. محور اهتمامي، وأنا أكتب هذا، معدتي. تفكيري كله، شعوري، رغباتي وأمنياتي، تبدأ من الطعام.

بعد ساعتَيْن. اشتعل الغاز بشعلة تصغر أكثر فأكثر. البطاطا موضوعة عليها منذ ساعات. البطاطا البائسة في جميع أنحاء ألمانيا: تُطبَخ حتّى تصبح كتلة مائية، طعمها مثل الورق المقوّى. ابتلعتُ إحداها نصف نيّئة.

منذ الصباح الباكر، وأنا أملأ معدتي بالطعام. بدّلتُ كوبونات الحليب الزرقاء التي أرسلها لي گيرد في عيد الميلاد عند بولا. لقد حان الوقت، السيدة خلف منضدة الدكان، أبقت علبة الحليب مائلة؛ لتحصل على ما تبقّى فيها، وقالت: لن يصل حليب إلى برلين بعد الآن. وهذا يعني الموت، بالنسبة للأطفال.

سرعان ما أكون في الشارع أشرب رشفات قليلة منه. في البيت، أملأ معدتي بعصيدة الجريش، وآكل قشرة الخبز. نظرياً أنا شبعانة، كما لم يحدث - أبداً - من قبل. عملياً أصبحت مصابة بجوع حيواني. أشعر بالجوع، من خلال تناول الطعام. هناك تفسير علمي لهذا، بكل تأكيد. على سبيل المثال، إن الغذاء يشجّع على إفراز العصارة المعدية. وعندما تعمل العصارات، بشكل صحيح، يكون الخزين الصغير قد هُضِم بالفعل. وعندها تبدأ معاناتكَ من تلك العصارات المعدية.

في أثناء التفتيش بين الكُتُب القلِيلة للمستأجر. (حيث وجدت - أيضاً- دفاتر الحسابات المالية التي أكتب بها الآن) فتحتُ - لحسن الحظ – إحدى الروايات. الجملة الآتية من وصف لعائلة إنگليزية مهيبة: «... نظرتْ إلى وجبتها التي لم تمسّها نظرة سريعة، وقفتْ، ومضتْ».

كنتُ قد قرأتُ عشرة أسطر قبل أن أنجذب - بما يشبه المغناطيس - إلى الجملة أعلاه. قرأتُها عشر مرّات، وضبطتُ نفسي، وأنا أحكّ الحروف بأظافري، كما لو أن هذه الوجبة التي لم تمَسّ، التي وُصِفَت بالتفصيل قبل هذه الجملة، يمكنني حكّها، وأخذها من الكتاب.

جنون، إلى هذا الحدّ! بداية درجة خفيفة من جنون الجوع. مع الأسف، لا أستطيع قراءته في كتاب كنوت هامسون (الجوع). حتّى لو لم تُقصَف غرفتي، فإني لم أعد أملك الكتاب. سُرق منذ سنتَيْن من داخل حقيبة التسوّق في المترو U-Bahn. غلافه من الرافيا. من الواضح أن السارق احتفظ بالمحفظة

مع البطاقة التموينية. الرجل المسكين! كان - ربّما - متحيّراً! بالإضافة إلى القصّة، حقّق هامسون المتعة.

هذا الصباح عند الخبّاز، انتشرت الشائعة الآتية: «عندما يأتون، يأخذون كل شيء صالح للأكل. ونحن لا نأخذ شيئاً، بالمقابل. هم قرّروا أن يموت الألمانيون من الجوع، في ثمانية أسابيع أولاً. في سيليزيا يمشي الناس في الغابات، يحفرون بحثاً عن الجزر. الأطفال يموتون في كل مكان. كبار السّنّ يأكلون العشب، كما لو أنهم حيوانات».

هناك الكثير من الفوكس بوبولي (آراء الناس). لا أحد يعرف أي شيء على وجه التأكيد. صحيفة فولكيشر بيوباختر لم تعد موجودة على رفّ الصحف. ولا فراو ڤايرس؛ لتقرأ لي مع الأفطار القائمة الطويلة للاغتصاب: «اعتُدي على سيدة عجوز في السبعين. ماعدا انتهاكها لأربع وعشرين مرّة». (مَن حَسَب هذا؟!). كانت العناوين بهذا الشكل. ربّما كانوا يقصدون حثّ رجال برلين على حماية نسائنا؟ مضحك. لهذا هُرع الكثير من النساء والأطفال بعربات كبيرة إلى الغرب للموت جوعاً في الطريق، أو ليُقتلوا من الهواء. في أثناء القراءة، تصبح عينا فراو ڤايرس كبيرتَيْن، مستديرتَيْن، لامعتَيْن. شيء ما فيهما، يجعلها تتمتع بالبؤس. أو ربّما لاوعيها سعيد بأنها لم تتعرض لهذا. لأنها خائفة، ولأنها عازمة على الهروب بعيداً. لم أرها منذ أول أمس.

الراديو صامت منذ أربعة أيام. من جديد، تدرك أن التكنولوجيا نعمة مريبة حقاً. ليس لها قيمة حقيقية، بحد ذاتها، هي ذات قيمة، طالما هناك تيار كهربائي يتدفّق من المقبس. الخبز له قيمة حقيقية. الفحم - أيضاً - له قيمة حقيقية، طالما تستطيع إشعاله. الذهب هو الذهب، في روما وبيرو تماماً مثلما هو في ڤروتسواف(*). الراديو بالمقابل، مواقد الغاز، التدفئة المركزية، الطبّاخ، كل منافع العصر الحديث العظيمة، ثقل، لا معنى له عندما يتعطّل التنظيم الرئيس للطاقة. نحن في تراجع نحو القرون الماضية. سكّان الكهوف.

---

*) Breslau باللغة الألمانية.

الجمعة، السابعة مساءً. قمتُ بجولة سريعة أخيرة بالقطار في اتجاه مبنى البلدية. فوضى وصفّارات إنذار، وهدير متواصل من المدافع. بحزن، صرخ بائع التذاكر نحوها. تفحّصتُ وجوه الناس من حولي. مكتوب عليها ما لا يجرؤ أي أحد على قوله. لقد أصبحنا شعباً من الحمقى. فقط في الملجأ الآمن يتحدّث الناس مع بعضهم. متى يمكنني التنقّل بالقطار مرّة أخرى؟ هل ستأتي هذه اللحظة؟ نُشر في الصحيفة أن ترخيصات السفر من الفئة I و II - التي جعلت حياتنا مريرة في الأسابيع الأخيرة - تُعدّ باطلة منذ الغد. فقط حاملو البطاقات الحمراء من فئة III يمكنهم استخدام وسائط النقل العامة. وهذا يعني واحد من أربعمائة، ربّما، أو لا أحد، لذا؛ هذه هي النهاية.

مساء بارد، صنابير المياه فارغة. لا تزال البطاطا تنضج على شعلة الغاز الضعيفة جداً. جمعتُ بعض الأشياء، بازلاء، شعير، طحين، وقهوة مصنّعة، وضعتُها في أكياس، وخزنتُها في صناديق كارتونية. من جديد، شيء من الأمتعة للملجأ. فتحتُ كل شيء مرّة أخرى عندما ظننتُ أني قد نسيتُ الملح. دون الملح، لا وجود للجسم، أو على الأقل، ليس طويلاً. ونحن يجب أن نجهّز أنفسنا لحصار طويل في الملجأ.

الجمعة، الساعة الحادية عشرة مساءً في القبو، مع ضوء المصباح النفطي والدفتر على ركبتَيّ. حوالي الساعة العاشرة، سقطت ثلاث أو أربع قنابل واحدة تلو الأخرى. في اللحظة نفسها، بدأ هدير صفارات الإنذار. أحدهم قال، إن صفّارات الإنذار يتمّ تشغيلها - الآن - باليد.

بلا ضوء، ننزل الدرج في الظلام. منذ الثلاثاء، وهذا هو الحال. تتحسّس حولكَ، وتَزِّل خطوتكَ، وأنت تنزل. كشّاف إضاءة يئزّ في مكان ما، يُلقي بظل عملاق على الجدار. الريح تنفذ من خلال النوافذ المكسورة، وتتسبّب في جعل ستائر التعتيم تضرب بعضها بقوّة. الستائر التي لن تُسدَل أبداً؛ إذ لا ضرورة لذلك.

جرجرة أقدام، وأمتعة تتاخم الجدار. صاح لوتز ليمان: «مامي!» في طريقنا إلى الملجأ يجب أن نعبر الشارع، إلى مدخل جانبي، ننزل عدداً من الدرجات، عبر ممرّ، نخرج إلى فناء داخلي مع النجوم في السماء، والطائرات تطنّ مثل النحل. بعض درجات أخرى إلى الأسفل، عتبات، ممرّات. أخيراً، خلف باب حديدي ثقيل، معزولة حوافّه بالمطاط، وصلنا إلى قبونا. رسمياً يُسمّى ملجأ، لكننا نسمّيه: جُحْر، بالتناوب، العالم السفلي، سرداب الموتى المخيف والمقبرة الجماعية. تسند السقف غابة من جذوع الأشجار، بالكاد نُزع منها اللحاء. حتّى في هذا الجوّ الخانق، لا تزال تفوح منها رائحة الراتنج. شميت العجوز، أو «شميت - الستائر»، يُثرثر مساءً بعد آخر، حول الحسابات الإحصائية التي تنصّ على أن جذوع أشجار الغابات سوف تظلّ باقية حتّى لو انهار المنزل فوقها. على شرط أن تسقط الأجزاء المتكسّرة في زاوية معينة، ونسب وزن محدّدة. مالك البناية - الذي من المفترض أن يعرف ذلك - لا يمكنه إعلامنا. لقد غادر إلى باد إمس، وهو - الآن - أمريكي، بالفعل.

«شعب القبو» هنا في البناية - على أي حال - مقتنعون أن جُحرنا هذا هو الأكثر أماناً من أي مكان آخر. ليس هناك شيء أغرب من قبو غريب. أنتمي إلى هذا المكان الآن منذ ثلاثة أشهر، ولا أزال أشعر أني غريبة. كل ملجأ لديه محرّماته الخاصة، وعاداته الخاصة. في قبوي القديم - عادة - مياه الإطفاء. في كل مكان، يتعثّر المرء بالدلاء، الأباريق، القدور والبراميل، المملوءة بعجينة كثيفة موحلة. ومع ذلك، احترقت البناية مثل شعلة. كما لو أنك تبصق في النار، كان لمياه الإطفاء هذه تأثير قليل جداً.

فراو ڤايرس قالت لي، إن قبوها تسود فيه عادةُ الرئتَيْن. سرعان ما تسقط القذيفة الأولى، ينحنون جميعهم، يتنفّسون بحذر، بينما أيديهم تضغط على بطونهم. شخص قال لهم، إنه بهذه الطريقة لا يمكن أن تتضرّر الرئتَيْن. هنا، لهذا القبو عادات الجدران. الجميع يجلس وظهره إلى الجدار الخارجي، أما تحت فتحة الهواء؛ فلا يجلس أحد. مع الضربة الأولى، تأتي عادة المنشفة،

أيضاً تبقى جاهزة خصيصاً هنا، الجميع يضع منشفة حول الفم والأنف، وتُعقد خلف الرأس. هذه العادة لم أرها في أي مكان آخر. ليس لديّ أدنى فكرة من ماذا تحميهم هذه المنشفة، لكنْ؛ على شرط أن تكون جيدة لهم.

علاوة على ذلك، شعب القبو على كراسي القبو العادية، وبينها، تتراوح بين كرسي المطبخ إلى الكراسي المزخرفة، الموديلات كلها لها قيمة. والناس: أثرياء، ومن الطبقة الوسطى الصغيرة مع مسحة من البروليتاريا. نظرتُ حولي، وكتبتُ:

أمام زوجة الخبّاز، خدّاْن سمينان حمراوان فوق ياقتها الفرو. زوجة الصيدلي، التي تلقّت دورة في الإسعافات الأولية، وأحياناً نساء أخريات على كرسيَّيْن متقابلَيْن، يتنبّأن بالمستقبل عن طريق ورق اللعب. فراو ليمان، زوجها فُقد عند الحدود الشرقية، وسادة مع الطفل الرضيع على ذراعها ولوتز ذات الأربع سنوات في حضنها. الرجل الشاب الذي يرتدي بنطلوناً رصاصياً مع نظّارة مؤطّرة، الذي عند معاينة قريبة، يتضح أنه فتاة شابة. ثلاث أخوات، لسن شابات، خيّاطات، يجلسن إلى جانب بعضهنّ مثل بودنغ أسود. البنت التي هربت من كونيسبيرك، وهي ترتدي ملابسها التالفة. شميت الذي هرب من القصف ومصنعه، مصنع الستائر دون ستائر، رغم تقدّمه في السنّ، هو متحدّث، لا يتوقّف عن الكلام. الكُتُبي مع زوجته، سكنَا بعض الوقت في باريس، وأحياناً يتحدّثان، بصوت خافت مع بعضهما باللغة الفرنسية...

سمعتُ للتوّ سيدة في الأربعين، من آدلرزهوف، انتقلت إلى هنا مع والدتها، تحكي كيف هربت من القصف. سقطت قنبلة فوسفور في حديقة جارها، ودمّرت - أيضاً - منزلها الذي بنتْه من مدّخراتها الصغيرة، وتحوّل إلى حطب. علاوة على ذلك، الضغط الجوّيّ قذف بخنزيرتها المسمّنة على العارضة تحت سقف المنزل. «لم يعد هناك ما يُبهج بعد الآن».

الجيران أيضاً، الزوجان، توفّيا، بحث الناس عن أشياء تُجمع معاً، أو

على الأقل، ما بقي منهم لإيجاده بين أنقاض المبنى والركام في المدينة. كان تشييعاً جميلاً. جوقة من الرجال كانوا يغنّون إلى جانب القبر. النهاية كانت مربكة بعض الشيء. صفّارات الإنذار اخترقت هدير أغنية «Lied von Gottes Rat» (صلاة مشورة الله). على حفّاري القبور إنزال التابوت رأساً على عقب. يمكنكَ أن تسمع قعقعة المحتوى. وعندها جاء محور القصّة، الراوية كانت تقهقه مقدماً، رغم أن قصتها لم تكن مضحكة إلى هذا الحدّ: «و - تخيّل! - عندما كانت بنت صاحبة المنزل تبحث في الحديقة بعد ثلاثة أيام عن أي شيء صالح لاستخدامه، وجدتْ خلف البرميل ذراع بابا!».

البعض ضحكوا للحظة، الغالبية صمتوا. هل سيُدفَن الذراع أيضاً؟

لكي تتعرّف على الناس هنا في القبو: قبالتي يجلس رجل عجوز، يلفّ نفسه ببطانيات، محموم تفوح منه رائحة العَرَق، تاجر. إلى جانبه زوجته التي تتحدّث بلهجة هامبورغية متحمّسة، وتبرز حرف الـ "س" بقوة، وابنتهما ذات الثمانية عشرة سنة ستينشن (مع الاس الهامبورغية). ثمّ سيدة شقراء، جاءت منذ فترة قصيرة إلى هنا، ولا يعرفها أحد، يداً بيد رفيقها في السكن . مستأجرها ـ الذي لا يعرفه أي أحد أيضاً. ثمّ موظّف البريد السابق، ووجهه الحزين. إلى جانبه، تجلس زوجته التي تضع ساقاً اصطناعية بين ذراعَيْها، جهاز مبتكر من النيكل، جلد وخشب، مثل تمثال بييتا(*) الناقص. ابنها لديه ساق واحدة، يرقد، أو رقد، لا يعرف المرء، على أي حال، في مستشفى ڤروتسواف. الكيميائي الأحدب من مصنع العصير يجلس مثل جنٍّ مُتخَفٍّ على كرسيٍّ بذراعَيْن. ثمّ عائلة البوّاب، المتكوّنة من أمّ، بنتَيْن، وحفيد دون أب، وهو ابن البنت الكبرى. ثمّ إرنا وهَنّي من المخبز، لا تستطيعان العودة إلى المنزل بعد الآن، ولهذا تسكنان عند الخبّاز. ثمّ البلجيكي أنتوين وشعره الأسود، يعمل مع الخبّاز، ولديه علاقة عاطفية مع هَنّي. مدبّرة المنزل،

---

*) بييتا (Pietà): أو "الشفقة" هو موضوع من مواضيع الفن المسيحي؛ حيث يصوّر مريم العذراء محتضنة جثّة يسوع، و غالباً ما يوجد في النحت.

التي تركها صاحب المنزل خلفه، في صراع مع كل قوانين واقيات التنفّس تحضن بين ذراعَيْها كلباً أجربَ، من نوع فوكس ترير. ثمّ أنا: شاحبة وشقراء، وأرتدي - دائماً - المعطف الشتائي الذي تمكّنتُ من إنقاذه عن طريق الصدفة. «حتّى إشعار آخر» أُرسلت في إجازة من قِبَل الناشر؛ الأسبوع الماضي، حيث كنتُ أقوم بكل الأشياء الصغيرة بعد أن استُدعي جميع الموظّفين للخدمة العسكرية. بالإضافة إلى أشخاص هنا وهناك، بلا لون وغير ملحوظين، منبوذين، لايمكن الاستفادة منهم، لا في الجبهة، ولا في الفولكسشتورم(*). غائب: الخبّاز، الوحيد مَن يملك بطاقة سفر حمراء من الفئة III في المنزل، ويركب القطار إلى حديقته؛ ليدفن الفضة. غائبة: فرولاين بين، وقحة، موظّفة بريد غير متزوّجة، ركضتْ للتوّ إلى أعلى، عند توقّف سقوط القنابل؛ لتجلب صحيفة اليوم. غائبة: سيدة، ذهبت - الآن - لتدفن سبعة من أفراد عائلتها في بوتسدام؛ حيث ماتوا في الغارات الجوّيّة الأخيرة العنيفة. غائب: المهندس الذي يسكن الطابق الثالث مع زوجة وولد. في الأسبوع الماضي، غادر في سفينة شحن، حملتْه مع أثاثه على طول ميتيلاند كانال إلى برونزڤيك؛ حيث انتقل مصنع الأسلحة الذي يملكه. الصناعة كلها تحرّكت إلى وسط البلاد. الزيادة السكّانية هناك سوف تُسبّب الكثير من التوتّر. إذا لم يتواجد «الآمي»(**) هناك بعد. في الواقع، لن تعرف هذا أبداً.

منتصف الليل. بلا كهرباء. على عارضة خشبية فوق رأسي يدخّن المصباح النفطي. الهمهمة المملّة في الخارج أصبحت أقوى. عادة المناشف دخلت حيّز التنفيذ، غُطّيت كل الأفواه والأنوف. حرملك تركي شبحي، رواق مع أقنعة موتى شبه محجّبين. وحدها العيون حيّة.

---

*) الفولكسشتورم (Volkssturm): أو القوّات الشعبية، وهي ميليشيا وطنية ألمانية، ظهرت في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية.

**) آمي (Ami) : كنية للجيش الأمريكي، تُستخدم للتحقير.

السبت، ٢١ أبريل ١٩٤٥، الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

قنابل، والجدران ترجف. أصابعي ترتجف - أيضاً - حول قلمي الحبر. أنا مبتلّة، كما لو أني أنجزتُ عملاً شاقاً. أكلتُ في وقت سابق شرائح خبز سميكة في القبو. منذ أن تعرضتُ للقصف، وساعدتُ تلك الليلة في إنقاذ المدفونين الأحياء، أُصبتُ بنوبات من الخوف القاتل. الأعراض - دائماً - نفسها. في البداية، يبدأ شعري في التعرّق، شعور مزعج في ظهري، وخز في رقبتي، سقف حلقي يصبح جافاً، وقلبي يدقّ ببطء. عيناي تحدّقان برجل الكرسي أمامي، ويطبعان في مخيّلتي كل انتفاخ ومنحنى فيه. يمكنني الصلاة الآن. تلمّس ذهني جملاً معروفة: «دع العالم يهلك، لا شيء ... لن يسقط عصفور على الأرض... لا تخافي...» حتّى تتلاشى النوبة.

تحررت ثرثرة محمومة، كما لو أن أحداً أمرهم بذلك. الجميع كانوا يضحكون، الآخرون يصيحون، يُفرغون ما لديهم من النكات. فرولاين بين تقدّمت مع الصحيفة، وقرأت خطاب گبلز بمناسبة عيد الفوهرر(*)، تاريخ أغلبنا لم يعد يتذكّره. قرأتُ بتشديد خاص في النطق، بلهجة ساخرة جديدة. نحن هنا في الأسفل لم نسمع بها بعد. «الذرة الذهبية في الحقول ... أيها الناس، الذين يعيشون في سلام...». «فكّر» يقول البرليني و«Schön wär's ja»(**) «حبذا لو». موسيقى من الماضي، لن تجد مَن يسمعها الآن.

---

*) الفوهرر (Führer): تعني القائد، استخدمتُ الكلمة كلقب للقائد النازي هتلر.

**) يمكن ترجمتها - أيضاً - إلى: أتمنّى. جميل على أي حال. سيكون من الرائع لو.

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. القبو نائم. عدّة مرّات دقّت إشارة الأمان، لكنْ؛ بعدها مباشرة إشارة الإنذار من جديد. لا قنابل. جلستُ أكتب، هذا يجعلني أفضل، يُلهيني. أريد أن يقرأه گيرد عندما يعود - وإذا لم يعد أيضاً ... - لا، شطبتُ هذا، لن أسمح لنفسي بهذا التفكير.

الفتاة الشابة - التي تبدو مثل رجل شاب - جاءت نحوي، وسألتْ ماذا أكتب. أنا: «مذكّرات». نظرتْ بفضول من فوق كتفَيَّ، وخاب أملها عندما لم ترَ أكثر من اختزالات. أنا: «ليس شيئاً مهماً. مجرّد خربشة لنفسي، وبهذا لديّ شيء أفعله».

بعد الغارة الأولى، حضر زيگزموند، رجل عجوز من الحي، طردوه من القبو

الذي كان فيه، ربمّا لأنه لا يزال يتحدّث عن «Sieg» ألمانيا (انتصار ألمانيا)، ولذلك انضم إلينا بلقبه. زيكزموند يؤمن - حقاً - أن الخلاص قريب، والنصر مؤكد،؛ لأن "ذلك الرجل" (الاسم الجديد لأدولف هتلر) يعرف جيداً، ماذا يفعل. إذا تحدّث زيكزموند بهذه الطريقة، ينظر الآخرون إلى بعضهم بصمت، والكثير من الدلالات على وجوههم. لا أحد يميل إلى مناقشته. مَن يجادل - الآن - مجنوناً؟ علاوة على ذلك، جنونه خطر أحياناً. زوجة البوّاب - فقط - مَن توافقه الرأي بحماس، وتعلن من بين نابَيْها، أننا يمكننا الاعتماد على "ينر"، كما نعتمد على ربنا.

الساعة التاسعة صباحاً في العلّيّة. صباح رمادي، ورذاذ المطر. كتبتُ على حافة النافذة التي تصلح كمنضدة للقراءة. بعد ثلاث ساعات، دقّت إشارة الأمان. ذهبتُ إلى فوق، نزعتُ ثوبي وحذائي، وارتميتُ على السرير. نمتُ خمس ساعات كاملة. والغاز تمّ غلقه.

حسبتُ للتوّ نقودي: ٤٥٢ مارك. لا أعرف ماذا أفعل بهذا المبلغ؛ لأن المشتريات القليلة التي لا يزال بالإمكان شراؤها، يمكنك أن تدفع ثمنها بالفنيكات. بالإضافة إلى ذلك، لديّ في حسابي البنكي ألف مارك، لم

أستخدمه. ليس هناك أي شيء لشرائه. (عندما فتحتُ هذا الحساب في السنة الأولى من الحرب، كنتُ أفكر - حينها - بالسلام، وأدّخر لسفرة حول العالم. يبدو كما لو مضى على ذلك زمن طويل). بعض الناس كانوا يُهرعون في تلك الأيام إلى البنوك، كانت لا تزال مفتوحة؛ ليسحبوا أموالهم. لكنْ؛ إلى أين؟ عندما نُجرَف بعيداً، يدخل المارك معنا في البالوعة. النقود الورقية قيمة وَهْمية، وأصبحت مجرّد ورق عندما انهارت الحكومة. أتصفّح كومة الأوراق النقدية، ولا تُشعرني بشيء. بالنسبة لي هي أفضل هدية تذكارية. صور نقود من زمن مضى. أظن أن المنتصرين حملوا أموالهم معهم. أو ربّما سوف تُطبَع نقود الجنود في مكان ما، إذا سمحوا لنا أن نصل إلى هذا الحدّ، ولم نُحاكَم بالعمل، من أجل كوب من الحساء.

بعد الظهر. مطر متواصل. مشيتُ إلى بارك شتراسه؛ لأضيف رزمة نقود أخرى إلى كومتي من «صور النقود». المحاسب أعطاني راتبي، وقال، إني حصلتُ على «إجازة». توقف النشر. وتبادُل العملة لم يعد له وجود، لا أحد يحاول الذهاب إلى العمل، وهذا يعني أننا - الآن جميعاً - مديرو أنفسنا.

البيروقراطية تزدهر - فقط - إذا كان كل شيء على ما يرام. على أي حال، أُغلقتْ جميع المكاتب الحكومية حالما بدأت القنابل تُمطر. (في لحظة أصبحتُ هادئة تماماً، صمت مخيف). لم نعد محكومين بعد الآن. ونشأ - بشكل طبيعي - نوع من النظام، في كل مكان، في كل ملجأ. عندما هربتُ من القصف لاحظتُ، أن حتّى هؤلاء، الذين كانوا يُدفَنون، وهم أحياء، الجرحى، مع خوف على وجوههم، لكنْ؛ بنظام مناسب، يختفون من مشهد الصراع.

هذا القبو - أيضاً - أصبح محكوماً من قِبَل روح النظام والمؤسسة. يجب أن يكون هذا متجذّراً فينا بعمق. في العصر الحجري، يجب أن تكون البشرية لها مَن يمثلها. إرادة القطيع وغريزة بقاء النوع. في عالم الحيوانات، الثور أو الفحل يُعدّ زعيماً. في هذا القبو، سوف يكون من الأنسب لو تحدّثنا عن الخيول القيادية. فرولاين بين أحدهم والهامبورغية الهادئة. أنا لا، ولا حتّى في ملجئي السابق؛ حيث كان يهيمن على المكان جوّار ثور، رائد متقاعد،

لا يعطي فرصة واحدة لرجل ولا امرأة. وقفتُ - دائماً - ضدّ التجمع القسري، أفصل نفسي دائماً، وأبحث عن زاوية هادئة؛ لأنام فيها. لكنْ: إذا صاح الحيوان القائد، أتبعه عن طيب خاطر.

في طريق العودة من بارك شتراسه، سرتُ قليلاً مع القطار. لم أجرؤ على ركوب القطار، ليس لديّ بطاقة النقل من فئة III، على أي حال. القطار كان خالياً تقريباً، أحصيتُ ثمانية ركاب. مئات الناس كانوا يمشون تحت الأمطار الغزيرة، رغم أن القطار، الذي يجب أن يسير، يمكن أن يقلّهم بسهولة. لكنْ: لا، «Ordnung muss sein»(*). النظام في داخلنا جميعاً. نحن مطيعون.

اشتريتُ خبزاً من المخبز. المحل لا يزال مجهّزاً بشكل جيد. ليس هناك مؤشّرات على خزن الأطعمة. ذهبتُ - بعد ذلك - إلى مكتب التوزيع. اليوم كان دور حرفي في ختم كوبونات البطاطا ٧٥ إلى ٧٧. تمّ الأمر بسرعة مذهلة رغم أن هناك امرأتَيْن - فقط - في الخدمة. كانتا تنظران - بالكاد - إلى الكوبونات، ختمَتَا عليها، بشكل أوتوماتيكي، مثل الآلة. لماذا هذا الختم؟! لا أحد يعرف! لكن الجميع يراوغ، ويحصل عليه، له معنى، بطريقة أو بأخرى. وفقاً للإعلان سوف يأتي دور الحروف من X إلى Z أخيراً في ٢٨ أبريل.

كانت العربات تسير في المطر باتجاه المدينة، مغطّاة بظلّة مبلّلة، تحتها الجنود. رأيتُ للمرّة الأولى وجوهاً متّسخة، ولحى شائبة، «علامات الجبهة» الحقيقية، كلهم رجال مسنّون. أمام العربات يسير حصان بولندي صغير داكن، ويلمع من المطر. الشحنة كانت تتكوّن من القشّ. لم يعد هناك الكثير من آلية «blitzkrieg»(**).

---

*) هي مقولة ألمانية معروفة، تصف الثقافة الألمانية، يمكن ترجمتها إلى: يجب أن يكون هناك نظام، أو النظام واجب.

**) blitzkrieg (حرب البرق، أو الحرب الخاطفة) مفهوم عسكري، يُستخدم في العمليات الهجومية. تعتمد على عنصر المفاجأة والهجوم المباغت. الجيش الألماني (الفيرماخت) طبّق هذا المفهوم، واستخدمه - بشكل كبير - خلال الحرب العالمية الثانية خصوصاً خلال حرب بارباروسا التي سعى فيها الفيرماخت لاجتياح الاتحاد السوفييتي.

في طريقي إلى المنزل، دخلتُ حديقة البروفيسور كا المهجورة، خلف الخراب المسوّد لمنزله؛ لأقطف الزعفران والليلك. جلبتُ فراو گولس بعضاً منها، سيدة من بنايتي السابقة. جلسنا متقابلتَيْن إلى الطاولة؛ لنتحدّث؛ أي لنصرخ ضدّ إطلاق النار الذي كان قد بدأ من جديد. فراو گر قالت بصوت منكسر: «الأزهار، أوه، يا لها من أزهار رائعة!». سالت دموعها على وجهها. أنا - أيضاً - تلقّيتُ هذا بغضب. من شأن شيء جميل أن يجعلكَ تتألم في الوقت الحاضر. بعد هذا كله، أنت مليء بالموت.

هذا الصباح حاولتُ أن أتذكّر كم من الموتى رأيتُ في حياتي. الأول كان هير شيرمان. كنتُ في الخامسة، وهو في السبعين من عمره. شعر أبيض فضي، على حرير أبيض، شموع عند رأسه، قيّمة ومؤثّرة. في ذلك الوقت، كان الموت احتفالياً، ونقياً. حتّى ١٩٢٨، عندما سمح لي كلّ من هيلدا وكاته پي رؤية أخيهما الذي مات في اليوم السابق. مضطجع على الأريكة مثل كومة خرق، رُبط فكّاه بقماش أزرق. ساقاه مطويّتان مثل شيء قذر، أو لا شيء على الإطلاق. وضع أقارب الميت في - ما بعد - أظافر زرقاء بين الورد وأكاليل الزهور.

وبعد ذلك، عندما دُهس رجل في باريس، سُحق حتّى تحوّل إلى كتلة دموية. ورجل تجمّد حتّى الموت في موسكو. وأخيراً، أبي، كان موته قاسياً، وصعباً.

نعم، رأيتُ موتى، لكن الاحتضار نفسه، لم أره بعد. سوف أجرّبه قريباً. لكني لا أؤمن بأن الموت سوف يتمكّن منّي. لقد انزلقتُ كثيراً من منجله، أشعر أني في أمان. هكذا سوف يشعر الكثير من الناس. وإلا كيف يمكنهم أن يمرحوا وسط هذا العدد الكبير من الموتى؟ ثبت أن الخطر الذي يهدّد حياتكَ يقوّي عزيمتكَ على الحياة. شعلة حياتي تحترق ساطعة أكثر ممّا كانت عليه قبل قنابل الحرب. كل يوم جديد من حياتي هو يوم انتصار. تحدٍّ؛ أن تقف منتصباً، وبثبات على الأرض. في ذلك اليوم، المرّة الأولى التي

اهتزّت فيها الجدران من القنابل، كتبتُ بعض أبيات من الشعر اللاتيني على جدار غرفتي، لا أزال أذكرهم حتّى الآن:

Si fractus illabatur orbis
Impavidum ferient ruinae.(*)

إذا انهدم العالم من حولكَ
حطامه سيُبقيكَ شجاعاً

عندها كان يمكن الكتابة إلى خارج البلاد. كتبتُها في رسالة إلى أصدقائي عائلة دي. في ستوكهولم، ربّما - أيضاً - لتشجيع نفسي. الأبيات أعلاه نُظمَتْ، وكُتبَتْ عن قوّة وجودنا المهدّد. مع الكتابة، أشعر بالعطف، كما لو أني بالغة الآن، وتوغّلتُ إلى جوهر الحياة، أُخاطب أطفالاً أبرياء، بحاجة إلى الحماية.

---

*) هوراس الكتاب الثالث، القصيدة الثالثة، السطر السابع.

الأحد، ٢٢ أبريل ١٩٤٥، الساعة الواحدة ليلاً.

استلقيتُ على سريري؛ لأغفو. الريح تندفع من بين النوافذ المكسورة، وقدماي وضعتُهما على بلاطة، كانت فوق لهب غاز صغير لساعات حتّى تسخن. الساعة الثامنة مساءً طرقتْ فراو ليمان الباب بعنف «انزلي، بسرعة! لن يكون هناك إنذار؛ لأن صفّارات الإنذار، لا تعمل. الجميع في القبو».

نزلنا الدرج باندفاع، وسرعة خطيرة جداً، كعبي بقي عالقاً خلف مثبّت سجّاد الدرج. كنتُ للتوّ قد أمسكتُ بالدرابزين. وهنتْ ركبتاي، شعرتُ بقلبي، وهو يدقّ، عندما كنتُ أتلمّس الطريق عبر الممرّ في ظلام خانق حتّى شعرتُ بمزلاج باب القبو.

في الداخل، كان الوضع قد تغيّر. مَن يمكن أن يكون له سرير، يحتفظ به لنفسه؟! في كل مكان هناك وسائد، أغطية وأسرّة قابلة للثني. بصعوبة، حاولتُ المرور من بينها إلى مكان جلوسي. الراديو صامت، ليس هناك إشارة الوقت من المطار بعد الآن. المصباح النفطي بريقه خافت. سقط عدد من القنابل، وعاد الهدوء بعد ذلك. ظهر زيكزموند، العلم الذي يرفرف عالياً. شميت همس بشيء عن بيرناو وزوسن؛ حيث سيكون الروس. زيكزموند - بالمقابل - صرّح بتحوّل سريع. نبقى مع بعضنا، وتمر الساعات، كما لو أنها تزحف، المدفعية تهدر - الآن - على مقربة منا، ثمّ بعيدة مرّة أخرى. «لا تعودي إلى الطابق الرابع بعد الآن» قالت أرملة الصيدلي، وقدّمتْ لي سريراً في شقّتها في الطابق الأول. نصعد الدرج الخلفي. (اللوح لا يزال معلّقاً:

"مدخل خدمة الموردين") درج حلزوني ضيق. شظايا الزجاج تصرّ تحت قدمَيّ، الريح كانت تُصفّر من خلال النوافذ. جئتُ؛ لأستلقي على أريكة في غرفة مجاورة للمطبخ، حيث تمكّنتُ من النوم لساعتَيْن تحت البطّانية والهواء الفاسد. حتّى حوالي منتصف الليل، سقطت قنابل قريبة، وكان علينا الهروب إلى جناح القبو مرّة أخرى.

ليلة طويلة جداً، أنا متعبة جداً للكتابة الآن...

في صباح اليوم التالي، حوالي الساعة العاشرة، كنتُ في غرفتي. بقينا في القبو حتّى الساعة الرابعة تقريباً. صعدتُ إلى هنا، سخّنتُ قليلاً من شوربة الملفوف على نار الغاز المحترق الخافتة، قشّرتُ البطاطا، وسلقتُ بيضتي الأخيرة. أكلتُها، وهي لا تزال سائلة بعض الشيء، رششتُ - بعد ذلك - آخر ما تبقّى من عطر على جسمي. المضحك أن هناك الكثير من الأشياء التي تقوم بها - حالياً - تقوم بها لآخر مرّة؛ أي، للمرّة الأخيرة، لزمن طويل. من أين آتي ببيضة جديدة؟! وعطر؟! لهذا استمتعتُ وأنا واعية ومقدّرة جداً لهذه الأشياء. تسلّلتُ - بعد ذلك - إلى الفراش، وأنا أرتدي ملابسي، بالكامل، نمتُ، بشكل متقطّع، وحلمتُ أحلاماً مشوّشة. الآن يجب أن أذهب، أذهب للتسوّق...

عدتُ إلى العليّة مرّة أخرى، الساعة الثانية من بعد الظهر. كانت تمطر في الخارج، ولم يكن هناك المزيد من الصحف. ومع ذلك، كان الناس يحتشدون في الموعد المحدّد عند مكاتب توزيع البطاقة التموينية، التي أُعلن عنها في ملصق خاص. لدينا - الآن - ما يشبه خدمة الأخبار الشفوية. الأخبار كلها تنتقل من فم إلى فم. الأخبار كلها تنتقل من تلقاء نفسها. حصلنا على «Vorschüsse» (قروض) مثلما تُسمّى رسمياً، أطعمة يتمّ توفيرها قبل أن يأتي دور الكوبونات المَعنية. لحم، سجق، طحين، سكّر، فاكهة محفوظة، وبديل القهوة. ذهبتُ؛ لأقف في صفّ، وقفتُ لساعتَيْن في المطر، وحصلتُ - أخيراً - على ٢٥٠ غرام جريش، ٢٥٠ غرام من دقيق

الشوفان، رطلَيْن من السّكّر، ١٠٠ غرام من بديل القهوة، وعلبة كرنب ساقي. لا أزال أقف من أجل اللحم، السجق، وحبوب القهوة. حشد من الناس عند القصّاب في الزاوية، أربعة صفوف متجاورة، لا نهاية لها، في مطر عاصف. صفّي يَطنّ بالشائعات: رجل قال إن كوبنيك استسلمتْ، ڤونزدورف محتلّة، العدوّ يقف على قناة تيلتو. «حول ذلك» فجأة، لم تتحدّث أيّ امرأة، كما لو كان ذلك باتفاق مُسبَق.

بعد هذه الحوارات في الصفّ؛ حيث ينزل المرء تلقائياً إلى المستوى العام من الشكل والمحتوى، وحيث ينغمر المرء في العواطف الجمعية، أشعر - دائماً - أني لزجة وقذرة. لا أريد أن أضع أي حاجز، أريد أن أنضم إلى التجارب الجمعية، أشارك بها. العزلة المتغطرسة التي سارت بها حياتي الخاصة عادة، دخلتْ في صراع مع الرغبة في أن أكون مثل الآخرين تماماً، في أن أنتمي إلى معاناة الشعب والتاريخ.

ماذا يمكنني أن أفعل غير هذا؟! يجب أن أنتظر. المدفعية المضادّة للطائرات والمدفعية هما نبرة يومنا في الوقت الحاضر. أحياناً أتمنّى أن ينتهي كل شيء. هذه الأيام الغريبة. أنت تعايش التاريخ، بشكل مباشر، الأشياء التي سوف تُكتَب في كُتُب التاريخ لاحقاً. لكنها عن قرب، تضيع في الحذر والخوف. التاريخ مُملّ جداً.

غداً سوف أذهب للبحث عن نبات القرّيص، وأحاول العثور على بعض الفحم. ما يفصل بيننا وبين الموت جوعاً هو مؤونتنا الصغيرة. أنا قلقة جداً عليها مثل ما يَقلق رجل ثريّ على أمواله، يمكن أن تتعرّض للقصف، السرقة، أن تأكلها الفئران، وأن ينهبها عدوّ. أخزّنها - أيضاً - داخل الكثير من الصناديق الكارتونية، من أجل القبو. وبالطبع، يمكنني حمل ممتلكاتي كلها بسهولة أكثر، وأنا أصعد وأنزل الدرج.

في وقت متأخّر من المساء، في الظلام تقريباً. زرتُ فراو گولس مرّة أخرى. زوجها كان هناك أيضاً، يرتدي سترة، ويَلفّ شالاً، كانت الغرفة باردة ومهوّية.

كانا هادئَيْن ومتشائمَيْن. أصبح العالم - بالنسبة لهما - غير مفهوم. لم نتبادل أيّ كلمة. في الخارج صوت مستمرّ مُدوٍّ، يبدو وكأنه طرقعة، توقّفت، بسبب القذائف المرتدّة من قِبَل المدافع المضادّة للطائرات، كما لو أن أحدهم ينفض سجّادة عظيمة بين السماء والأرض.

صدى إطلاق النار ظل عالقاً في الأفنية. للمرّة الأولى أفهم ما معنى العبارة: «دوّي المدافع» التي لا أزال أضعها - دائماً - في سطر واحد مع «شجاعة الأسود» و«صدور الأبطال». لاحظتُ - الآن - أن العبارة معمول بها، بشكل استثنائي.

في الخارج، مطر وعاصفة. وأنا أقف في المدخل، رأيتُ مجموعة من الجنود يسيرون، وهم يجرّون أقدامهم. بعضهم كان يعرج. صامتون، وخدودهم غارقة، لم تُحلَق منذ أيام، منحنون تحت أعبائهم الثقيلة، يتقدّمون ببطء خارج المسار، باتجاه مركز المدينة.

«Was ist los?» (ماذا يحدث؟) صرختُ «إلى أين أنتم ذاهبون؟».

لم يجبْني أحد. أحد الرجال همهم بشيء غير مفهوم، وقال آخر بصوتٍ عالٍ إلى نفسه: «فوهرر، يأمُر. نحن نتبعكَ حتّى الموت!».

يبدون بائسين، لم يعودوا رجالاً، على الإطلاق. ليس لكَ إلا أن تُشفق عليهم. لم يُترَك لهم شيء يتمنّونه، أو يتوقّعونه. خلقوا انطباعاً بالهزيمة، وبأنهم مقتادون إلى السجن، بالفعل. عيونهم التي لا ترى شيئاً، تنظر حولنا. يبدو أننا نحن، الشعب، المواطنين، البرلينيين، أياً كنا نحن، لم نبال، لانضباطهم. لا أصدّق، أنهم يشعرون بالخجل من مظهرهم المهمل. لذلك هم بُلداء جداً، ومتعبون جداً. منهكون من المعركة. لم أعد أرغب في النظر اليهم أكثر من ذلك.

على الجدران، كان هناك حروف مرسومة بالطباشير، من المحتمل أنها تؤدي إلى مكان ما للتجمّع. على الشجرة، على الجانب الآخر، كانت نشرات

مثبتة بالدبابيس الورقية. قطعٌ من الكارتون مكتوب عليها بخطّ مرتّب بالقلم الأحمر والأزرق، «موقّعة» من قِبَل هتلر وگبلز. إحدى هذه النشرات حَذّرت من الاستسلام، وهدّدت بعقوبة الاعدام والرمي بالرصاص. نشرة أخرى، معنونة بـ «نداء إلى البرلينيين»، حَذّرت من المتمرّدين الأجانب، ودعت كل رجل إلى القتال. الأشياء لا تحدث في آن واحد. النص المكتوب كان يبدو مثيراً للشفقة، غير منطقي على الإطلاق، كما لو أنه همس.

نعم، التكنولوجيا أفسدتْنا. ما لم نحصل عليه من الصحافة المتداولة ومكبّر الصوت يصلنا بشكل بائس وبدائي. شيء مكتوب باليد، أو دعوة عبر فم واحد، ماذا يعني هذا كله؟! التكنولوجيا ضاعفت تأثير الكلمة المكتوبة والمنطوقة إلى آلاف المرّات، ولهذا فقدتِ الكلمةُ المكتوبة والمنطوقة قيمتَها. مع صراخ البعض، ومع النشرات المبتكرة الخارجة عن السيطرة هناك تسعون فرضية عند باب أحد الكنائس في ڤيتنبيرك، بمثل هذه الأشياء، اندلعت الثورات في الماضي. بالنسبة لنا في الوقت الحاضر، يجب أن تكون الثورات أكبر، أن تُعرَف في مجموعات أكبر، أن تتضاعف بالمكائن؛ لتصبح فعّالة. سيدة كانت تقرأ النشرات، لخّصتها في جملة واحدة: «والآن، يمكننا أن نرى إلى أين وصل الحال بهذَيْن الرجلَيْن».

الساعة العاشرة مساءً، في القبو. بعد أن تناولتُ شوربة المساء، استلقيتُ قليلاً على السرير، ونزلتُ - بعد ذلك - بهدوء إلى القبو. بلدية القبو كانت مكتملة. قصف قليل اليوم، رغم أن الوقت كان مناسباً، لم يكن هناك غارة جوّيّة. انفجر مرح انفعالي. طافت أنواع القصص كلها بيننا. فراو ڤي. صرخت: روسي فوق بطني أحبّ إليّ من آمي على رأسي!» نكتة، لا تتناسب كثيراً مع ملابس الحِداد التي ترتديها. فرولاين بين صاحت في القبو: «دعونا نكون عادلين الآن، أراهن على أن ليس هناك عذراء واحدة بيننا!» لم تحصل على جواب، أنا أسأل نفسي. ربّما البنت الصغرى للبوّاب التي أصبح عمرها ستة عشر عاماً منذ وقت قريب، وبعد زلّة أختها، تمّت

حراستها، بشكل جيد. وعلى أي حال، أرى ذلك في وجهها، ستينشن ذات الثمانية عشر عاماً التي تضطجع نائمة بسلام في إحدى زوايا القبو. الحالة الأكثر قلقاً بالنسبة لي، هي حالة الفتاة التي تبدو كرجل شاب. لكنْ؛ ربّما هذه حالة خاصة.

كان هناك وافد جديد إلى القبو، سيدة تجتاز - دائماً - ست حواجز حتّى تصل إلى الملجأ العمومي؛ لأنها تجده آمناً. تسكن وحدها، أرملة، مطلّقة، أو مهجورة، لا أعرف إلى الآن. على خدّها الأيسر التهاب قيحي. كانت تهمس في البداية، وبعد ذلك، تحدّثت بصوتٍ عالٍ، قالت إنها ربطت خاتم زواجها بالشريط المطّاطي لسروالها الداخلي.

«عندما تقدّموا - فجأة - إلى هذا الحدّ، لم يعد يهمّني أمر الخاتم!».

ضحك الجميع. على أي حال، يمكن أن يكون الالتهاب الجلدي نافعاً لحمايتكَ من مثل هذه الحالات. مهما كان ثمنها.

الاثنَيْن ٢٣ أبريل ١٩٤٥، التاسعة صباحاً.

ليلة هادئة مذهلة، بالكاد، سمعنا فيها صوت المدفعية. مواطن قبو جديد حضر، زوج السيدة التي هربت من القصف من آدلرزهوف، كان يبحث - هنا - عند والدة زوجته عن مأوى. جاء وهو يرتدي زياً رسمياً، بسرّيّة تامة، وبعد ساعة، ارتدى ملابس مدنية. لماذا؟ لا أحد يتحدّث عن ذلك، ولم يهتم بأمره أحد. جندي صارم من الخطوط الأمامية، لا يزال يبدو بصحة جيدة. وهو موضع ترحيب.

الهزيمة تبدو واضحة جداً، نعم، بجدارة. كان عليّ أن أفكّر بالثلاثمائة إسبرطي وليونيداس، الذين قاتلوا في ثرموبايلي، وقُتلوا، كما أُمروا. كان هذا ما تتعلّمه في المدرسة، يجب أن تكون معجباً بهذا. ربّما، هنا وهناك ثلثمائة جندي ألماني كانوا على استعداد أن يفعلوا مثلهم تماماً. ثلاثة ملايين، لم يفعلوا شيئاً، على أي حال. كلّما كان العدد أكبر، قلّت فرصة البطولة في الكُتُب المدرسية. من طبيعتنا - نحن النساء - أننا نجد هذا كله بلا معنى، نحن منطقيات، عمليات، ولدينا روح المبادرة. نحن في الوجود من أجل حياة الرجال. (وكتبتُ هذا - بالفعل - في دفتري الخاص المقروء - فقط - بالنسبة لي. لا نزال ننحني لقوانين وتهديدات عصرنا رغم أن حكومتنا لا تزال تملك مثل هذه الذراع القصيرة).

في منتصف الليل، كنتُ على وشك السقوط من الكرسي؛ من التعب (أين يجب أن أجد مكاناً، أضطجع فيه؟) وبعدها صعدتُ، وأنا أتعثّر على

الدرج الذي يغطّيه الزجاج إلى الطابق الأول. نمتُ هناك على أريكة أرملة الصيدلي حتّى الساعة السادسة. فوجئتُ عندما سمعتُ أن خلال هذه الساعات سقطت سلسلة من القنابل. كنتُ نائمة تماماً.

الخبّاز باعني خبزه الأخير. وكانت هذه - أيضاً - كوبونات الخبز الأخيرة لديّ. لم يَلُحْ في الأفق بطاقات تموينية جديدة. ليس هناك أي أوامر، ولا نشرات أخبار، لا شيء. لا أحد يهتم بشأننا بعد الآن. فجأة، نحن أفراد، لم نعد مجتمعاً وطنياً. العلاقات القديمة كلها بين الأصدقاء والزملاء تلاشت، طالما المسافة بينهم تبلغ أكثر من ثلاثة منازل. مجتمع الكهوف، العائلة، مثل عصر ما قبل التاريخ. أُفُقُنا ليس أبعد من مئة متر.

عند الخبّاز، قال رجل إن الروس وصلوا إلى ڤايسنزي ورانزدورف. كثيراً ما كنتُ أذهب للسباحة في رانزدورف. حاولتُ أن أصرخ بصوتٍ عالٍ: «الروس في رانزدورف!». لم يخرج صوتي. السماء لونها أحمر ناري اليوم من جهة الشرق. حرائق لا نهاية لها.

الساعة الواحدة من بعد الظهر. للتوّ عدتُ من رحلة البحث عن فحم. عندما تمشي باتجاه الجنوب، تلاحظ أنكَ تقترب من الجبهة. قناة السكك الحديدية قد أُغلقت، بالفعل. الناس الذين كانوا يقفون أمامها قالوا: إن على الجانب الآخر كان هناك جندي بلباس داخلي، مشنوق، ومعلّق حول عنقه لوحة مكتوب عليها «خائن». كان معلّقاً إلى مستوى منخفض جداً؛ بحيث يمكنك أن تلفّ حول ساقَيْه. هذا ما قاله أحدهم، رأى ذلك بنفسه، وطاردوا الأولاد الذين كانوا يَتسلّون بالدوران حوله.

برلينر شتراسه يبدو موحشاً، شبه ممزّق، وأُغلق بالحواجز. صفوف من الناس أمام الدكاكين. وجوه بلُدت تحت ضجيج المدافع. شاحنات كانت تسير باتجاه المدينة. أجساد قذرة مغطّاة بالطين، ووجوه فارغة في ضمادات ملطّخة بالدم، تسير بصعوبة بينها. خلفهم تسير عربات حصاد، يركب عليها رجال كبار في السّنّ. عند الحواجز، ظل الفولكسشتورم ينتظرون في زيّهم

التالف. كان هناك أطفال صغار جداً معهم، وجوه طفولية تحت خوذات فولاذية كبيرة، تندهش من أصواتهم العالية الحادة. كانوا في الخامسة عشرة، كأعلى تقدير، يبدون صغاراً جداً، ونَحْلَى، في ذلك الزي الفضفاض.

لماذا المرء ساخط جداً على قتل الأطفال بهذه الطريقة؟ لو كانوا أكبر بثلاث أو أربع سنوات، سوف نتقبّل الأمر، بشكل طبيعي، كما نتقبل أن يُقتلوا رمياً بالرصاص، وأن يتمزّقوا إلى أشلاء. ما هي الضوابط؟ متى ما خشنتْ أصواتهم؟ لأن أكثر ما يعذّبني هو تذكّر الأصوات العالية الواضحة لتلك الديدان. جندي ورجل ظلّ حتّى الآن شيء متطابق. الرجل هو الخالق. هؤلاء الأولاد سوف يُبَدَّدُون قبل أن يَنضجوا، يجب أن يُنتهَك أحد قوانين الطبيعة الذي يتعارض مع غريزة الحفاظ على النوع. مثلما تفعل بعض الأسماك والحشرات التي تلتهم بيوضها. لا يجب أن يحدث هذا بين البشر. ولا يزال هذا عارضاً من أعراض الجنون.

في بناية الناشر، كان القبو لايزال مليئاً بالفحم، بينما ترك الأفراد كلهم البناية. السيدة التي هربت من القصف، والتي اتخذت من القبو محل إقامة لها، انهالت عليّ بالأسئلة حول ما يمكن أن يحدث. اتضح أن ابنتها الكبرى أمّ لطفل عمره ثمانية أسابيع، منذ البارحة، ليس لديها حليب، فجأة لم تتمكّن من الرضاعة، والطفل يصرخ طوال الوقت. الآن لم يعد هناك المزيد من حليب البقر، هذا جعل الجميع قلقين حول كيفية إنقاذ الأطفال. اقترحتُ على الأم الشابة أن تجرّب الأعشاب ونباتات الحقول. ربّما سيدرّ حليبها مرّة أخرى. أنا وهي انحنينا على العشب المبلّل من المطر، وملأنا مناديلنا بكمّيّات من نبات القرّيص والهندباء، بقدر ما استطعنا العثور عليها. رائحة النباتات والأرض المبلّلة، زهور الربيع، زهرة الزعرور البري. إنه الربيع. لكن المدافع كانت تنبح.

ملأتُ حقيبة الظهر بالفحم. أخذتُ معي حوالي خمسين كيلو. رغم هذا الثقل، تجاوزتُ في طريقي مجموعة من الجنود. لأول مرّة، في هذه الأيام

كلها، رأيتُ أسلحة مرّة أخرى: اثنَيْن من البانزر فاوست(*)، مسدّس رشاش، صناديق ذخيرة. شباب يرتدون أحزمة طلقات، كما لو أنها حلي بربرية.

في الساعة الثانية عشرة، كان هناك جنازة في شارعنا، سمعتُهم يقولون ذلك، أرملة الصيدلي كانت معهم. فتاة في السابعة عشر من عمرها. شظية قنبلة يدوية مزّقت ساقها، ونزفت حتّى الموت. الوالدان دفنا الفتاة في حديقتهم، خلف شجيرات الزبيب. وبدلاً من التابوت، استخدما خزانة المكنسة.

لدينا الحق - الآن - في دفن موتانا، أينما يحلو لنا، كما كان الحال في عصور ما قبل التاريخ. ذكّرني هذا بكلبي الدانماركي الضخم في بيتي السابق الذي دفنتُه - أخيراً - في الحديقة. لكنْ؛ لماذا هذه العجلة كلها؟! المالك، البوّاب، والمؤجّرون الآخرون، الجميع كانوا ضدّي. والآن إنسان يُدفَن في الحديقة، ولم يهتم أحد، نعم، حتّى إني أعتقد بأن هذا القرب فيه عزاء للوالدَيْن. وجدتُني أقول لنفسي، إن حديقتنا الصغيرة بين المنازل قد قُسِّمت - بالفعل - إلى مقابر

الساعة الرابعة من بعد الظهر، في غرفتي. قمتُ بشيء خاص. عندما كنتُ في زيارة إلى فراو گولسجرّبتُ الهاتف على سبيل المزحة. وتفاجأتُ بسماعي لأصوات، لم أسمعها منذ أيام طويلة. أدرتُ رقم گيزلا - ونجحتُ في الاتصال بها، رغم أنها تسكن في الغرب، على مسافة حوالي ساعة من هنا. محادثة صاخبة. لم نستطع التوقّف عن الحديث. شركة گيزلا لم تعد موجودة. المدير هرب باتجاه الغرب. بعد خطبة وداع، ترك الموظّفين لأنفسهم، هم لا يستطيعون شراء تذاكر القطار أيضاً. (أقصد، طالما كانت البطاقات موجودة، وطالما كانت القطارات موجودة). لقد نُسينا، وتُركنا جميعاً، نحاول أن نسمع أصواتاً، ليست موجودة، نحن وحدنا. وداعاً گيزلا،

---

*) البانزر فاوست (Panzerfaust): نوع من القذائف عديم الارتداد مضادّ للدروع، طوّرته ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية.

كلانا في الثلاثين وربمّا سنرى بعضنا مرّة أخرى بصحة جيدة. قالت لي گيزلا عبر الهاتف، إنها - الآن - بعمر والدها عندما قُتل في الحرب العالمية الأولى، في فردان. لم تعرف والدها أبداً. قالت إنها تفكر به كثيراً في الفترة الأخيرة، تُجري معه حوارات طويلة ذهنياً، كما لو جاء دورها الآن، وسوف تلتقيه سريعاً. لم نتحدّث عن هذا مع بعضنا من قبل، كنا نخجل من أن نكشف ما في قلوبنا كله. الآن خرجت الأفكار العميقة إلى السطح.

في حفرة القبو من جديد، الساعة الثامنة مساءً. اليوم مساءً، تلقّينا هجوم المدفعية الأول بصبر. همس، صفير، وعويل أوڤيييييي. وميض ناري. صرخات الهلع في الأفنية. نزلتُ الدرج، وأنا أتعثّر، وسمعتُ في الأسفل أن القنابل انفجرت أمام السينما. العدوّ أطلق النار علينا. علاوة على ذلك، تقول القصّة إن الروس كانوا يطلقون النار بعيار صغير. وهكذا بدأنا نشكّ - تدريجياً - في إن كان سيصل - أخيراً - سجّاد المتفجّرات الأمريكي اللعين أم لا. والذي من شأنه أن يؤثّر على الروس في المدينة أيضاً.

انتشرتْ شائعة جديدة في القبو: أن السيدة زوجةِ صانع الخمور تعرف أشياء سرّيّة للغاية، لكنْ؛ من مصدر موثوق جداً، وأعلنت بصدر لاهث: آمي وتومي(*) تشاجرا مع الإيڤان(**) ويريدون - الآن - أن نشاركهم من أجل طرده من البلاد. سخرية وجدل. تعرّضت السيدة للإهانة، وانهارت من الغضب في لهجتها الساكسونية. بالأمس - فقط - كان لديها مقطرة صغيرة خلف مورتز بلاتس؛ حيث - حتّى الآن - تقضي الليل مع زوجها، لكنها تركتْها. الآن عادت إلى شقّتها والقبو مرّة أخرى؛ لتحمي أملاكها هنا. زوجها ظل إلى جانب الزجاجات وقوارير التقطير و- مثلما يعرف الجميع في القبو - عشيقته ذات الشعر الأحمر إلفيرا.

---

*) تومي (Tommy) : كنية للجيش البريطاني، تُستخدم للتحقير.

**) الإيڤان (Iwan): كُنية للجندي الروسي، أو الاتحاد السوفيتي، أو الجيش الأحمر. تُستخدم للتحقير.

قبل أن تُقفل المحلات بقليل، خرجتُ إلى الطريق، وظفرتُ بـ ١٥٠ غرام من السميد. فجأة سمعتُ صراخاً، ورأيتُ الناس يركضون منفعلين إلى الزاوية. عند باله، أُفرغت شاحنة براميل زبدة، حُملت إلى البناية. زبدة كريهة الرائحة، يجب أن تُوزَّع. رطل لكل رأس، والمخيف جداً، أنها مجانية. هل هذه هي العلامة الأولى على الذعر؟! أم أنه شعور صحّيّ فريد؟! في لحظة، وقف حشد من الناس أمام الدكان، يقنّعون بعضهم بالمظلات وقبضات الأيدي. وقفتُ معهم لبعض الوقت، وسمعتُ شيئاً آخر، الدبابات الألمانية في مسيرات في مكان ما. سيدة أقسمت على أنها قد سمعت عن هذه الليلة من جهاز الاستقبال البلوري الذي لديها. عندها قرّرتُ أن أترك الزبدة للزبدة. لم يعد لديّ رغبة في الصراع، اليوم على الأقل. من غير شكّ، سوف أتعلّم هذا سريعاً.

ليلة هادئة. كان هناك هدير بعيد. مجتمع القبو منهكون - تماماً - اليوم. لا تسمع - هنا - أي ضجيج، ولا كلمة. شخير فقط، ونَفَس الأطفال الناعم.

الثلاثاء ٢٤ أبريل ١٩٤٥، بعد الظهر.

ليس هناك نشرات أخبار، نحن معزولون. هناك بعض الغاز، لكن محطّات المياه، لا تعمل. من النافذة، أرى الكثير من الناس أمام الدكاكين. ما يزال الحال، كما هو، صراع من أجل الزبدة المجانية الزنخة. رغم أن اليوم يأخذ كل شخص ربع رطل فقط. أحصيتُ أربعة رجال شرطة يحاولون السيطرة على الصخب. والمزيد من الأمطار.

في الوقت الذي كنتُ أجلس على الأريكة في الطابق الأول عند أرملة الصيدلي، دخلت الأرملة تركض منفعلة. طابور اللحوم عند هفتر تلقّى ضربة مباشرة. ثلاثة قتلى، عشرة جرحى، لكن الصفّ عاد من جديد. قَلّدتِ الأرملةُ كيف مسح الناس الدم بأكمامهم، من على بطاقاتهم التموينية. ثمّ قالت: «حسناً، صحيح، ثلاثة قتلى فقط. ما وجه المقارنة مع غارة جوّيّة؟!» نعم، لقد تعوّدنا.

رغم ذلك ذُهلتُ. مع زوج من شرائح اللحم و بعض من لحم الخنزير، من المتوقّع أن حتّى الجدّة الضعيفة سوف تحافظ على مكانها في صفّ الانتظار. كانوا يقفون هناك مثل جدران، الأشخاص أنفسهم الذين فرّوا منذ وقت ليس ببعيد إلى مخابئهم، عندما سمعوا أن ثلاث طائرات مقاتلة شُوهدت فوق وسط ألمانيا. معظم النساء - الآن - يضعنَ خوذة، أو دلواً على رؤوسهنّ. أفراد العائلة كلهم يتبادلون الوقوف في الصفّ، كل واحد يقف بضع ساعات. لم أقرّر - بعد - الذهاب للوقوف في طابور اللحم، الذي

لا يزال طويلاً، بالنسبة لي. في الحقيقة، أنت تستمتع لمرّة واحدة باللحم، عليكَ أن تأكله فوراً. يبدو لي أن هؤلاء الناس كلهم يُحلّق أمام أعينهم حُلم أن يأخذوا الأفضل لمرّة واحدة وأخيرة، الوجبة الأخيرة.

الساعة الثانية من بعد الظهر. رأيتُ للتوّ شعاعاً من أشعّة الشمس. دون تفكير، ذهبتُ إلى الشرفة؛ لأستمتع في الجلوس على الكرسي الهزّاز لبعض الوقت، إلى أن احتدم حولي تشكيل من قاذفات القنابل، واحدة تلو الأخرى، لقد نسيت أن الحرب لا تزال مشتعلة، بالفعل. شعرتُ برأسي فارغاً، بشكل غريب. الآن في هذه اللحظة، وأنا أجلس، وأكتب هذا، حدثت ضربة في مكان قريب منّي، قفزتُ فزعة، وقع لوح زجاجي، وتحطّم إلى أجزاء صغيرة. شعرتُ بالجوع مرّة أخرى، بينما معدتي ممتلئة في الحقيقة. أردتُ أن يكون لديّ أيّ شيء؛ لأمضغه. تساءلتُ، كيف يمكن أن يعيش طفل رضيع محروم من حليب الأم. البارحة عندما كنا نتحدّث عن وفيات الأطفال في الطابور، أوصت سيدة عجوز أن تُجرّب الأم المضغ الجيد لخبز منقوع باللعاب.

طفل المدينة الضخم ما هو إلا دودة مسكينة عندما تتعطّل الآلية المصنّعة لإمداده بالحليب. حتّى لو كان لدى الأم نفسها نصف ما يكفي من الطعام، سوف ينشف حليبها فجأة عندما ترى ما ينتظرنا. من حسن الحظّ أن عمر أصغر الأطفال الرضّع عندنا في البناية ثمانية عشر شهراً. البارحة رأيتُ شخصاً أعطى للأم بِضع بسكوتات، بهدوء لطفلها. لكن هذا كان - أيضاً - المرّة الوحيدة في اليومَيْن الأخيرَيْن، أن يعطي شخص إلى آخر ما يسدّ به رمقه. القاعدة هي، أن الجميع يُخزِّن، ويدفن ما يملكه، ولا يفكر برمي أيّ فتاتة منه.

الساعة التاسعة مساءً. عدتُ إلى القبو. في المساء، جاءت سيدة، لا أعرفها، وطلبت منّي ومن الأرملة المساعدة في المستشفى.

يُدخّن على الأفق ثمّة توهّج أحمر. الشرق يحترق. قال رجل إن الروس في براونوار شتراسه. في براوناو، بالضبط؛ حيث رأى أدولف النور! ذكّرني هذا

بالنكتة التي سمعتُها البارحة في القبو: «آخ، كم كنا سنكون محظوظين، لو كان قد أُجهض».

في المستشفى، تركونا في غرفة زرقاء من الدخان. فوضى عنيفة من الرجال. شجار وصراخ: «لدينا جريح برصاصة، قضى وقتاً طويلاً في الخارج داخل السيارة!». «اخرج من هنا! ألا ترى بأننا لا نملك سريراً فارغاً؟!» سائق سيارة الإسعاف كان غاضباً: «لقد أرسلوني إلى هنا!». «والآن اخرج!، وإلا» هدّد الرقيب بقبضته. السائق تصبّب عَرَقاً، بينما هو يمشي أمامه، ويشتمه.

عبر الممرّات، هناك رجال يعرجون، إصاباتهم خفيفة، أحدهم كان حافياً، يده التي تنزف، ربطها بجورب. وآخر كان حافياً أيضاً، ترك خلفه آثار دماء، قدماه تُصدران صوت شفط عندما يرفعهما. وجوه شمعية تحت ضمادات الرأس مع بقع حمراء، تتزايد بسرعة. دخلنا عدداً من القاعات. رائحة الرجال الخانقة في كل مكان: هواء فاسد، أسرّة مخيّمات، عصبية.

«ماذا تفعلون هنا؟!» قال لنا شخص ما. السيدة التي جاءت بنا، ردّت بخجل، أن هناك شخصاً، جاء لها، وقال إنهم بحاجة إلى نساء للمساعدة في المستشفى.

«غير صحيح، ليس لدينا أي شيء؛ لتفعليه. اذهبي إلى بيتكِ».

غريب، هذه اللهجة المُنفّرة المتخلّفة التي ترفض مساعدة الإناث. كما لو أننا نريد الذهاب إلى الخنادق، أو بطريقة أخرى، نريد أن نلعب لعبة الجنود. أيضاً في هذا الصدد، لابد أن أفقد أفكاري القديمة. في الحروب السابقة، كانت المرأة تقوم بدور ملاك الرحمة. تُجهّز الضمادات. يد باردة على جبين الرجل الساخن، وبعيدة - دائماً - عن مجال إطلاق النار. الآن ليس لدينا مستشفيات خلف الجبهة. الجبهة في كل مكان. وفي الواقع، تحاول هذه المستشفى أن تظلّ مثل جزيرة وسط هدير الحرب. رُسم في السطح صلبان بيضاء ضخمة، وعلى العشب الأخضر أمام المنزل، مُدّت شراشف

بيضاء، على شكل صليب. ألغام الهواء محايدة، وفي سجّاد المتفجّرات لا يوجد ثقوب رحمة. يعرفون هذا جيداً في المستشفى أيضاً، وإلا لمَ يملؤون قبوهم - تماماً - بهذه الطريقة؟! نرى وجوه رجال في كل مكان، من خلال قضبان نافذة الطابق السفلي.

في القبو من جديد، والساعة التاسعة مساءً. منفعل بشكل محموم شعب القبو اليوم، بهجة عصبية. السيدة من هامبورك قالت إنها أُتيحت لها فرصة إجراء مكالمة هاتفية اليوم، واتصلت - بالفعل - بأصدقائها في مولرشتراسه في شمال برلين. «لقد أصبحنا روسيين بالفعل!» صاح صديقها في الهاتف. «الدبابات تسير هنا الآن. الإيفان يضحكون. غصّت الأرصفة بهم، يضحكون، ويلوّحون، ويراقبون أطفالهم باهتمام...».

هذا ممكن جداً. هناك منطقة للشيوعيين السابقين. وفوراً انفجر نقاش شرس حول هذا الخبر. ربّما قال بعضهم، إن كل ما تفعله الدعايات هو خداعنا. ربّما «هم» ليسوا هكذا جميعاً ... لكنْ: في تلك اللحظة، جاءت الفتاة الهاربة من بروسيا الشرقية بيننا، لم تقل شيئاً على الإطلاق، صرخت ببعض جمل قصيرة، بلهجتها، لم تجد الكلمات المناسبة، تضرب بذراعَيْها حولها، ثمّ ثارت: «انتظروا، عليكم أن تروا ذلك، بأعينكم!» ثمّ صمتتْ مرّة أخرى. والقبو - أيضاً - صمت من جديد.

زوجة صانع الخمور لديها - أيضاً - قصّة جديدة: ريبنتروب(*) وفون بابن(**)

---

*) ريبنتروب (Joachim von Ribbentrop): يواخيم فون ريبنتروب (ولد ١٨٩٢ في فيزل - توفي ١٩٤٦ في نورنبارغ) - من أبرز قيادات ألمانيا النازية، وزير الخارجية من ٤ فبراير ١٩٣٨ إلى ٣٠ أبريل ١٩٤٥، كما شغل منصب سفير ألمانيا لدى بريطانيا من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٨. أُدين بجرائم ضدّ الإنسانية في محكمة، سوف يغادران نورنبيرغ، وأُعدم. عُرف عنه دوره في وضع معاهدة عدم الاعتداء الألمانية السوفياتية قبل الحرب العالمية الثانية.

**) فون بابن (Franz von Papen): فرانز فون بابن سياسي ألماني (١٨٧٩- ١٩٦٩). تولى منصب المستشار في جمهورية فايمار من ١ يونيو إلى ١٧ نوفمبر ١٩٣٢. اشتُهر بتحالفه مع أدولف هتلر زعيم الحزب النازي، وتشكيله ائتلافاً حكومياً معه، ممّا ساعد هتلر الوصول إلى السلطة. تمّت محاكمته في محكمة نورنبيرغ بعد الحرب العالمية الثانية، وحصل على البراءة.

إلى واشنطن؛ ليتحدّثا مع الأمريكيين شخصياً حول هذه المسألة. لم تحصل على ردّ من أي أحد في القبو.

القبو مظلم. المصباح النفطي يشتعل. حلقات الفوسفور التي رُسمت على مستوى العين على العوارض الخشبية جميعها، حتّى لا تجد صعوبة في أثناء المشي في الظلام، تنشر بريقاً أخضر. زاد عددنا. الزوجان، بائعا الكُتُب حملا معهما كنارَيْهما إلى الأسفل. القفص عُلّق بإحدى العوارض، وغُطّي بمنشفة في الزاوية.

إطلاق نار في الخارج، وهدوء في الداخل. الجميع - هنا - نصف نائم، أو نائم.

الأربعاء ٢٥ أبريل، بعد الظهر.

ملخّص: في الساعة الواحدة ليلاً، ذهبتُ إلى الطابق الأول، وألقيتُ بنفسي على أريكة الأرملة. فجأة حدث انفجار عنيف، هدير المدافع المضادّة للطائرات. أنا أراقب - بين النوم واليقظة - أن الجميع قد تركني ببرود. النافذة الزجاجية مفتوحة على مصراعَيْها، الريح حملت معها رائحة احتراق إلى الداخل. تحت الأغطية لديّ شعور ساذج بالأمان، كما لو أن الشراشف والأغطية من حديد. وأن البياضات خطيرة جداً. دكتور هـ. قال لي ذات مرّة، كيف يتعامل مع امرأة منكوبة في السرير، مَن توغّلت قذى النيران عميقاً في جروحها. لكنْ؛ هناك تأتي اللحظة التي يسود فيها التعب القاتل على الخوف. هكذا يجب أن ينجح جنود الجبهة - أيضاً - في النوم في القذارة.

استيقظتُ في السابعة. بدأ اليوم مع اهتزاز الجدران. الآن اشتد القصف علينا. لم يعد هناك ماء، ولا غاز. انتظرتُ لحظة هدوء، وصعدتُ أربعة سلالم راكضة إلى العلّيّة. مثل حيوان مُحاط مخبوءه بالأعداء، هكذا تسلّلتُ إلى غرفتي، وبقيتُ هناك، وأنا على استعداد دائم لانسحاب متعجّل. التقطتُ بعض الأغطية والشراشف ومستلزمات الحمّام، ونزلتُ بسرعة إلى الأرملة. يمكنني التفاهم معها بسهولة. نحن نتعرّف على بعضنا بسرعة في مثل هذه الأيام.

مع دلو في كل يدّ، مشيتُ خلال الساحات المُزهرة إلى المضخّة. الشمس كانت دافئة. صفّ طويل أمام المضخّة، كل شخص يدير المضخّة

لنفسه، ذراع التدوير أصبحت ثقيلة، وتصرّ من الصدأ. ربع ساعة من المشي نحو المنزل مع دلوَيْن ممتلئَيْن بالماء. «Wir sind alle hübsch lastbare Eselinnen»(*) (لـنيتشه كما أظن) عند بوله لا يزال الناس يتجمهرون من أجل الزبدة المجانية. عند ماير صفّ طويل داكن اللون، لا نهاية له، من الرجال فقط، هناك يبيعون نبيذ الجنّ، الأنواع كلها، نصف لتر لكل شخص.

ذهبتُ - مباشرة - لجلب الماء مرّة أخرى. في طريق العودة، سقطت القنابل فجأة. من الحديقة أمام السينما، كانت ترتفع أعمدة من الدخان والغبار. رجلان انبطحا أمامي في مجرى الماء. النساء ركضنَ إلى أول وأفضل باب، نزلنَ الدرج. لحقتُ بهنّ إلى الأسفل، إلى قبو غريب تماماً؛ حيث لم يكن هناك أيّ أثر واضح على الإضاءة. الدلوان الممتلئان بالماء، جررتُهما معي، وإلا سيتعرّضان للسرقة. في الأسفل، في الظلام الدامس، هناك مجموعة من الناس، كانوا خائفين، مرعوبين. وهناك مَن يئنّ: «ربّي، ربّي...». ثمّ عاد الهدوء من جديد.

هل كانت هذه صلاة؟ قبل عامَيْن - كما أذكر - رأيتُ نفسي في أسوأ الأقبية، قبر حقيقي تحت منزل ريفي. في مكان، يسكنه ثلاث آلاف نسمة، غير مهم، لكنه يقع في طريق إلى حوض الرور. هناك شموع مشتعلة في الظلام والنساء (نادراً ما كان يوجد رجال) يُصلّينَ صلاة الإكليل، لا أزال أسمع صلواتهنّ، رتيبة ومزعجة: «... الذي جُلد من أجلنا ...» ومن جديد الصلاة الربّية، والصلاة المريمية، الرتيبة، الخافتة، تُلطّف وتشفي مثل «Om mani padme hum»(**) المكتوبة على عجلة الصلاة التبتية. في أثناء الصلاة، كان المحرّك يُصدر طنيناً أحياناً، وسقطت قنبلة - ذات مرّة - تسبّبت في ارتعاش لهب الشموع. وبعد ذلك، من جديد: «... الذي حمل الصليب

---

*) كلنا حمير جميلة، تحمل أعباءً ثقيلة.

**) الكرم، الأخلاق، الصبر، الاجتهاد، التخلّي، الحكمة.

الثقيل من أجلنا ...» عندها اكتشفتُ، كيف تستطيع الصلوات ومسحة الزيت أن تُخلّص الأرواح الخائفة، وتجعلها هادئة. منذ ذلك اليوم، لم أذهب إلى قبو الصلاة مرّة أخرى على الإطلاق. هنا في برلين، على الأقل، في هذه الطوابق الأربعة من بنايات المدينة المأهولة بسكّان مختلطين، سوف لن تجد مجتمعاً، تصلّي معه الصلاة الربيّة. بالتأكيد، هنا وهناك تسمع همس صلوات، ربّما أكثر ممّا كنتُ تتوقّع. وهناك مَن يساند. «ربّي، ربّي». المرأة المساندة بالكاد تعرف ماذا تقول، لكنها عادت، وردّدت العبارات الفارغة مرة أخرى، بلا شعور، وبشكل تلقائي.

لم أستطع - أبداً - تقدير المثل «الابتلاء يُعلّم الصلاة». يبدو ساخراً جداً، يشبه هذا أن نقول: «الابتلاء يُعلّم التسول». في فم شخص لن يفكر في الصلاة عندما تسير الأمور، بشكل جيد، تتحوّل الصلاة - بالنتيجة، بسبب الخوف والضيق - إلى تسوّل محزن، ومخجل. وفكرة أن هذا الأنين المتوسّل ينتزع الروح الرافضة من الابتلاء الشديد عن طريق وسيط أو آخر مثل البخور، وقربان مُستحبّ، من الممكن أن يُتقبَّل، هي فكرة مروّعة. مَن فكر بجمع هذا النحيب، بجزع في إذلال تام لكينونة ربّه المتوقّع؟! «السعادة تُعلّم الشكر» مقولة غير موجودة.

مثل صلاة الشكر هذه يجب أن تصعد بحُرّيّة، ويفوح عطرها، كما تفوح رائحة البخور. اللغة الألمانية أصابت الهدف عندما جعلت كلمات مثل « beten » (صلّى)و « betteln » (تسوّل) تبدو متشابهة، مثلما يتشابه الأخوة. في بعض العصور أيضاً، كان ينتمي المتسوّل إلى باب الكنيسة كمقبض الباب، أن يعيش كملك، بشكل شرعي تماماً، وبالقدر نفسه - تماماً - من نعمة الله، رغم أن ما يملكه الملك على النقيض تماماً مع ما يملكه الرجل الذي يتوسّل ويصلّي لله، شخص نقيض، رزقه الله مهمة، يمكنه ممّارستها. ما لم أبحث له عن إجابة هو هل إن هذا التأوّه في القبو المظلم كان صلاة. شيء واحد مؤكّد: هو أن السعادة والنعمة تحت عذابات محنتنا

وخوفنا، لا يعوقهما شيء، ويمكنك أن تصلّي بلا خجل. أنا لا أستطيع - ليس بعد، ولا أزال ممتنعة.

عندما عدتُ من جلب الماء، أرسلتْني الأرملة إلى القصّاب؛ لأقف في الصف. الجميع كان يقف محتجّاً. يبدو أن تسليم اللحوم والسجق قد انقطع مجدداً. هذا يضايق النساء حالياً أكثر من الحرب برمّتها. هذه هي قوّتنا. نحن النساء تدور في رؤوسنا - دائماً - المشاكل الآنية. نشعر بالسعادة - دائماً - إذا استطعنا أن نهرب من القلق حول المستقبل إلى المشاكل اليومية. في لحظة، وقف السجق في مقدمة هذه المشاكل، وأعاق البصر عن رؤية الأشياء الكبيرة.

عدتُ إلى القبو في تمام الساعة السادسة عصراً. لم أتمكّن من البقاء هادئة فوق لفترة أطول، خِفتُ عندما تعرّض مكان قريب جداً لضربة مباشرة، وسقطتْ قطع كبيرة من الجير على بطانيّتي. أجلس في الأسفل متكاسلة حتّى جاءت هَنّي من الخبّاز، وقالت إن الضربة قد أصابت الصيدلية القريبة من السينما. صاحب الصيدلية مات في الحال. بسبب الشظايا، الضغط الجوّيّ، أو سكتة قلبية، لم يحدّد سبب وفاته بعد. قالت هَنّي، إن الرجل لم ينزف. واحدة من الأخوات - البودنغ الأسود - الثلاث، السيدات اللواتي يرتدين السواد وقفتْ، وسألتْ باحترام وشفاه متأهّبة: «أوه، المعذرة، كيف كُسر؟» (kaputt) بهذه الطريقة، نتحدّث في الوقت الحاضر، وهكذا فَسدنا لغوياً. قرف الكلمة يزلّ من لساننا بسهولة. تقولها برضا، كما لو أنك تُخرج معها أوساخكَ الداخلية. من المتوقّع أننا قد وصلنا إلى خزي وشيك بالفعل في مفرداتنا.

الخميس ٢٦ أبريل ١٩٤٥، الساعة ١١ من بعد الظهر.

أكتب بأصابع مرتعشة. لا نزال نتنفّس غبار الجير. من نصف ساعة، أُصيب الطابق الرابع، بضربة مباشرة. خرجتُ من غرفتي في الوقت المناسب، ونزلتُ الدرج بسرعة، وأنا ألهث. تحوّلتِ الغرفة إلى حظيرة خنازير من الجير المتكسّر، الغبار المتطاير والشظايا. وداعاً، بيتي الثاني، الذي سكنتُه فترة قصيرة جداً، مؤقّتاً أنتَ غير صالح للسَّكَن.

أخذتُ معي من كل شيء، قدر، مناشف، عِصابة من الشاش، كل ما يمكن أن أحتاجه. حلقي كان جافّاً، ولديّ حرقة في المريء، بسبب غبار الجير. هنا في الأسفل، ليس هناك أي شيء للشرب. وهذا في حين أن هناك آلاف الألتار من الماء فوق، تتوزّع على المشعّات. لحظة، أريد أن أُلخّص أولاً، لم أكتب منذ فترة طويلة، وحدث الكثير. تبدأ الأحداث، من البارحة مساءً في الساعة السابعة، عندما جاء شخص إلى القبو، وأعلن، أن الدكان الذي في الزاوية قد وَزّع مسحوق البودنغ. ذهبتُ معهم، ووقفتُ في الصف، وإذا بالقنابل الروسية تُباغتنا. في البداية، ظلّ الصف كما هو، التوى قليلاً - فقط - بين الأنقاض، كما لو وجد غطاء له بين الحطام. دخان ولهب في اتجاه برلينر شتراسه. سلسلة جديدة من القنابل، كانت قريبة جداً. تركتُ فكرة مسحوق البودنغ، وهُرعت إلى الشارع عائدة إلى القبو. رجل صرخ عليّ: «إلى الجدار!» كان هناك حطام متكسّر، يتطاير. أخيراً وصلتُ القبو، لكنْ: بدون مسحوق البودنغ. زوجة البوّاب كانت تصرخ؛ لأن ابنتها لا تزال هناك، يظهر أنها لم تجرؤ على الخروج إلى الشارع في أثناء القصف.

عادت بعد نصف ساعة، بدون مسحوق البودنغ. قالت إنها محظوظة، بشكل، لا يُصدَّق. كان بإمكانها الذهاب إلى القبو من الدكان قبل توجيه الضربة إلى المنزل. أحد الأشخاص الذين لن يعودوا إلى القبو، صبيّ يافع، أُصيب بشظية في جمجمته. عندما غادرتْ خَطَتْ فوق جسده. تحدّثتْ بالتفصيل، كيف كان يتدفّق السائل الأبيض والأحمر من صدغه. غداً سيتواصل توزيع مسحوق البودنغ. لابد أن هناك ما يكفي في الدكان.

في الساعة التاسعة، نامت بلدية القبو. الأرملة أعدّت لي - أيضاً - ما يشبه السرير، في الجزء الأمامي من القبو؛ لأن بين العوارض الخشبية في الداخل ليس هناك مكان بعد الآن، لكنه ناعم ودافئ. نمتُ، واستيقظتُ، بسبب القنابل. شعرتُ بشيء، يلعق يدي المتدلّية من السرير. كان هذا فوكسل، كلب صاحب المنزل المختفي. عزيزي الكلب فوكسل، لا تخفْ. مجرّد أننا في الجزء الأمامي من القبو. العوارض مفقودة هنا، لكن الهواء نقي، ولن يضايقنا الشخير والأنين.

في الصباح الباكر، جلبتُ الماء من المضخّة. في الخارج، قرأتُ شيئاً للمرّة الأولى، كان مطبوعاً وجديداً أيضاً. صحيفة الـ «بانسيربير»(*). شخص ما علّقها عند الخبّاز بجوار النافذة.

موجود فيها أخبار السلطة، وعمرها يومان فقط. المضمون: أ. العدوّ يتقدّم. ب. تَقدُم التعزيزات العسكرية الألمانية. بالإضافة إلى ذلك، فيها أن أدولف وگبلز في برلين، وسيبقيان هناك. وعند محطّة شونبيرك، بهذا الأسلوب، يُبلَغ تقرير واثق، يُعلّق الجندي هوّنه الهارب من الخدمة العسكرية.

الفطور في القبو. الجميع يحاول قدر استطاعته الحفاظ على نوع من الحياة العائلية. على الحقائب، الصناديق، والكراسي. أعدُّ الفطور المنزلي

---

*) بانسربير (Der Panzerbär): صحيفة ألمانية تابلويد (صغيرة) طُبعت في الأيام الأخيرة من الحرب العالمية الثانية في برلين. نُشرت من قِبَل دار نشر Ullstein-Verlag، وظهرت لسبع مرّات فقط، من ٢٣ إلى ٢٩ أبريل ١٩٤٥، وكان شعارها الدّب.

بمساعدة المناديل الورقية ومفارش المائدة. أباريق الشاي وبدائل القهوة كانت تُسخَّن على الحطب، أو شعلات الكحول، ثمّ تُوضَع تحت أغطية أباريق الشاي؛ لتظلّ ساخنة. يجد المرء أطباق الزبدة، أوعية السّكّر، جرار المربىّ، ملاعق فضية. الأرملة لديها قهوة حقيقية، استحضرتْها من مكان ما، صنعتْها في مطبخها على نار من خشب صندوق الشمبانيا، وبهذا يمكنكَ تجديد الأشياء. حولنا كان هناك مشاحنة وشجار. الناس يستفزّون أعصاب بعضهم البعض.

قبل العاشرة بوقت قصير، سقطتْ قنبلة على السطح. ضربة قوية وصراخ. بيضاء مثل ورقة، دخلتْ زوجة البوّاب، وهي تتعثّر، وألصقت نفسها بإحدى العوارض. ستينشن تبعتْها، وهي تستند على والدتها. بدتْ رمادية من الجير المعلّق بشعرها وحول وجهها الفتي، والدم يتسرّب منه. كانت منكوبة عندما دخلت المكان. حتّى الكناري في قفصه شارك في الفوضى السائدة، يُصفّر بصوت حادّ، ويتحرّك بشكل متعرّج ذهاباً وإياباً.

بعد أن مرّت ربع ساعة، لاحظ أحد ما أن مشعّات التدفئة تفرغ. ركضنا إلى أعلى. يجب أن أقول، ليس جميعنا. زوجة ساعي البريد - على سبيل المثال - لوّحت بشهادة الطبيب، وصاحت أن زوجها لديه مرض القلب، ولا يمكنه الذهاب معنا. شميت - أيضاً - ضغط يدَيْه العجوزتَيْن المبقعتَيْن على صدره. تردّد آخرون أيضاً، إلى أن هدرت فرولاين بين - بدورها - من موقعها القيادي: «حمقى، لا تقفوا هنا، وتتذمّروا، في الأعلى، تطفو أغراضكم كلها!» ثمّ انطلقت بعيداً دون أن تولي أيّ اهتمام لمَن تبعها. أنا تبعتُها مع خمسة عشر آخرين.

فوق في الطابق الثالث، كان هناك بحر هائج. كنا نعمل بجهد كبير كالأحصنة، الماء يتدفّق من الأعلى، خضنا في الماء إلى ركبنا، انتزعنا السجّاد من الأرضية، نجرف المياه بالمجارف، ونفرغها فوراً عبر النافذة في الشارع المشمس المهجور تماماً. طوال هذا الوقت كانت القنابل تسقط، وبعضها

كان قريباً. في مرّة واحدة، سقط الكثير من الزجاج والجير المتكسّر في الماء، ولم يُصَبْ أحد.

عدنا مبلّلين، لكنْ؛ متحمّسين إلى القبو. جلست القرفصاء، وقدَمَي في جورَبَيّ المبلَّلَيْن، بدأتُ أفكر: أكان تصرّفنا حكيماً؟ أم غير حكيم؟ لا أعرف. على أي حال، تصرّفنا ببسالة. الزعيمة بين اندفعت إلى الأمام، تبعتها قوّات الاقتحام من المتطوّعين، ودافعت عن البناء المهدّد تحت نيران العدوّ وخطر قاتل. (الحرص على سجّاد الأرضية غير وارد على الإطلاق، على الرغم من أن عدداً قليلاً جداً من الناس لهم علاقة مباشرة مع المنازل التي غمرتْها المياه). تنفيذنا للأمر كان دون تفكير، ولم ندّخر جهدنا. الشيء الوحيد هو أن عملنا لم يُسجّل كنشيد، أو ملحمة، ولم يتمّ إعداد الصلبان الحديدية لأجله. شيء واحد أعرفه، على أي حال: أن الإنسان في خضم المعركة، في حميم الصراع، لا يفكر بأي شيء. هذا الإنسان لا يعرف الخوف؛ لأنه منشغل ومتفاعل - تماماً - مع العمل. هل كنا شجعاناً؟! يمكن أن تقول ذلك. هل إن فرولاين بين، القيادية، بطلة؟ كزعيمة سوف تنال - بالتأكيد - الصليب الحديدي من الدرجة الأولى. لهذا سوف أذهب للتفكير بطريقة مختلفة حول البطولة والشجاعة. لكن الأمر ليس سيئاً لهذا الحدّ. من المثير أن تُنجَز الخطوة الأولى. هالة نورانية تُحيط المعركة وأفعال الرجال الجريئة في المعركة، من الواضح أن الرجال ينالون الكثير من الثناء على ذلك. والنساء لديهنّ ذلك الحافز مع استجابة إعجاب محبّب. في الواقع، نحن غافلون جداً عن هؤلاء الرجال الذين وضعوا نساءنا - الآن - في مثل هذه المواقف القتالية، ومنحونا - من غير قصد، وبلا جهد - فرصة تحقيق مآثر بطولية. لابد لي - في وقت لاحق، إذا تمكّنتُ من ذلك في يوم ما - أن أتحدّث مع الرجال الذين كانوا في الجبهة عن هذا الموضوع.

من الغريب أيضاً، أني - في أثناء الصراع مع المياه - لم أفكر بغرفتي - أبداً - إلا عندما نبّهني الآخرون إلى فكرة تفاقم الأمر، بسبب الضربة المباشرة. عندها

ركضتُ - مباشرة - إلى فوق، ووجدتُ المكان القذر الذي وصفتُه سابقاً. لهذا ذهبتُ للسَّكَن مع الأرملة من الآن فصاعداً. هي فضّلتْ ذلك أيضاً. تخاف وحدها في المنزل. مستأجرها من الباطن(*) التحق بالفولكسشتورم. مَن يعرف إن كان لا يزال على قيد الحياة؟! لكن مثل هذه الأسئلة نفكّر بها فقط، ولا نتحدّث عنها.

بعد أربع ساعات، الساعة الثالثة، في القبو من جديد. ألهث من جديد، أكتب بأصابع مرتعشة من جديد، ولسبب ما.

بعد الظهر، وعندما عمّ الهدوء في الخارج، وقفتُ في الباب، وأدرتُ ظهري الرطب للشمس. الخبّاز وقف إلى جانبي. فجأة ركض رجل أمامنا، جاء من ثكنة الشرطة السابقة؛ حيث عسكر فيها اللوفتڤافه(**) حتّى وقت قريب، وكان يحمل تحت ذراعه قطعة لحم بقري، تقطّر دماً. صاح - وهو يركض دون أن يلاحظ من حوله - : «أسرعوا، يوزّعون كل شيء هناك!».

نظرنا إلى بعضنا، وركضنا بسرعة، كما كنا، بدون حقائب ظهر، بدون أي شيء. هَنّي التي تسكن في بيت الخبّاز، والتي لا يفوتُها أي شيء، ركضتْ خلفنا. الشمس كانت حارقة، وهناك إطلاق نار من جديد. نُسرع، ونتفادى بعضنا على مقربة من المنازل. في الزاوية، كان يجلس الجنود على الرصيف، شعرهم شائب، ربّما هم من الفولكسشتورم، لا ينظرون حولهم، يجلسون ورؤوسهم بين رُكبهم. أمام ثكنة الشرطة، كان هناك الكثير من الناس مع سلال، أكياس وحقائب. ركضتُ إلى أول وأفضل مدخل، كان مظلماً، بارداً وفارغاً تماماً. من الواضح أني قد أخطأتُ. عدتُ مسرعة خلف الآخرين إلى أسفل، إلى قبو الثكنة. سمعتُ قبلي طَرقْ، لهاث وصراخ: «إلى هنا، هنا!» في الخارج، التقطتُ صندوقاً صغيراً، ها أنا أسحبه خلفي الآن.

---

*) المستأجر الذي يستأجر مكاناً، أو غرفة، من مستأجر آخر.

**) لوفتڤافه (Luftwaffe): سلاح الجوّ الألماني (١٩٣٥-١٩٤٥).

أمشي في الظلام، وأرتطم بالناس الذين ركلوا ساقيّ. فجأة وجدتُ نفسي في قبو مظلم تماماً، سمعتُ أناساً يلهثون، يصرخون من الألم، يتصارعون في الظلام. لا، هنا لا يُوزّع أي شيء، هنا يُنهَب كل شيء.

على وميض مصباح يدوي، رأيتُ رفوفاً، عليها علب وزجاجات، على الرفوف السفلية فقط، الألواح الخشبية العلوية قد تمّ تفريغها تماماً. انحنيتُ، أسقطتُ نفسي على الأرض، وانتزعتُ زجاجات من الخانات السفلية، خمس، ستّ زجاجات، وخبّأتُها في صندوقي. في الظلام، كنتُ على وشك أخذ علبة أغذية محفوظة، لكن شخصاً ما وقف على أصابعي، وصرخ بصوت رجولي: «هذه أغراضي!».

هربتُ نحو الباب مع العلبة، خرجتُ إلى القبو المجاور. على ضوء ضعيف يمرّ عبر صدع في البناء، رأيتُ خبزاً، صفوف كاملة، أيضاً في الخانة السفلية فقط، جلستُ على ركبتَيّ، وانتزعتُ كل ما يمكنني الإمساك به. شممتُ أني راكعة في النبيذ، يدي تدخل في الزجاج. أخذتُ كل ما يمكنني أخذه، وحشرتُه في الصندوق. أجرّ الحمولة التي لا أستطيع حملها خلفي إلى باب المدخل، إلى المخرج الذي كان مثل مسرح مضيء متألّق، يومض في نهاية كهف مظلم.

في الخارج، صادفتُ الخبّاز. هو - أيضاً - حصل على بعض الخبز، ووضعه في صندوقي. ودخل الثكنة مرّة أخرى؛ ليجلب المزيد. بقيتُ مربوطة بصندوقي، وأنتظر. عاد الخبّاز مع معلّبات، أطباق خزفية، مناشف خشنة، ومجموعة متشابكة من خيوط الصوف، لونها أزرق باهت.

أنتوين كان هناك بالصدفة، عامل المخبز البلجيكي الصغير يجرّ خلفه كتفاً كاملاً من لحم البقر. وجاءت هَنّي مع شراب كرتوزى في زجاجات ضخمة. قالت بغضب: «لديهم كل شيء هناك، قهوة، شوكولاتة، شراب الجِنْ. هؤلاء الأولاد أخذوا من كل شيء!».

واختفت في البناية من جديد. أنا كنتُ أحرس صندوقي. جاءني رجل، صنع من سترته كيساً، وضع فيه أنواعاً مختلفة من الخمور. كان ينظر - بشغف - إلى الخبز في صندوقي: «هل يمكنني أخذ واحدة منها؟» أنا: «نعم، مقابل زجاجة من شراب الجِنْ». بدّلتُ بخبز أسمر زجاجة شتاينهيگر(*) وكلانا كان سعيداً، بالمقايضة.

مشاهد همجية في كل مكان تحت ضوء الشمس الساطع، عكّرها انفجار القنابل. انفجرت قنبلتان، بالقرب منا. الرجال يكسرون أعناق الزجاجات، بضربها في الحائط، والشرب منها بشراهة. أنتوين وأنا، أمسك كل واحد منا الصندوق من جهة، ومشينا في طريقنا إلى المنزل.

الصندوق كان ممتلئاً وثقيلاً، من الصعب حمله، لذا؛ كان علينا وضعه على الأرض بين الحين والآخر. شعرتُ بالعطش، وفعلتُ ما رأيتُه للتوّ: كسرتُ عنق زجاجة نبيذ أحمر، بضربها في حافة الرصيف. (سرقت بورغونيه(**) خالص، علاماته فرنسية). شربتُ من الزجاجة المكسورة، وجرحتُ شفتي السفلى، لم ألاحظ شيئاً حتّى قال أنتوين، ومسح بمنديله الدم؛ حيث كان يقف متيقّظاً، وساقاه على جانبَي الصندوق. الدم كان قد تسلّل إلى قميصي.

جاء خلفنا الخبّاز لاهثاً. يحمل لحم ساق بقرة مزرّق، وملطّخ بسماد حيواني، يضغطه على صدره مثل طفل رضيع. أشعّة الشمس الحارقة، وأنا أتصبّب عَرَقاً. ضربتان مباشرتان قريبتان. بعيداً عن - هنا - أسمع صوت طقطقة أسلحة الطيران والباف باف لنيران المدفعية المضادّة للطائرات.

تقاسمنا غنائمنا أمام المنزل. كرة الصوف المضحكة اشتبكت خيوطها مع كل شيء. غنيمتي كانت: خمس زجاجات بورغونيه، ثلاث زجاجات شوربة

---

*) شتاينهيگر (Steinhäger): نوع من شراب الجِنْ الألماني، شراب روحي بنكهة التوت العرعر.

**) بورغونيه (Bourgogne): نبيذ يُصنع في بورغونيه شرق فرنسا.

خضار جاهزة، زجاجة شتاينهيگر، أربع قطع من خبز الجنود، ستّ علب من طحين البازلاء التي منحها لي الخبّاز، بكل شهامة من خزينه الخاص، وعلبة طعام معلّب دون ملصق، ولا أعرف محتوياته. سحبتُ كل شيء إلى الطابق الأول إلى الأرملة.

وأنا أشعر بالحَرّ، وتفوح منّي رائحة العَرَق، تقاسمتُ مغامراتي مع دزّينة من الناس، على أفضل وجه، وابتلعتُ بسرعة - وأنا أقف مع صحني إلى جانب موقد المطبخ - عدداً من الملاعق المليئة بالبطاطا المهروسة التي طبختْها الأرملة على طبّاخ مشترك لعوائل مختلفة. من جديد، انفجرت سلسلة من القنابل في الخارج. الآخرون كانوا يعاينون غنيمتي، بعيون كبيرة، لكنهم لا يجرؤون على الذهاب - مرّة أخرى - إلى ثكنة الشرطة للمزيد من النهب. الثكنة قد فرغت - بالفعل - منذ وقت طويل.

بعد عدّة ساعات، في الساعة السادسة، عدتُ إلى القبو من جديد. في غضون ذلك، كان لديّ فرصة للنوم، لبعض الوقت. كنتُ ثملة قليلاً بعد أن شربنا أنا والأرملة من زجاجة البورغونيه المكسورة حتّى فرغتْ. استيقظتُ مع شعور بالدوار، طعم مرّ في فمي، ولم أعرف - فوراً - أين كنتُ في هذا العالم السفلي المضيء بوميض مصابيح نفطية. حتّى رأيتُ الناس يركضون إلى الخارج، ويصرخون حول أكياس: «هيا، في الثكنات، حمّلوا البطاطا إلى الخارج!».

ذهبتُ إلى هناك مع الأرملة. أخذ العدوّ استراحة، كان الوضع هادئاً إلى حدّ ما. لهذا السبب الكثير من الناس - في فترة بعد الظهر من أيام أخرى - يهجرون الشارع. هناك سيدتان تقودان عربة أطفال، فيها برميل بالحجم الطبيعي، رائحتُه مثل رائحة الملفوف المخلّل. كبار وصغار يمشون مضطربين باتجاه الثكنات. أنا والأرملة متأهّبتان مع الدلاء المتاحة كلها، كل واحدة منا تحمل دلوَيْن. على الشارع مسار من البطاطا المسحوقة، وجزر متعفّن، عليك - فقط - اتّباع المسار؛ لتحصل على شيء. على الرصيف

عند مدخل الثكنة كومة دموية هائلة. ارتددتُ فزعة، لكن الأرملة ضحكت: «مربىّ!» وكانت مربىّ فعلاً، براميل من المربىّ دُحرجتْ إلى الخارج.

نتغلغل بين حشد من الناس في الممرّ، تعثّرنا، ونحن ننزل بضع درجات زلقة، ووصلنا إلى البطاطا الفاسدة ذات الرائحة الكريهة. على ضوء النوافذ السقفية الصغيرة، ننبش بأيدينا وأحذيتنا في الوحل، نلتقط منه ما يبدو صالحاً للأكل. الجزَر والكرنب السلقي الرملي وضعناهما جانباً، وملأنا الدلاء، بالبطاطا فقط. وجدنا كيساً مُلئ نصفه، لم نسأل لمَن هذا الكيس، لكننا سحبناه معنا، وصعدنا الدرج، منه إلى الشارع، وإلى المنزل.

صرير وقرقعة حولنا مرّة أخرى، لكنْ: لا أحد يزعج نفسه بها، حمّى النهب سيطرت على الجميع. سنعود فوراً، ونجرّ معنا - هذه المرّة - دلاءنا، وهي مليئة بالفحم الحجري إلى المنزل. مجاميع من الناس من حولنا يركضون، ويخطفون الأشياء، بسرعة وبقوّة.

الآن - أيضاً - بدأ نهب الدكاكين المهجورة. رجل، أو سيد، سوف تكون الكلمة المناسبة له، شعره كان أبيض، ويجرّ معه درجاً كاملاً، فيه صناديق من بودرة الصابون. على الدرج مكتوب «رزّ».

صعدنا الدرج إلى الطابق الأول. جلسنا منهكتَيْن على الأريكة في غرفة الجلوس. ذراعانا مشلولان، وساقانا ترتعشان. النوافذ، طالما كانت موجودة، تهتزّ بهدوء. من خلال نافذة مكسورة أخرى، تهب حرارة لطيفة إلى الداخل مختلطة برائحة حريق. أحياناً تسمع فوووو مع صدى طويل مُدوٍّ لصوت نيران المدفعية الثقيلة. وبعد ذلك بانغ! صوت انفجار قصير، يضغط على طبلة أذنكَ: نيران سلاح المدفعية الثقيلة. وتسمع - من بعيد أحياناً - كناك فووم كناك فوووم، يرافقه عويل، ونباح. لا أعرف ما هذا. أقسمتْ الأرملة أن هذا هو ما يُسمّى بالكاتيوشا الروسية. فيما عدا ذلك، لم يستخدم الروس سجّادة القنابل، حتّى الآن يمُرّ فوقنا - فقط - قاذفات قنابل، تُسقط القنابل هنا وهناك، وهي تحلّق بعيداً.

على كل حال، خرجنا أنا والأرملة مجدّداً، وهذه المرّة إلى الدكان في الزاوية، الوحيد الذي لا يزال مفتوحاً، لنرى إن كان هناك المزيد من بودرة البودنغ بعد انفجار تلك القنبلة البارحة. بالتأكيد كان لا يزال هناك زبائن وبيع. ثمّة أسعار مطبوعة على العلب، أظن ٣٨ فنيك(*). البائع الذي يملك المحل، ويسكن إلى جواره، كان يصرّ على أن يعطيه كل مشترٍ الفنيك المُستحَقّ، كان يسأل الجميع: مَنْ معه فكّة، ويمكنه استبدالها. وهذا كله يستمرّ تحت جحيم إطلاق النار! مثل هذا لا يحدث إلا معنا. اهتمامنا بالفكّة سوف نأخذه معنا إلى القبر.

وعلى سبيل التسلية، ذهبنا إلى القصّاب في الزاوية؛ لأني لم أجلب لحمي بعد. كانت -بالفعل- تحت نيران الاسلحة الخفيفة. كان هناك بيع أيضاً، الزبائن في الدكان لا يزيد عددهم على عشرة، وكان هناك لحم أكثر من المطلوب. ومن ثمّ؛ حصلنا على حصّة أكبر، لحم خنزير حقيقي ووُزن، بشكل عادل أيضاً.

عندما خرجنا من الدكان كانت تسير بمحاذاتنا شاحنة، تحمل مجموعة من القوّات الألمانية، شارات حمراء، إذنْ؛ هم من سلاح المدفعية. كانوا يسيرون باتجاه المدينة، من هنا إلى مركز المدينة. كانوا يجلسون صامتين، وينظرون أمامهم. امرأة صاحت خلفهم: «هل هربتُم منهم؟» لم تحصل على أي إجابة. نظرنا إلى بعضنا، ورفعنا أكتافنا. امرأة قالت: «هم - أيضاً - مجرّد تعساء مساكين».

ما أزال ألاحظ - في هذه الأيام - أن مشاعري، ومشاعر النساء كلها، تغيّرت نحو الرجال. هم يثيرون الشفقة الآن، يبدون لنا سيّئين، وضعفاء. الجنس الضعيف. خيبة أمل جماعية انتشرت بين النساء تحت السطح. المقولة المجيدة التي سيطر عليها الرجال «أنا أستطيع» زعزعها عالم النازية،

---

*) فنيك (Pfennig): عملة معدنية ألمانية قديمة، جزء من المارك الألماني، كانت تُستخدَم حتّى استبدال العملة المحلية باليورو ٢٠٠٢.

ومعها أسطورة «الرجل». في الحروب السابقة، كان الرجال يمكنهم التباهي بأنهم يستحقّون شرف القتل والموت من أجل الوطن. نحن النساء - الآن - لنا حصّة من ذلك. هذا كله غيّرنا، وجعلنا منفعلين. في نهاية هذه الحرب - أيضاً - كان إلى جانب الهزائم الكثيرة الأخرى هزيمة الرجال، كجنس بشري.

بعد ذلك، عشاء في جوّ، يخفي الكثير في القبو. حياة منزلية هادئة على متر مربّع لكل عائلة. هنا شاي مع خبز، هناك بطاطا مهروسة. ستينشن التقطت - بشكل صحيح - بسكّين وشوكة قطعة مخلّل. رأسها المجروح مربوط بدقّة. زوجة الكُتُبي سألت: «هل يمكنني أن أسكب لكِ؟» «من فضلكِ، سيدتي» همس شميت.

وُضعت منشفة حول الكناري. الهارب من الخدمة العسكرية دخل، وصرّح بأن مستطلعين روس شوهدوا بالقرب من السينما. زاويتنا تعرّضت - بالفعل - لعيار ناري صغير. لا يُسمَح لأيّ زي رسمي بالدخول إلى قبونا، أمر الجندي السابق، وإلا سقطنا تحت قانون الحرب، ومن ثمّ؛ سوف تقضي علينا قوانين دولة القانون.

من حين لآخر، نتحدّث عن الأخبار في صحيفة " بانسربير». سيكون هناك جيشان - بالفعل - في طريقهما لحماية برلين، جيش يقوده شورنر من الجنوب، وآخر من الشمال. تروينبريتزن، أورانينبورك وبيرناو سوف يتمّ استعادتها.

ونحن؟! لدينا مشاعر متناقضة، خائفون تقريباً. والآن بدأت لعبة جرّ الحبل الأبدية، ونحن نجلس في المنتصف. هل يجب علينا البقاء هنا في الأسفل لأشهر؟ لقد خسرنا المعركة إذنْ. إذا فشل الإيڤان، عندها سيأتي الأمريكيون من الجوّ. وليرحمنا الربّ مع سجّاد المتفجّرات هذا. عندها سوف نُدفَن في القبو.

فجأة خبر جديد من الشارع: الفولكسشتورم يتقهقر. الإيڤان يفرض إرادته

على الآخرين. المدفعية الألمانية اختارت من زاويتنا موقعاً لها، الرصاص يهدر خلال القبو. في غضون ذلك، جلستْ ستّ نساء في حلقة حول مائدة؛ حيث الأرملة وزوجة صانع الخمور وضعنَ ورق اللعب. يمكنهنّ عمل ذلك بإتقان: «في وقت قريب جداً، تنتظرك خيبة أمل لها علاقة بزوجكِ» (ما يزال في مصنعه مع ألفيرا ذات الشعر الأحمر).

أريد أن أنام فوراً، أتمنّى ذلك. حتّى نهاية هذا اليوم الحافل.

ملخّص: أنا بصحة جيدة، جسدياً ونفسياً، يبدو أن الخوف قد اختفى في الوقت الحالي. كَبتٌ عنيف للشره والغضب. ظَهْر مشلول، قدمان متعبتان، ظفر إبهام مكسور، شفتي السفلى الممزّقة تؤلمني. ومع ذلك، هذه المقولة صحيحة: «ما لا يكسرني، يجعلني أقوى».

هامش: ما رأيتُه اليوم في الشارع. رجل يدفع عربةَ يدٍ إلى الأمام، وضع عليها امرأة ميتة، متخشّبة مثل لوح. خصلات شعرها الأشيب ترفرف حول رأسها، وترتدي مئزر طبخ أزرق. ساقاها النحيلان مع جوربَيْن رماديَّيْن يبرزان من حافة العربة الخلفية. بالكاد، يلاحظها المرء. كانت تبدو مثل نفايات، يُراد لها أن تُلقَى بعيداً.

الجمعة ٢٧ أبريل ١٩٤٥، يوم وقوع الكارثة، نشوة الانتصار الهمجية - كتبتُ هذا في صباح السبت.

بدأ اليوم هادئاً. ليل هادئ جداً، وفي منتصف الليل، ذكّرتنا فرولاين بين بأن العدوّ توغّل حتّى الساحات العامة، وأن خطوط القتال الألمانية قريبة جداً منا.

لم أتمكّن من النوم لوقت طويل، حاولتُ أن أستعيد لغتي الروسية، أجرّب عبارات من المفترض أني سوف أستخدمها الآن. للمرّة الأولى قلتُ هذا لشعب القبو، إني أعرف بعض الروسية، وإن من بين الدول الاثني عشر التي زرتُ رسومها وصورها كلها، في بضع سنوات، كان أن عثرتُ - أيضاً - على روسيا الأوروبية. لغتي الروسية بدائية، بالطبع، لغة عامية، التقطتُها في طريقي. على أي حال، يمكنني العَدّ، أحدّد موعداً، وأتهجّى الحروف، إلى حدّ ما. سوف أتذكّر كل شيء بسرعة، التمرين يلوح في الأفق. أنجح - دائماً - في تعلّم اللغات دون جهد. نمتُ أخيراً، وأنا أعدّ الأرقام باللغة الروسية.

نمتُ حتّى الساعة الخامسة صباحاً، واستيقظتُ عندما سمعتُ جلبة بالقرب من مدخل القبو. كانت هذه زوجة الكُتُبي، جاءتْ من الخارج، أمسكتْ يدي، وهمستْ: «هم هنا».

«مَن، الروس؟!» كنتُ - بالكاد - أستطيع فتح عينيّ.

«نعم. كانوا للتوّ عند ماير (تاجر النبيذ)، قفزوا من النافذة».

ارتديتُ ملابسي كلها، مشطتُ شعري، بينما كانت المرأة تنقل الخبر لكل مَن في الملجأ. في بضع دقائق، عمّت الفوضى أرجاء القبو.

صعدتُ، وأنا أتلمّس الدرج الخلفي إلى الطابق الأول، لإخفاء خزيننا الصغير من المواد الغذائية، إن لم يكن قد حدث هذا بعد. أُنصتُ إلى تحطّم الباب الخلفي، الذي لم يعد من الممكن إقفاله. كل شيء ساكن، والمطبخ فارغ. زحفتُ جاثمة إلى الشبّاك. الشارع المشمس تعرّض للهجوم، وسمعتُ تطاير الرصاص وأزيزه. عند الزاوية، يظهر الرشّاش الرباعي الروسي: أربع زرافات حديدية برقاب متوعّدة شاهقة. كان يمشي في الشارع رجلان: ظهور عريضة، سترات جلدية، جزمات جلدية طويلة. سيارات تسير في الشارع توقّفت عند الرصيف. هدير مدفع رشّاش في الشارع في ضوء الصباح الباكر. الطريق يرتجف. رائحة البنزين تنفذ من خلال النوافذ المكسورة، وتدخل المطبخ.

عدتُ إلى القبو. أفطرنا في جوّ كئيب. التهمتُ قطعاً مختلفة من الخبز وسط ذهول الأرملة. شعرتُ بوخز في معدتي. ذكّرني هذا بالشعور الذي كان لديّ، وأنا طالبة قبل امتحان الرياضيات، شعور من القلق والاضطراب، وتمَنٍّ أن يمرّ هذا كله، بسرعة.

ذهبنا - بعد ذلك - معاً إلى فوق، الأرملة وأنا. في شقّتها، أزحنا الغبار، مسحنا، نظّفنا، وفركنا - بما لدينا من الماء في الدلو - الكمّيّة ما قبل الأخيرة من الماء. الله وحده أعلم لماذا أنهكنا أنفسنا بهذه الطريقة. ربّما من أجل أن تمتدّ المعاناة أكثر، ومرّة أخرى، لنهرب من المستقبل إلى الحاضر الملموس.

في غضون ذلك، كنا نزحف بين الحين والآخر إلى النافذة؛ لننظر إلى الخارج. وصل قطار الجيش الأبدي، وتوقّف أمام المنزل. فرسان أصحّاء البنية، وأمهار بين سيقانهم. بقرة، كانت تخور، من أجل أن تُحلَب. وبالفعل، قبل أن ندرك ما يحدث، أنشأووا مطبخاً ميدانياً في المرأب، على الجانب الآخر من الشاعر. للمرّة الأولى، يمكننا تمييز أنواع الشخصيات، الوجوه:

شباب ضخام البنية أقوياء، حليقو الشعر، صحتهم جيدة، غير مبالين. لا ترى مواطنين. في لحظة، أصبح الروس - فقط - هم مَن يملكون السلطة في الشارع. لكنْ؛ تحت البنايات كلها يجلس الناس يتنصّتون، ويرتجفون. لو استطاع شخص - ذات مرّة - وصف ما يحدث، ممَن يعيشون في هذا العالم السفلي ، هذا العالم المخيف في هذه المدينة الكبيرة. الحياة التي تسلّلت إلى الأعماق، انقسمت إلى وحدات صغيرة جداً، لا تعرف أي شيء عن بعضها.

في الخارج، السماء زرقاء وصافية.

بعد الظهر، عندما حملنا أنا والهامبورغية مرجل شوربة الجريش الثاني، الذي طُبخ لمجتمع القبو في المخبز، عثر العدوّ الأول على الطريق إلى قبونا. ملامح قروية، وخدّان حمراوان، اضطربت عيناه عندما كان يتفحّص الناس في القبو على ضوء المصباح النفطي. دخل بتردّد، تقدّم بضع خطوات نحونا.

قلبي كان يدقّ بقوّة. البعض حبسوا أنفاسهم خوفاً منه، وأطباق الشوربة أمامهم. هزّ رأسه، وابتسم، وما يزال صامتاً. عندها قلتُ كلماتي الروسية الأولى: «شتو ڤي شلايتيه؟» (ما هي مهمتك هنا؟).

استدار فوراً، وحدّق بي مندهشاً. لاحظتُ أني قد أفزعتُه. يبدو له أن ذلك لم يحدث من قبل، أن مجرّد «حمقاء» تتحدّث معه بلغته؛ لأنه قال «نيّمزه»، «الحمقى»، هكذا يسمّي الروس الألمان على لسان العامة. ربّما منذ بداية الهانزه(*) الألمانية، منذ خمسمائة سنة، عندما كان التجّار الصامتون (الذين لا يتحدّثون الروسية، بكل تأكيد) في نوڤغورود، ويقايضون الجلود بالفرو وشمع العسل.

على أي حال، لم يردّ هذا الروسي على سؤالي، وهزّ رأسه فقط. سألتُه -

---

*) هانزه أو الرابطة الهانزية (Hanse) هي رابطة ضمّت العديد من المدن التجارية في منطقة بحر الشمال (شمال ألمانيا) والبلطيق، استمرّت من القرن الثاني عشر، وحتّى القرن السابع عشر.

أيضاً - بالروسية، إن كان ربّما يرغب بشيء من الطعام. ضحك عندما سمع ذلك، وقال بالألمانية: «Schnaps» (شراب).

شراب؟ الجميع هزّ رأسه. هنا ليس لدينا كحول. مَن لديه بعض منها، يخفيها جيداً. هرب الإيڤان مرّة أخرى. يبحث عن طريقه في متاهة الممرّات والمداخل.

في الشارع، كان زملاؤه منشغلين في مرحهم. خرجتُ مع بضع نساء أخريات من القبو لمشاهدة الصخب في الخارج. في دربنا، كان هناك شاب مشغول بتلميع درّاجة نارية، زونداپ ألمانية جديدة تقريباً. رفع قطعة القماش لي مع إشارة دعوة للمشاركة في التلميع. عندما أجبتُه بالروسية مع ابتسامة، بأني لا أرغب بذلك، نظر لي مندهشاً، وردّ بابتسامة.

عدد من الروس يقودون الدرّاجات الهوائية في الشارع. يُعلّمون بعضهم كيفية قيادتها، يجلسون متخشّبين مثل الشمبانزي سوزي، وهو يقود الدرّاجة الهوائية في حديقة الحيوانات. يصطدمون بالأشجار، ويصيحون مسرورين.

شعرتُ أن الكثير من الخوف قد ذهب منّي. في النهاية، هؤلاء الروس «مجرّد رجال»، بطريقة أنثوية، أو بأخرى، بالحيلة والخداع، يجب التحكّم بهم، يمكن التملّق لهم، إلهاؤهم، وإبعادهم، بطريقة مهذّبة.

على الأرصفة كلها، تقف الخيول وسط سمادها وبولها. رائحة حظيرة حيوانات قوية. جنديان يريدان أن يعرفان منّي أين أقرب مضخّة ماء. كان حصاناهما عطشانَيْن. مشينا معاً ربع ساعة في الحدائق. أصوات لطيفة، ووجوه مسرورة. لأول مرّة، سمعتُ هذا السؤال الذي سوف يتردّد كثيراً: «هل أنتِ متزوّجة؟» عندما تكون الإجابة نعم، يسألون المزيد، أين هو؟ وعندما تكون الإجابة لا، يتبعها سؤال، هل ترغبين في الزواج من روسي. وأخيراً المداعبة المباشرة.

في البداية، تحدّثا معي، بطريقة غير رسمية، نهرتُهما، وقلت لهما بأني لم أتحدّث معهما بهذه الطريقة. مشينا الممرّ الأخضر المهجور حتّى نهايته. قذائف المدفعية تبعتْنا، وسقطت حولنا. خطوط القتال الألمانية على مسافة عشرة دقائق من هنا. لا نرى طائرات ألمانية بعد الآن، المدفعية الألمانية المضادّة للطائرات لم نعد نسمعها تقريباً. لا مياه في الأنابيب، لا تيار كهربائي، لا غاز، لا شيء على الإطلاق. الإيقان فقط.

عدنا مع دلاء الماء. الحصانان شربا الماء، والرجلان كانا ينظران برضا. مشيتُ قليلاً، وتحدّثتُ مع هذا الروسي وذاك. انقضى ما بعد الظهر، والشمس تسطع، والحرارة مثل حرارة الصيف تقريباً. شعرتُ كما لو أن شيئاً ما يهدّدني على وشك الحدوث، شيئاً شريراً، ولا يمكن سبر غوره. بعض هؤلاء الشباب نظروا حولي، بطريقة غريبة، بينما يرمون لبعضهم نظرات سريعة، تعني الكثير. أحدهم، صغير وأصفر، تفوح منه رائحة الكحول، جرّني إلى محادثة، وحاول إغرائي بالذهاب إلى فناء أحد المنازل. سمح لي أن أرى ساعتَيْن يدويّتَيْن، يرتديهما حول ذراعه، وعدني بواحدة منهما، إذا أنا وهو ...

سحبتُ نفسي إلى المدخل في طريقي إلى القبو، أتسلّل عبر الفناء. ظننتُ أني فقدتُه، حتّى ظهر إلى جانبي على حين غرّة، وتسلّل إلى القبو معي. يتدحرج من عارضة خشبية إلى أخرى، يسلّط ضوء المصباح الكاشف على الوجوه، حوالي أربعين وجهاً، يترك ضوء المصباح الكاشف يستقرّ بتوق على وجوه النساء.

تجمّد القبو. الجميع يبدو مشلولاً، لا أحد يتحرّك، لا أحد يتكلّم. المرء يسمع النَّفَس المكبوت. عندها توقّف ضوء المصباح الكاشف تماماً على ستينشن ذات الثماني عشرة سنة التي كانت مستلقية على الأريكة. تلفّ رأسها بضمادة بيضاء ناصعة، عكست لوناً أبيض. سأل الروسي بلهجة تهديد، وهو يشير على الفتاة: «كم عمرها؟».

لم يجبه أحد. الفتاة مستلقية هناك، كما لو أنها من حجر. هدر الروسي مرّة أخرى بصوت خشن وغاضب: «كم عمرها؟» أجبتُه بالروسية بسرعة: «إنها طالبة، عمرها ثماني عشرة سنة». أردتُ قول شيء آخر، إنها مصابة في رأسها، لكنني لم أستطع العثور على الكلمة، وساعدتني الكلمة العالمية kaputt على ذلك: «أُصيبت في رأسها، في انفجار قنبلة».

تبع ذلك - الآن - محادثة بيني وبين الرجل، تناوب سريع من سؤال وجواب، لا معنى لكتابته؛ لأنه كلام بلا معنى. كان عن الحب، عن الحب الحقيقي، إن كنتُ أحبه، أو أننا سوف نذهب إلى الفراش. «ربمّا» قلتُ، ومشى خطوة بعد خطوة نحو الباب. وقع في الشّرْك، وتبعني. شعب القبو حولنا، ما يزالون مشلولين من الذهول، لم يفمهوا أي شيء من ما يحدث هنا.

فعلتُ ما بوسعي؛ لأعطيه الانطباع بأني أتودّد له، لكنّ يديّ ترتجفان، وقلبي يدقّ بسرعة شديدة، بالكاد كان يمكنني قول كلمة واحدة. أنظر إلى عينيه السوداوَيْن، وأدهشني بياض عينَيْه الذي كان أصفر - تماماً - من اليرقان. الآن نحن في الخارج، في المدخل الذي كان شبه مظلم، خرجتُ، وأنا أمشي أمامه إلى الوراء، لا يعرف الطريق هنا، ومشى خلفي. همستُ: «هناك في ذلك المكان، جيد جداً، لا يوجد أحد». ثلاث خطوات أخرى، صعدنا درجتَيْن، ووقفنا في الشارع وسط جحيم شمس ما بعد الظهر.

ركضتُ مباشرة إلى «صديقيّ»، راعيَي الحصانَيْن، كانا مشغولَيْن بتفريش حصانَيْهما. أشرتُ إلى الرجل الذي يتبعني: «هذا وغد، هاهاها!» نظر لي الشاب نظرة مسمومة، وأقحم نفسه بيننا. ضحك ممشّطي الحصانَيْن. تكلمتُ قليلاً معهما، هذا ساعدني على الهدوء، ولم تعد يداي ترتجفان.

بينما أنا كنتُ أتحدّث في الخارج، جاب في قبونا عدد من «الأبطال» الذين - على أي حال - لا يبحثون عن النساء، كانوا يبحثون عن الساعات. لاحقاً، كثيراً ما رأيتُ إيفان مع مجموعة كاملة من الساعات اليدوية حول

كلا ذراعَيْه، يظل يقارن بينها، يلفّ نابض الساعات، ويضبّط وقتها بفرح لصوصي طفولي.

أصبح حيّنا - الآن - معسكراً. وُضع تموين الجنود في المحلات التجارية والكراجات. الحُصُن تأكل الشوفان والتبن، من اللطيف أن ترى كيف تُخرج رؤوسها من النوافذ المكسورة للمحلات. هناك شعور من الراحة: جيد، خسرتنا ساعاتنا، لكن الحرب انتهت بالنسبة لنا، "ڤوينا كاپوت" (الحرب مُعطّلة) كما يقول الروس. العاصفة تشتدّ، ونحن نجلس في منطقة مَحمية من الريح.

أو على الأقل، هذا ما كنا نظنه!

في حوالي الساعة السادسة... رجل مثل دبّ، سكران، دخل، وهو يلوّح بمسدّسه، وتوجّه، وهو يترنّح نحو زوجة صانع الخمور. هي - بالذات - وليس غيرها. طاردها بمسدّسه خلال القبو، دفعها أمامه إلى الباب. قاومتْه، ضربتْه، صرختْ، وعندها - فجأة - أطلق النار. الرصاصة أصابت الحائط بين العارضتَيْن، دون أن تُسبّب أي أضرار. ذعرٌ في القبو، قفز الجميع، صرخوا ... حامل المسدّس نفسه فزع أيضاً، وفرّ هارباً.

في حوالي الساعة السابعة، كنتُ أجلس أنا والأرملة فوق، في شقّتها، نأكل بهدوء حتّى اندفعت نحونا بسرعة بنت البوّاب الصغرى، وهي تصرخ: «تعالي، بسرعة إلى القبو، يجب أن تتحدّثي معهم، الروس يطاردون فراو بيَ. مرّة أخرى». مرّة أخرى، زوجة صانع الخمور. حتّى الآن هي الأكثر بدانة منا جميعاً، مع صدر ضخم. من المعروف عموماً، أنهم يفضّلون النساء البدينات. بالنسبة لهم، البدانة تساوي الجمال؛ لأنها أكثر أنوثة، مختلفة كثيراً عن أجساد الرجال. في القرى البدائية، تُكرم البدينة على أنها رمز للوفرة والخصوبة. لهذا عليهم أن يبحثوا هنا طويلاً. أغلب النساء الكبار في السنّ، اللواتي كنّ بدينات في السابق، أصبحن - الآن - نحيفات من الخوف. زوجة

صانع الخمور - على سبيل المثال - لم تعانِ من العوز، في ما مضى من حياتها، طوال الحرب كان عندها شيء للمقايضة. الآن يجب عليها أن تدفع ثمن ما كسبتْه من الشحم غير المشروع.

عندما وصلتْ إلى القبو، كانت تقف عند باب المنزل، تبكي، وترتعش. نجحتْ في الهروب من الرجال، لا تجرؤ - بعد الآن - على دخول القبو. لكنها - أيضاً - لا تجرؤ على العودة إلى شقّتها في الطابق الرابع؛ لأنها لا تزال تتعرض لإطلاق النار من جانب الألمان. هي خائفة - أيضاً - من احتمال أن يلحق بها الرجال إلى فوق. خمشتْ ذراعي بقوّة، حتّى إني لا أزال أرى طبع أظافرها على ذراعي. وتوسّلتْ بي أن أذهب معها إلى القائد؛ لتطلب منه مرافقاً، نوع من الحماية. لا أعرف بماذا كانت تفكر!

كَلّمتُ أحد المارة الذي كان يضع نجوماً على كتفَيْه، وحاولتُ أن أصف له خوف المرأة، لكنني لاحظتُ - عندها - أني لا أعرف كلمة «خوف». صنع - بنفاد صبر - إيماءة رفض: «آخ، هيا، لن يفعل لك أحد أي شيء، اذهبي إلى المنزل». أخيراً صعدت المرأة الدرج بخطوات مترنّحة، وهي تنتحب، لم أرها منذ ذلك الحين، لابد أنها اختبأت في الطابق العلوي. هذا أفضل بكثير، كانت طُعماً مغرياً جداً.

ما إن صعدتُ إلى فوق حتّى جاءت بنت البوّاب، تركض على الدرج، من الواضح أنها قد تمّ الاستعانة بها كمرسال. رجال في القبو، مرّة أخرى. هذه المرّة كانوا يريدون زوجة الخبّاز، التي اجتهدت - أيضاً - في إنقاذ بعض دهون الجسم من الحرب. الخبّاز جاء يمشي متمايلاً لمقابلتي في المدخل، أبيض مثل طحينه، يتمتم، ويداه ممدودتان: «هم عند زوجتي ...» صوته كان مضطرباً. في لحظة، شعرتُ أني أمثل دوراً في مسرحية. هذا مستحيل، أن الخبّاز يمكنه أن يُمثّل بهذه الطريقة، أن يتصنّع هذه العاطفة في صوته، روحه يعرّيها، ويكشفها إلى هذا الحدّ، كما لو أني أنظر - الآن - إلى عرض مسرحي كبير.

في القبو. المصباح النفطي مُطفأ، يبدو أن النفط قد نفد. على وميض ضوء من فتيل شمعة في صحن مع ستيارين الشمع، أو ما يسمّى ضوء هيندنبورك(*)، تعرّفتُ على الوجه ناصع البياض والفم المرتعش لزوجة الخبّاز. ثلاثة من الروس يقفون حولها. أحدهم جرّها من ذراعها؛ وعندما حاولت النهوض من كرسيها، دفعها الآخر مرّة أخرى، وكادت أن تسقط. كما لو أنها دمية، مجرّد شيء.

في غضون ذلك، تحدّث الرجال الثلاثة على عجل مع بعضهم، يبدو أنهم يتشاجرون. فهمتُ القليل منهم، كانوا يتحدّثون بلهجة خاصة. ماذا نفعل الآن؟ «kommissar» (المفوّض) تأتأ الخبّاز. المفوّض، يعني: هو ذاك الذي لديه شيء؛ ليقوله. ركضتُ إلى الخارج، إلى الشارع، الآن هو هادئ في ضوء غروب الشمس. إطلاق النار، وصوت الانفجار كان بعيداً.

قابلتُ الضابط، الذي منذ لحظة سوّى موضوع زوجة صانع الخمور. تحدّثتُ معه بلغتي الروسية المهذّبة، وطلبتُ منه المساعدة. فهمني، وتجهّم وجهه. متردّداً، مُكرَهاً، تبعني أخيراً.

القبو كان ما يزال هادئاً وساكناً. كما لو أن كل هؤلاء الرجال، النساء والأطفال قد تحجّروا. في غضون ذلك، اختفى أحد الروسيين الثلاثة. الآخرَان لايزالان يقفان إلى جانب زوجة الخبّاز، ويتشاجران.

الضابط تدخّل في المحادثة، ليس بطريقة استبدادية، لكنْ؛ بطريقة وديّة. سمعتُ عدّة مرّات التعبير «أوكاس ستالينا» أمر من ستالين. يتضمن هذا الأمر - على ما يبدو - أن «مثل هذا» يجب أن لا يحدث. لكنه يحدث، بالتأكيد، كما هزّ الضابط كتفَيْه؛ لأفهم ذلك. أحدهم وبّخ الآخر. تغيّر وجهه من الغضب: «وماذا في ذلك؟ ماذا فعل الألمان في نسائنا؟» صرخ: «أخذوا أختي، و...» وهكذا، لم أستوعب الكلمات كلها، لكني فهمتُ المعنى.

---

*)ضوء هيندنبورك (Hindenburglicht) هو مصدر إضاءة، استُخدم في خنادق الحرب العالمية الأولى. سُمّي نسبة إلى القائد العام للقوّات المسلحة الألمانية في الحرب العالمية الأولى، بول فون هيندنبورك.

تحدّث الضابط - مرّة أخرى - مع الرجل بهدوء. اختفى في غضون ذلك - تدريجياً - في اتجاه باب القبو، والآخرون خرجوا بعد بعض الوقت أيضاً. سألتْ زوجة الخبّاز، بصوت غليظ: «هل خرجوا؟» هززتُ رأسي، لكنْ؛ على سبيل الاحتياط، ذهبتُ إلى المدخل المظلم مرّة أخرى. عندها أمسكوا بي. كان الرجلان ينتظران هنا.

صرختُ، صرختُ ... أُغلق باب القبو ورائي بقوّة.

أحدهما سحبني من معصمي أكثر للمدخل. والآخر بدأ يجرّني أيضاً، وضع يده حول رقبتي حتّى لا أصرخ، لا أريد الصراخ، اختنقتُ من الخوف، مزّقوا ثيابي، استلقيتُ على الأرض. سقط شيء من سترتي. يجب أن تكون هذه مفاتيحي، حزمة مفاتيحي. وصلتُ برأسي - وأنا مستلقية - على أول درجة من السُلّم. شعرتُ ببرد البلاط في ظهري. أحدهما ظلّ فوق يحرس الباب. من خلال شقّ، ينفذ بعض الضوء. الآخر مزّق لباسي الداخلي إلى خُرق صغيرة، وقام بفعلته بوحشية...

تحسّستُ حولي بيدي اليسرى على الأرض حتّى عثرتُ - أخيراً - على حزمة مفاتيحي، قبضتُ عليها بأصابعي بقوّة. قاومتُه بيدي الأيمن، لم يساعد ذلك في شيء، حزامي مزّقه بسهولة إلى نصفَيْن. عندما حاولتُ النهوض - وأنا أشعر بالدوار - رمقني الآخر، وبركبتَيْه وقبضتَيْه دفعني على الأرض. الآن يقف الآخر للمراقبة، همس: «بسرعة، بسرعة...».

فجأة، سمعتُ أصواتاً روسية عالية. أصبح المكان مضيئاً. الباب مفتوح. اثنان، ثلاثة من الروس دخلوا، الشخص الثالث الذي دخل كان امرأة بزي عسكري. ضحكتْ. الرجل الثاني، اضطرب في مهمته، وقفز واقفاً. ذهب الاثنان - الآن - مع الثلاثة الآخرين إلى الخارج، وتركوني مستلقية.

سحبتُ نفسي إلى الدرابزين، لملمتُ ملابسي مع بعضها، ومشيتُ متحسّسة طريقي بمحاذاة الحائط إلى باب القبو. الباب كان مقفلاً من

الداخل، في أثناء ذلك. «افتحوا الباب، افتحوا الباب!» صرختُ. وعندما لم يحدث شيء: «افتحوا الباب! أنا وحدي، لقد ذهبوا».

أخيراً ارتفع المزلاجان الحديديان إلى أعلى. في الداخل، شعب القبو يحدّق بي. الآن - فقط - لاحظت كيف أبدو. جورباي معلّقان على حذائي، شعري يتدلى على وجهي، وحمالة الجوارب الممزقة لا أزال أمسكها بيدي.

انفجرتُ غضباً: «أنتم أوباش! اغتُصبت مرتَين، وأنتم تُغلقون الباب، وتدعونني ملقاة مثل شيء قذر!». استدرتُ؛ لأخرج. ورائي كان الجميع صامتاً في البداية، ثمّ بدؤوا في الكلام. جميعهم يتحدّثون في وقت واحد، يصرخون على بعضهم، يتشاجرون، منشغلين بالإيماءات إلى بعضهم. وأخيراً جاء القرار: «سوف نذهب جميعاً إلى القائد، ونطلب منه حمايتنا الليلة».

وهكذا سحبت مجموعة من النساء وعدداً من الرجال في مساء مظلم بعض الشيء إلى الخارج في هواء شديد الحرارة، تفوح منه رائحة حريق، إلى المنزل على الجانب الآخر؛ حيث يسكن القائد.

هدوء في الخارج، والمدافع صامتة. عند باب المدخل رجال مستلقون على الأرض، روس. عندما اقتربتْ مجموعتنا، وقف أحدهم، وآخر دمدم: «آخ، ليسوا سوى ألمان»، واستدار مرّة أخرى. في المدخل، سألتُ عن القائد. فصل نفسه عن مجموعة من الرجال عند الباب إلى خلف المنزل: «نعم، ماذا تريدين؟» رجل ضخم، أسنانه بيضاء، عِرق قوقازي.

ضحك - فقط - على تأتأتي، وعلى المجموعة البائسة التي تريد أن تشتكي. «أوه، هيا، من المؤكد أنهم لم يُسيئوا لكِ. رجالنا كلهم بصحة جيدة». تمشّى عائداً إلى الضباط الآخرين، سمعنا ضحكاً، بصوت عالٍ بعض الشيء. استدرتُ إلى مجموعتنا المحزنة، وقلتُ: «لا ضرورة لذلك».

نحن من جانبنا، المجموعة، تراجعتْ إلى القبو. لا أرغب بالمزيد، لا

أستطيع أن أرى هذه الوجوه مرّة ثانية. صعدتُ إلى الطابق الأول، إلى جانب الأرملة التي احتضنتْني كأني شخص مريض. كانت تتحدّث معي بنعومة، تمسح على رأسي، وتراقبني حتّى توتّرتُ من ذلك. أريد أن أنسى.

في الحمّام، نزعتُ ملابسي للمرّة الأولى بعد عدّة أيام، غسلتُ نفسي جيداً، وبغضب، عندما يتعلق الأمر بالقليل المتبقّي من الماء، وفرشتُ أسناني أمام المرآة. فجأة، ظهر روسي شاحب ونحيل، مثل شبح في مدخل الباب. شاحب، أنيق. سأل بألمانية عجيبة، وبصوت ناعم: «أين، من فضلكِ، الباب؟» من الواضح أنه في الشقّة الخطأ. أشرتُ له دون أن أقول كلمة من المفاجأة، وأنا أرتدي ثوب النوم، على الطريق إلى الباب الأمامي الذي يؤدي إلى درج المنزل. شكرني بكل تهذيب على ذلك.

ركضتُ إلى المطبخ. نعم، لقد دخل من الباب الخلفي. خزانة المكنسة التي أغلقتُ بابها، الأرملة تحرّكت جانباً. جاءت الأرملة للتوّ من القبو. معاً أغلقنا الباب الخلفي من جديد، لكنْ - الآن - أغلقناه بإحكام. بنينا برجاً من الكراسي، وحرّكنا - أيضاً - طاولة المطبخ الثقيلة في نهاية المطاف. «هذه صلبة جداً» قالت الأرملة. الباب الأمامي أغلقتْه كالمعتاد بالمزلاج، وأدارت المفتاح مرَّتَيْن. شعرنا بالأمان، إلى حد كبير.

شعلة صغيرة من ضوء هيندنبورك ترتعش. ضخّمت ظلالنا على السقف. الأرملة هيّأت لي فراشاً على الأريكة، في غرفة الجلوس. لأول مرّة منذ فترة طويلة، لم ننزل ستائر التعتيم. ولماذا؟ سوف لن يكون هناك المزيد من الضربات الجوّيّة، بالنسبة لنا على الأقل، نحن روسيون الآن. الأرملة تجلس إلى جانبي على حافة الفراش. كانت قد نزعتْ حذاءها للتوّ، عندما سمعنا ضجيجاً، وانشقاق الخشب.

الباب الخلفي المسكين، بصعوبة أقمنا السور الدفاعي خلفه، عندها انهار، بالفعل، والكراسي ارتطمت بالبلاط. سمعنا حركة، أصواتاً خشنة،

تحرّكت الكراسي من مكانها. حدّقنا ببعضنا. وميض ضوء تسلّل من شقّ في الحائط بين المطبخ وغرفة الجلوس. دخلوا المدخل. شخص دفع باب غرفتنا، وفتحه.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة رجال. كلهم مدجّجون بالسلاح، ومسدّس أوتوماتيكي على الورك. نظروا لنا لبعض الوقت، ولم يقولوا كلمة. أحدهم مشى في الغرفة نحو الخزانة مباشرة، سحب كلا الجرّارين بقوّة، عبث بمحتواهما. ثمّ قذفهما بقوّة، وأغلقهما مجدداً. قال شيئاً بنبرة احتقار، وخرج، وهو يضرب قدميه بالأرض بقوّة. سمعناه يتحرّك محدثاً جلبة في الغرفة المجاورة؛ حيث كان يسكن سابقاً المستأجر من الباطن حتّى التحاقه بالخدمة في الفولكسشتورم. الروسيون الثلاثة الآخرون يقفون حولنا، يتهامسون بينهم، وينظرون لي خلسة. الأرملة ارتدت حذاءها مرّة ثانية. همست، بأنها سوف تركض إلى فوق لطلب المساعدة من الآخرين ... خرجتْ. لم يمنعها أحد من الرجال.

ماذا يجب أن أفعل؟ فجأة رأيتُ كم هو مضحك هذا الموقف، كما أنا في ثوب النوم الوردي مع الشرائط، أجلس في الفراش أمام ثلاثة رجال غرباء. لن أصمد أكثر من ذلك، يجب أن أقول شيئاً، أن أفعل شيئاً. ولهذا عدتُ؛ لأقدّم لغتي الروسية مرّة أخرى. "شتو ڤي چلايتيه؟" (ماذا تريدون؟).

نظروا لي مذهولين. ثلاثة وجوه مندهشة. وفوراً جاء السؤال: «كيف ذلك، أنتِ تعرفين الروسية؟».

قدمتُ خطابي، شرحتُ كيف أني سافرتُ في رحلة عبر روسيا، للرسم والتصوير، وفي أي سنة تقريباً. الآن جلس المحاربون الثلاثة، وضعوا أسلحتهم جانباً، ومدّوا سيقانهم. تحدّثنا مرّة بعد أخرى، وفي غضون ذلك، كنت أنصتُ، لعلّي أسمع شيئاً في المدخل. انتظرتُ عودة الأرملة مع فرقة إغاثة معلنة من الجيران. لكني لم أسمع شيئاً.

في أثناء ذلك، ظهر الجندي رَقْم أربعة من جديد، تحرّك مع الجندي رَقْم ثلاثة إلى مطبخنا. سمعتُهما منشغلَيْن بالأطباق هناك. الآخَران ظلا جالسَيْن، يتهامسان مع بعضهما، ربمّا كان هذا المقصود، أن لا أفهم من كلامهما أي شيء. جوّ مشحون بالغرابة. هناك شيء ما سيحدث، هناك شرارة تحلّق حولنا، والسؤال هو: إلى أين وجهتها.

الأرملة لم ترجع بعد. حاولتُ الحديث مع الرجلَيْن مرّة أخرى من تحت لحافي، لكني لم أستطع. كانا ينظران لي نظرات ماكرة. يجلسان متململَيْن على كرسيّيهما. هذا هو الوقت المناسب؛ لكي يحدث. عرفتُ هذا من الصحف الأخيرة، عندما كانت الصحف لا تزال تصدر: عشر مرّات، عشرون مرّة، لا أعرف. أشعر أني محمومة. وجهي يتّقد. البارحة انقطع دم الحيض فجأة.

صاح الرجلان في المطبخ. الرجلان - هنا - نهضا ببطء عن مقعدهما، وتمشّيا نحو المطبخ. زحفتُ بهدوء من الفراش، أنصتُّ قليلاً قرب باب المطبخ، يبدو أنهم كانوا يشربون. بقدمَيْن حافيتَيْن، تسلّلتُ عبر المدخل المظلم، انتزعُت - بشكل عابر - معطفي من الشمّاعة، وارتديتُه فوق ثوب النوم.

بحذر شديد، فتحتُ الباب الأمامي. لم يكن مقفلاً، الأرملة - على أي حال - قد خرجت. وقفتُ أُنصتُ في باُحة السّلّم المظلم الصامت. لا شيء. لا صوت من أي مكان، أو بصيص من ضوء. إلى أين يمكن أن تكون قد ذهبت الأرملة؟ في اللحظة التي حاولتُ فيها صعود الدرج، قبض عليّ أحد الرجال من الخلف، لقد تسلّلوا خلفي بهدوء.

مخالب عملاقة، رائحة شراب. قلبي يدقّ، أو كاد ينفجر. همستُ، توسّلتُ: «واحد فقط، أرجوك. أرجوك واحد فقط. أنتَ مَن أقصده، لكنْ: ألق بالآخرين إلى الخارج».

وعدني هامساً، وحملني مثل حزمة من الخرق خلال المدخل. لم يكن لديّ أدنى فكرة مَن هو من الأربعة، أو كيف يبدو. في الغرفة الأمامية المظلمة؛ حيث النوافذ كلها مكسورة تقريباً، وضعني على سرير فارغ، مرفوع غطاءه، وشرشفه، هو للمستأجر من الباطن السابق. ثمّ صاح ببضع جمل خشنة، باتجاه المطبخ، أغلق الباب خلفه، واستلقى إلى جانبي في الظلام. شعرتُ ببرد قارس، وطلبتُ منه، وتوسّلتُ له أن يُعيدني إلى فراشي في الغرفة المجاورة. لم يرغب بذلك، يظهر أنه خائف من عودة الأرملة. بعد نصف ساعة، عندما ساد الهدوء، استنهض همّته.

مسدّسه الأوتوماتيكي رنّ على السرير، وضع طاقيّته على كرة عمود السرير. في أثناء ذلك، كان ضوء هيندنبورك لا تزال شعلته متّقدة. پيتكا، هذا هو اسم الجندي، رأسه مدبّب: شعيرات رأسه الشقراء الخشنة تمتد في شكل مثلث عند جبينه، ملمسه مثل ملمس أريكة مخملية. بالإضافة إلى ذلك، هو ضخم، عريض مثل باب خزانة، مع مع ذراعي حطّاب، وأسنان بيضاء. أنا متعبة جداً، منهكة جداً، وبالكاد أعرف أين أنا الآن. پيتكا تلعثم ببضع كلمات: قال أنه من سيبيريا، حسناً. الآن، نزع جزمته أيضاً. أنا دائخة، ما تبقّى منّي هو النصف، وهذا النصف لن يدافع عن نفسه، يأسَ أمام هذا الجسد القوي، الذي تفوح منه رائحة الصابون الأخضر، هدر «مالتشيسكا...» أخيراً الراحة، الظلام، النوم.

حوالي الساعة الرابعة صباحاً صاح الديك، الذي تبع قافلة الجيش هو الآخر. استيقظتُ حالاً، سحبتُ ذراعي من تحت پيتكا. رسم على وجهه ابتسامة، أظهرت أسنانه البيضاء. نهض سريعاً، وقال، إن عليه الانتظار الآن، لكنه - على أي حال - سوف يعود في السابعة مساءً... على أي حال! وعند توديعي، كاد أن يكسر أصابعي.

زحفتُ ثانية تحت الأغطية، ونمتُ نوماً مضطرباً، أستيقظ كل ربع ساعة، وفي مرّة قفزتُ على صوت صرخة: «سا - عدوني!» لكنه لم يكن سوى صوت

الديك. والآن أسمع خوار البقرة أيضاً. أخرجتُ المنبّه الذي كان ملفوفاً بمنشفة (يجب أن أقول: إن المنبّه كان للأرملة، لكني تصرفتُ، كما لو أني - أيضاً - أنتمي للعائلة). المنبّه كان ملفوفاً بمنشفة حمّام للحيطة، وموضوعاً في الجزء الخلفي تماماً لإحدى خانات الخزانة. ننظر له، إذا كنا وحدنا، وبأمان، لا نريد أن نخسره للإيڤان.

الساعة كانت الخامسة، لم أستطع النوم. نهضتُ، رتّبتُ الفراش، دفعتُ الخزانة والكراسي مرّة أخرى خلف الباب الخلفي مع قفله المكسور، رميتُ القناني الفارغة التي تركها الرجال خلفهم، وتفقّدتُ خزيننا من البورغونيه في خزانة المطبخ. وضعناه في دلو قديم. شكراً لله أنهم لم يجدوه.

سقط على النافذة، توهّج لون رمادي أحمر. لا تزال الحرب في الخارج، ودويّ الانفجارات، لكنها بعيدة جداً. الجبهة امتدت حتّى وصلت إلى مركز المدينة.

غسلتُ نفسي جيداً مثل المرّة السابقة، ارتديتُ ملابسي، وأنصتُّ بحذر عند باحة السّلّم في هدوء الصباح. لا شيء سوى الصمت والفراغ. لو أني أعرف - فقط - أين اختفت الأرملة! لا أريد أن أطرق أي باب، وأُفزع أي أحد.

عندما ذهبتُ للمرّة الثانية إلى باحة السّلّم؛ لأُنصت، سمعتُ أصواتاً تقترب. صعدتُ الدرج. وهناك التقيتُهم، مجموعة كبيرة، وفي مقدمتهم الأرملة الحزينة المثيرة للشفقة. وقعت بين ذراعَيّ، وتأسفتْ: «لا تغضبي منّي!» (منذ البارحة وأنا وهي نتخاطب بـ أنتِ، بطريقة غير رسمية). وحولنا تنتحب عدد من النساء معها. ضحكتُ على هذا النحيب كله: «ماذا هناك؟! أنا حيّة بعد ما حدث كله. انتهى كل شيء!».

وبينما نحن نصعد طابقاً آخر إلى الكُتُبي وزوجته، همستْ لي الأرملة، بأنها قد طرقتْ أبواباً مختلفة بلا جدوى، وطلبت ملجأ لي ولها. لم يفتح لها أحد. نعم، عدا موظّف البريد الذي همس لها من خلال باب موارب: «تلك

الفتاةْ؟ لا، لا نريد أن يسحبنا أولئك الرجال من رقابنا!». بعد ذلك، وفي ظلام دامس، قبض روسي على الأرملة، وألقاها على الأرضية الخشبية ... لا يزال طفلاً، حدّقت بي، وهي تقول ذلك، ناعم وعديم التجربة، وظهرتْ - دون قصد - ابتسامة على وجهها الذي تورّم من البكاء. لا أعرف - بالضبط - كم عمرها، سوف لن تُخبرني على أي حال. يجب أن يكون عمرها بين الأربعين والخمسين سنة. كان شعرها مصبوغاً. بالنسبة لهم، المرأة هي المرأة، عندما يمسكون جسداً في الظلام.

في شقّة الزوجَيْن الكُتُبيينَ، وجد خمسة عشر شخصاً ملجأً لهم. أخذوا معهم أغطية وشراشف، واستقرّوا على الأرائك، وعلى الأرض، وفي كل مكان؛ لأن لهذه الشقّة أقفالاً ممتازة، سواء على الباب الأمامي أو الخلفي، وفي الأرضية قضبان حديدية ثابتة. بالإضافة إلى أن الباب الأمامي مُثبت بالحديد من الداخل.

جلسنا بعيون جوفاء، ووجوهنا شاحبة مائلة للخضرة من نقص النوم، حول مائدة المطبخ الغريبة. نهمس جميعاً، تتنفّس بصعوبة، نشرب بشراهة قهوة الشعير الساخنة (طُبخت على نار الأدب النازي، كما أخبرنا الكُتُبي).

لا نزال نحدّق بالباب الخلفي المقفل، المحصّن، آملين أنه سوف يصمد. جائعة، ملأتُ بطني بالخبز الذي قُدّم لي. فجأة، صعدوا الدرج الخلفي، وتلك الأصوات الغريبة كانت تدوّي بشكل خشن وحيواني في آذاننا. هدوء وسكون حول المائدة. توقّفنا عن المضغ، وحبسنا أنفاسنا. تشابكت الأيدي المضطربة على الصدر. العيون تنظر في ذهول، لما ينتظرها. في الخارج، عاد الهدوء مرّة أخرى، واختفت الخطوات. همس شخص ما: «لو استمر الأمر إلى أبعد من ذلك...».

لم يُجبها أحد. كانت تلك هي الفتاة الهاربة من كونيسبيرك، ألقت بنفسها، وهي تبكي على المائدة: «لا أتحمّل المزيد! سوف أضع نهاية لهذا!» أظن أنها ذهبتْ من أجل ذلك الليلة عدّة مرّات إلى العلّيّة، التي لجأت

إليها هرباً من مجموعة كاملة كانت تطاردها. شعرها يتدلّى على وجهها، ولا تريد الأكل، ولا الشرب.

نجلس منتظرين، ونُنصتُ. فوقنا نغمات آلة المدفعية. إطلاق النار يَجلدُ شارعنا. كانت الساعة حوالي السابعة عندما نزلتُ أنا والأرملة إلى شقّتنا، وبحذر، نتفحّص باحة كل سلّم. بقينا نُنصتُ برهة أمام بابنا الذي تركتُه موارباً؛ لنعرف إن كانوا هم مَن فتح الباب من الداخل.

زيّ عسكري! فزعنا. الأرملة شدّت ذراعي بقوّة. التقطتُ أنفاسي، لم يكن سوى بيتكا.

استمعت الأرملة لحديثنا دون أن تقول كلمة. كان ينظر لي، بشغف. عيناه الصغيرتان الزرقاوان تتلألآن. هزّ يديّ، وأكد لي أن الساعات من دوني لا نهاية لها، وأنه بعد الحراسة مباشرة عاد بأسرع ما يمكن، وبحث عنّي في الشقّة كلها، وأنه سعيد، سعيد جداً؛ لأنه رآني مرّة أخرى. وعندها ضغط وقرص أصابعي بقوة بمخالب قاطع الخشب، إلى حد أني سحبتُ يدي منه. وقفتُ أستمع كحمقاء إلى أعراض، لا شكّ فيها، إلى تلعثم هذا الروميو، إلى أن اختفى بيتكا أخيراً، أخيراً، مع وعد بالعودة سريعاً، قريباً جداً، بأقصى سرعة ممكنة.

أقف، وأنظر له، وفمي مفتوح. الأرملة لم تفهم أي كلمة، لكنها رأت على وجه بيتكا ماذا يحدث. هزّت رأسها: «الآن يجب عليكِ أن ...» كنا أنا وهي في حيرة من أمرنا.

والآن أجلس إلى طاولة المطبخ، للتوّ ملأتُ قلمي بالحبر، وكتبتُ، كتبتُ، كتبتُ، وأخرجتُ الحيرة كلها من رأسي. ماذا يجب أن يحدث؟ ماذا ينتظرنا بعد؟ أشعر أني غروية جداً، لا أريد أن ألمس أي شيء، لا أريد أن أشعر بجلدي بعد الآن. لو كان بإمكاني أخذ حمّام الآن، أو مجرّد صابون وماء كثير فقط. كفى، ابتعدي عن هذه الأحلام.

فجأة تبادر إلى ذهني رؤيا غريبة، نوع من أحلام اليقظة، كانت لديّ منذ الصباح الباكر، عندما حاولتُ النوم دون جدوى بعد خروج بيتكا. كانت تبدو الرؤيا، كما لو أني مستلقية على السرير، بينما أنا أرى نفسي - بالفعل - في تلك اللحظة، عندها ارتفع عن جسدي كائن أبيض مضيء. نوع من الملائكة، لكنْ؛ دون أجنحة، حلّق عالياً. لا أزال أشعر - وأنا أكتب هذا الآن - بشعور التحليق عالياً. بالطبع كانت هذه رغبة وحلماً بالطيران. أنّاتي تركتْ - ببساطة - جسدي البائس القَذر المُغتصَب. تخلصتْ منه، وحلّقتْ بعيداً، طاهرة وبيضاء، إلى مساحات بيضاء. أنّاتي لن يكون لها أي دور في ما حدث لجسدي. خلعت هذا كله عنّي. هل أصبحتُ مجنونة؟ لكني أشعر أن رأسي بارد في هذه اللحظة، ويديّ ثقيلتان، ونديّتان.

الثلاثاء ١ مايو ١٩٤٥، الساعة الثالثة،

نظرة على أحداث السبت، الأحد، الاثنَيْن.

صباح السبت، الثامن والعشرون من أبريل، كان آخر ما كتبتُ. مضت ثلاثة أيام منذ ذلك اليوم، أيام مليئة حتّى حافتها بأشياء رائعة، ضغط، خوف، تشويق؛ بحيث إني لا أعرف من أين يجب أن أبدأ. نحن ننغمس في الوحل حتّى أعناقنا. كل دقيقة نعيشها، ندفع ثمنها باهظاً. تحوم حولنا العاصفة. أوراق متشابكة تتحرّك في زوبعة، ولا نعرف إلى أين ستحملنا.

مرّ دهر منذ السبت. اليوم هو الثلاثاء الأول من مايو، والحرب ما تزال مستمرّة. طويتُ نفسي في كرسي بذراعَيْن في غرفة الجلوس. أمامي على السرير، يستلقي هير پاولي، المستأجر من الباطن، أرسل - الآن - إلى المنزل من قِبَل الفولكسشتورم. من بعد ظهر السبت، أظهر على حين غرّة كتلة من حوالي ستة عشر رطلاً من الزبد، كان يلفّها في قطعة قماش تحت ذراعه. الآن هو مريض، يشكو من ألم عصبي.

الريح تعصف من خلال النوافذ المكسورة، وتُبعثر قطع الورق المقوّى التي أغلقناها بها. نفذ مضطرباً ضوء النهار إلى الداخل. الآن ضوء في الغرفة، وبعد ذلك، الظلام من جديد، لكنْ؛ لا يزال البرد قارساً. غطّيتُ نفسي، بلحاف صوفي، وكتبتُ بأصابع خدرة. هير پاولي نائم، والأرملة تجول في المنزل بحثاً عن شموع.

من الخارج، نسمع أصوات الروسيين. إيڤان يتحدّث مع أحصنته. مع

الأحصنة هم أكثر لطفاً ممّا كانوا معنا، مع الحيوانات يتحدّثون بأصوات حسنة، دافئة، يتحدّثون معها، كما لو أنها بشر مثلهم. وبين الحين والآخر، تهبّ موجة من رائحة الأحصنة إلى الداخل. رنين سلاسل. وفي مكان ما يعزف أحدهم على الهارمونيكا.

نظرة سريعة من بين قطع الورق المقوّى. معسكر في الأسفل. على الرصيف أحصنة، عربات، دلاء ماء، أكياس من التبن والشوفان، سماد حيوانات مُداس، وروث البقر. في مدخل الباب - على الجانب الآخر - أشعلوا النار، وحرقوا فيها كراسٍ مكسورة. الإيڤان يجلسون حولها، وهم يرتدون معاطف قصيرة مبطّنة.

يدي ترجف حول قلمي الحبر. قدماي متجمّدتان. البارحة حطّمتْ قنبلة ألمانية آخر زجاج لنوافذنا. استسلمتْ - الآن - الشقّة بأكملها للرياح الشمالية. حسناً، هذا الشهر ليس يناير.

بين الجدران المثقوبة نركض جيئة وذهاباً، نُنصتُ - بخوف - إلى الضجيج في الخارج، ومع كل صوت، تصطكّ الأسنان على بعضها. الباب الخلفي المكسور، لم نقفله منذ وقت طويل، مفتوح للجميع. غالباً ما يركض بعض الرجال في المطبخ، في المدخل، وفي كلتا الغرفتَيْن. منذ نصف ساعة، دخل رجل غريب تماماً، عنيد، وكان مُطارداً. صرخ مهدّداً: «سوف أعود».

ما هو الاغتصاب؟ عندما قلتُ الكلمة في مساء الجمعة لأول مرّة بصوتٍ عالٍ، سَرَتْ قشعريرة على طول ظهري. الآن أستطيع التفكير بالفعل، والكتابة بيد هادئة. قلتُ ذلك لنفسي؛ كي أعتاد على تردّد الصوت. كان يبدو، وكأنه الصوت الأخير، الأقصى، نهاية كل شيء، لكن هذا غير صحيح.

ما بعد ظهر السبت، حوالي الساعة الثالثة، ضرب رجلان بقبضتَيْهما وأسلحتهما الباب الأمامي، صرخا، وركلا الباب. الأرملة فتحت الباب. في كل مرّة، ترتعش خوفاً من أن قفلها سوف ينكسر. رأسان أشيبان تدحرجا إلى

الداخل، كانا ثملَيْن. كسرا بأسلحتهما آخر نافذة زجاجية في الممر. الزجاج كان يرنّ على أرضية المدخل. وبعد ذلك، انتزعا ستارة التعتيم، ومزّقاها إلى خِرَق، وركلا ساعة الجدّ.

أحدهما أمسكني، دفعني إلى غرفة الجلوس بعد أن لَكَمَ الأرملة؛ لتبتعد عن طريقه. الآخر أخذ على عاتقه الوقوف عند الباب الأمامي، قمع الأرملة بمسدّسه دون أن يقول كلمة، أو يلمسها.

الذي أمسكني كان رجلاً مسنّاً، ولديه لحية خفيفة بيضاء، تفوح منه رائحة الكحول والأحصنة. أغلق الباب خلفه، بحذر، وسحب الكرسي، كما لو أنه لم يرَ القفل، ووضعه خلف الباب. يبدو أنه لا يريد أن يرى ضحيّته أحد. فزعتُ من الأسوأ عندما قذفني - فجأة - على السرير. أغلقتُ عينَيّ، أطبقتُ أسناني فوق بعضها، ولم أتفوّه بكلمة واحدة. فقط عندما تمزّق لباسي الداخلي، صكّت أسناني، بشكل لا إرادي. آخر طقم ملابس داخلية جيدة لديّ.

شعرتُ بأصابع نتنة على فمي، تفوح منها رائحة الأحصنة والتبغ. فتحتُ عينيّ. اليدان الغريبتان أبعدتا - بمهارة - فكّيَّ عن بعضهما. تلاقت عينانا. بعد ذلك، ترك الرجل فوقي متعمّداً لعابه المتجمّع في فمه، يسيل في فمي...

شلل. لم أخف، مجرّد شعور بارد. عمودي الفقري يبدو أنه قد تجمّد، دوخة باردة كالثلج في مؤخّرة رأسي. شعرتُ بنفسي، كما لو أني قد تزحلقتُ، وسقطتُ عميقاً بين الوسائد والأرضية. هكذا هو - إذنْ - شعور ... مَن تنشقّ الأرض، وتبلعه.

تلاقت عينانا مرّة أخرى. ابتعدت الشفتان الغريبتان عن بعضهما، رأيتُ أسناناً صفراء، سنّ أمامي مكسور نصفه. انحنت زاويتا فمه إلى الأعلى، ظهرت تجاعيد صغيرة حول فتحة عينيه. ابتسم الرجل.

قبل أن يذهب، التقط شيئاً من جيب بنطلونه، وألقى به دون أن يقول كلمة على طاولة السرير. دفع الكرسي بعيداً، وأغلق الباب خلفه. اتّضح أن ما تركه خلفه هو علبة پَيروسه(*) مجعّدة. أُجرتي.

عندما وقفتُ، شعرتُ بدوار، وأردتُ أن أتقيّأ. سقط لباسي الداخلي الممزّق حول قدمي. ترنّحتُ في المدخل، بالقرب من الأرملة الحزينة، إلى الحمّام. تقيّأتُ هناك. في المرآة، رأيتُ وجهي الأخضر، وفي المغسلة، رأيتُ ما تقيّأته. لم أجرؤ على شطفه عن المغسلة، بقيت أتقيأ، وليس لدينا سوى القليل جداً من الماء.

عندها قلتُ لنفسي، بصوتٍ عالٍ: «اللعنة!» واتخذتُ قراراً.

بكل وضوح: يجب أن أقبض على ذئب؛ ليُبقي الذئاب الأخرى بعيدة عن جسدي. ضابط. أعلى رتبة ممكنة. قائد، جنرال، ما يمكنني أن أحصل عليه. بماذا ينفعني - إذنْ - عقلي ومعرفتي البسيطة بلغة عدوّي؟

سرعان ما استطعتُ المشي من جديد، أخذتُ الدلو، وخرجتُ إلى الشارع. تسكّعتُ هنا وهناك، كنتُ أنظر إلى الأفنية، آخذ قسطاً من الراحة بين الحين والآخر، عدتُ - مرّة أخرى - إلى المنزل، وسجّلتُ كل شيء، رأتْه عيناي. في عقلي، صغتُ جملاً، سوف أتحدّث بها مع الضابط. سألتُ نفسي إن كنتُ أبدو خضراء جداً، ومنهكة جداً، على نيل الإعجاب. أشعر أني أفضل كثيراً - الآن - للقيام بشيء جديد، شيء قد خُطّط له، شيء عنيف، لن أكون ضحية صامتة بعد الآن.

طوال نصف ساعة، لا شيء، أقصد أن أقول، لا نجوم. ليس لديّ معرفة بالرُّتب والفروقات بينها، أعرف أفقط - أن الضابط لديه نجوم على طاقيته، ويرتدي معطفاً. لكني رأيتُ - فقط - الرُّتب الأدنى. بالضبط، في اللحظة التي أردتُ فيها التخلي عن الفكرة، دقّ أحدهم على الباب الأمامي لشقّة الأرملة،

---

*) پَيروسه: ماركة سجائر روسية معروفة.

عندها - فجأة - انفتح باب الشقّة على الجانب الآخر. رجل مع نجوم. طويل وشعره مجعّد أسود، الطاقية مثبتة في عنقه، خجول، يبدو بصحة جيدة. عندما رآني مع الدلو، ضحك، وقال بألمانية مكسّرة: «أنتِ ... يا سيدة؟» ضحكتُ له، واجتحتُه بروسيتي الأفضل. كان سعيداً بسماع لغته. تحدّثنا قليلاً، تبادلنا النكات مراراً وتكراراً، واكتشفتُ أنه ملازم أول. حدّدنا موعداً - أيضاً - في المساء، الساعة السابعة، في شقّة الأرملة.

حتّى ذلك الوقت كان لديه واجب. اسمه أناتول فلان الفلاني، من أوكرانيا.

«هل ستأتي حقاً؟»

قال بلوم: «بالطبع، وبأسرع ما يمكن». لكنْ؛ قبل كل شيء، ظهر إلى السطح في الساعة الخامسة - تقريباً - شخص آخر، بيتكا من الليلة الماضية. بيتكا مع شعره الخشن، وتلعثم الروميو، جاء ومعه اثنان من رفاقه، عَرّفنا عليهم على أنهما گريشا وياشا. جلسوا بسرعة حول مائدتنا المستديرة، في البداية، كانا خجولَيْن بعض الشيء، مثل شباب مَدعوّين من قِبَل أسرة «فاضلة». بيتكا وحده تصرّف، كما لو أنه - هنا - في منزله، تباهى بي أمام رفاقه مع فخر واضح في التملّك. الرجال الثلاثة استلقوا - بلا خجل - على كراسيهم، شعروا بأنهم على ما يرام. ياشا وضع زجاجة فودكا على الطاولة، گريشا أخرج القليل من السمك المملّح والخبز من ورقة، يغطّيها الدهن من صحيفة براڤدا (الصفحة الأمامية، إصدار قديم، مع الأسف). مع استحضار جوّ رب المنزل، صاح طالباً الكؤوس. سكب الشراب فيها، ضرب بقبضته على الطاولة، وأمر: «ڤيبيت نادا ... آد فوندم!» (من الضروري أن نشرب ... رأس مال الجحيم!).

الأرملة وأنا - فضلاً عن القادم منذ نصف ساعة هير پاولي - يجب أن نجلس معهم إلى الطاولة، مع شرابهم. وضع بيتكا أمام كل واحد منا قطعة من

الخبز الأسمر الرطب، قطّع السمك المملّح على خشب الطاولة الماهوغاني المصقول، وضغط الشريحة بإبهامه على خبزنا. بوجه مشرق، كما لو أن هذه كانت فضلاً وكياسة.

الأرملة ارتعبتْ قليلاً، وركضتْ؛ لتجلب الأطباق. گريشا كان هادئاً، مع ابتسامة دائمة على شفتَيْه. لديه صوت أجشّ عميق، وحرص على أن يوزّع السمك المملّح والخبز بالتساوي بيننا. الصغير ياشا يبتسم، ويهزّ رأسه الحليق في الاتجاهات كلها. كلاهما من خاركيف. بدأنا جميعاً في الحديث تدريجياً، بينما أنا أقوم بدور المترجمة. شربنا بصحة بعضنا. السيبيري هدر من السعادة.

بقيتُ أنصتُ إلى الأصوات على الجهة الأخرى من الباب، وأنا أنظر إلى الساعة النسائية حول معصم يوشا. أناتول، الملازم، يمكن أن يأتي في أي لحظة. أنا خائفة؛ لأن ذلك يمكن أن يسبّب مشكلة. لقد اتّخذتُ قراري. ربّما پيتكا قويّ جداً مثل ثور، ولكنه بدائي جداً، ورتبته منخفضة جداً حتّى يقدّم الكثير من الحماية لنا. الملازم الأول - من جهة أخرى - أصبح السلطة المنقّذة الوحيدة المحترمة. قراري حاسم، سوف ألفّق شيئاً ما عندما يحين الوقت المناسب. أرى نفسي - مرّة أخرى - من مسافة بعيدة، كما لو أني وقفتُ على مسرح، لأداء دور ما. لم أبتعد هذه المسافة عن نفسي من قبل، أنفصل عن نفسي هكذا: يبدو أن كل شعور لديّ قد مات. إرادة العيش وحدها ظلّت حيّة. لن يحطّموني.

في غضون ذلك، قال گريشا إنه محاسب. هير پاولي أيضاً، موظّف المبيعات في شركة صناعية، أقسم على أنه محاسب. گريشا وهير پاولي كلاهما في حالة سُكْر. حضنوا بعضهم وصرخوا: «أنا محاسب، أنت محاسب، كلانا محاسب!» القبلة الأخوية الروسية - الألمانية الأولى كانت على خد پاولي. بسرعة، كان هير پاولي في حالة سُكر شديد، ودعانا مبتهجاً: «كم هم رائعون هؤلاء الروس، مليئون بالقوة والنشاط!».

وضعنا كؤوسنا من جديد على مكتب المحاسبة الدولي. حتّى الأرملة نفسها أصبحت - الآن - سعيدة، ونسيت - لبعض الوقت - أن على طاولتها المصقولة قد نشروا السمك المملّح إلى شرائح. (لم يهتم أي أحد منهم بالأطباق). أنا أشرب باعتدال، أُبدل - بهدوء - بكأسي الممتلئ آخر نصفه فارغ. أريد أن أحافظ على ذهني يقظاً لوقت لاحق. فرحنا له صبغة مرضية، خاصة بالنسبة لنا أنا والأرملة. نريد أن ننسى ما حدث قبل ثلاث ساعات.

الشمس تغرب في الخارج. ياشا وپيتكا يغنيان أغنية حزينة. گريشا هدر قليلاً معهما. هير پاولي في حالة سُكْر شديدة. هذا كثير جداً عليه، عندما استيقظ باكراً هذا الصباح، كرجل كان يخدم في الفولكسشتورم، ويتعرّض إلى خطر مميت، إلى رجل مُدرِك جداً لعدم وجود أسلحة، وانتهى الأمر بإرساله إلى المنزل. هير پاولي تجشّأ قليلاً، سقط على وجهه، وتقيأ على السجّادة. في لحظة، نُقل من قِبَل الأرملة وشريكه المحاسب إلى الحمّام. الآخرون هزّوا الرأس بتعاطف ... عندئذ ذهب هير پاولي إلى الفراش بقية المساء في غرفته؛ حيث يستلقي الآن. عاجز. يبدو أن عقله الباطن كان يريد هذا العجز. روحه مصابة بمرض عصبي. ومع ذلك وجوده الذكوري على الخلفية ما يزال يعمل عمل الكابح. الأرملة أكدت له أنها تثق به وبتصريحاته الاستثنائية عن الوضع العالمي، ودلّكت ظهره وكتفَيْه.

حلّ الظلام في الخارج. الجبهة تهدر من بعيد. أشعلنا الشموع التي حصلتْ عليها الأرملة، وذابتْ بسرعة في الطبق. دائرة ضوء ضعيفة على الطاولة المستديرة. الجنود جاؤوا، وذهبوا، لقد أصبح المساء مزدحماً. يطرقون الباب الأمامي، ويدفعون بعضهم إلى المطبخ. لسنا خائفين، طالما پيتكا، گريشا وياشا معنا، يجلسون إلى الطاولة، لن يحدث لنا شيء.

فجأة ظهر أناتول في الغرفة، ملأ المكان بحضوره الرجولي. خلفه يقف جندي، ومعه قصعة معدنية مليئة بالجِنْ، وقرص من الخبز الأسمر تحت ذراعه. الرجال كلهم تغذيتهم جيدة، أقوياء وأصحاء، في زي رسمي نظيف،

عملي وصارم. يتحرّكون بسهولة وثقة بالنفس. يبصقون على الأرض، يرمون أعقاب سجائرهم في كل مكان، ويمسحون عظام السمك المملّح من الطاولة؛ لتقع على السجّادة، ويهبطون بثقلهم على الكراسي العريضة.

قال أناتول إن الجبهة قد وصلت - الآن - إلى قناة لاندڤر، ما جعلني أفكّر بتلك الأغنية الحمقاء: «هناك جثّة في قناة لاندڤر...» هناك الكثير من الجثث الآن. أقسم أناتول على أن ١٣٠ جنرالاً ألمانياً قد استسلموا في الأيام الأخيرة. سحب خريطة برلين من ملف سيلوفان، وسمح لنا برؤية مواقع الجبهة. الخريطة كانت مفصّلة جداً، ومطبوعة باللغة الروسية. شعور غريب عندما، وبطلب منه، أشرتُ له على منزلنا في الخريطة.

إذنْ: السبت ٢٨ أبريل، الجبهة عند قناة لاندڤر.

الآن، وأنا أكتب هذا، اليوم هو الثلاثاء ١ مايو. هناك المزيد من إطلاق النار. الطائرات الروسية تهتزّ فوق رؤوسنا. أمام المدرسة، يقف صف طويل من أورج ستالين، الروس وهبوه الاسم الجميل «كاتيوشا»، وتغنّوا به في نشيد عسكري مشهور. بكاء الكاتيوشا مثل عواء الذئاب. لا تبدو مؤثّرة جداً، تشبه قضبان مستقيمة من أنابيب رفيعة. لكنْ؛ عندما نقف بالقرب منها في صفّ، من أجل الماء، تبكي، وتصرخ بقوّة، لدرجة أنها تثقب طبلة أذنكَ تقريباً. يتقيّأنّ حزماً من اللهيب في وقت واحد.

تحت بكاء الكاتيوشا، كنتُ أقف اليوم صباحاً في صفّ من أجل الماء. كانت السماء ملبّدة بغيوم، لونها أحمر داكن. يتصاعد البخار والدخان من وسط المدينة. نقص المياه دفعنا للخروج من حُفرنا. مواطنون بائسون قذرون زحفوا من كل مكان. النساء وجوههنّ كئيبة، وأغلبهنّ كبيرات في السّنّ؛ لأن الشابّات يخفينَ أنفسهنّ. الرجال بلِحى خفيفة، مربوط أعلى أذرعهم بشرائط الاستسلام البيضاء. يقفون هناك، وينظرون كيف يملأ الجنود الدلاء بالماء دلواً بعد دلو، من أجل أحصنتهم؛ لأن الجنود لديهم الأولوية - دائماً - عند

المضخّة، بطبيعة الحال. هذا لا يدعو إلى أي صراع، بل على العكس: عندما انكسر كرنك المضخّة على يد أحد المواطنين، أعاد تثبيته روسي، بدقّ مسمار طويل.

في كل مكان من الحدائق العامة، هناك خيم تحت الأشجار المزهرة. هناك المدفعية الثقيلة التي اعتلت احواض الزهور. أمام الحدائق المنزلية يضطجع الروس للنوم. آخرون يسقون الخيول التي تسكن المنازل. رأينا مندهشين الكثير من النساء في الزي العسكري، يرتدينَ قميص جندي، تنّورة وقبّعة مع شارة، قوّات نظامية، على ما يبدو. أغلبهنّ لا تزلن شابّات جداً، صغيرات الحجم، وقويات، شعرهنّ ممشّط إلى الخلف، بكل عناية. كانوا يغسلون ملابسهم الداخلية في أحواض. الفانيلات والقمصان ترفرف على حبال، شُدّت بسرعة. ومع هذا كله، تبكي الكاتيوشا، والسماء تختبئ خلف جدار من الدخان الأسود.

هكذا كان الحال البارحة، واليوم أيضاً. اليوم صادفتُ في طريق عودتي هير گر، الذي ظلّ عضو الحزب المخلص حتّى النهاية. لقد تكيّف الآن. ربت على أشرطة السيلوفان الملفوفة فوق جيب صدر روسي عَبرَ من أمامه: «للزينة؟» (الكلمة لها المعنى نفسه، بالروسية والألمانية، لم أخبره بأني أعرف القليل من الروسية). أعطاني قاموساً عسكرياً صغيراً، ألماني - روسي. قال إن بإمكانه الحصول على المزيد منه. لقد درستُه من قبل. فيه عدد من الكلمات المفيدة جداً، والمجهولة، بالنسبة لي، مثل: لحم خنزير مملّح، طحين، ملح. الكلمات المهمة الأخرى مثل: «رعب» و«قبو» غير موجودة فيه. أيضاً كلمة «موت» التي لم أكن بحاجة لها في أثناء رحلتي إلى روسيا، أحتاجها - الآن دائماً - في المحادثة. أبدلتُها الكلمة المفهومة جداً kaputte التي تصلح لحالات كثيرة أخرى. بدلاً عن ذلك، يحتوي القاموس على مصطلحات، لا يمكن الاستفادة منها مع أطيب التمنيات للعالم، مثل: «ارفع يديْك إلى الأعلى» و«انتباه!». في أحسن الأحوال، هي كلمات، تُستخدم ضدّنا.

الآن أعود إلى مساء السبت ٢٨ أبريل مرّة أخرى. في حوالي الساعة الثامنة، غادر بيتكا ورفاقه. بيتكا هدر بشيء عن العودة بسرعة، لكن الملازم الأول لم يسمعه. وقبض على أصابعي بشدّة، وحاول أن ينظر في عينيّ.

لاحظتُ مستغربة أن نجوم الضباط ليس لها أي تأثير يُذكَر على الرجال. كنتُ حائرة. رتبة أناتول لم تعق البهجة على الأقل. ما يخصّ أناتول نفسه، لقد انضم إلى المجموعة، وجلس معهم، يضحك ويتحدّث مع الجميع، وظل يملأ كؤوس الفودكا من قصعته الخاصة. بدأتُ أقلق بشأن حمايتي. التسلسل الهرمي العسكري البروسي الموثوق به - بالنسبة لنا - من الواضح أنه لا ينطبق عليهم. الضباط الروس لم يأتوا من طبقة اجتماعية مميّزة، المنشأ والتنمية لا يعلوان بأهمّيّتهما على رجالهم. ليس لديهم ميثاق شرف خاص، أو حتّى موقف تجاه النساء. تقاليد الشهامة والمجاملة الغربية لم تصل إلى روسيا. كانوا هناك - بقدر معرفتي - بلا بطولات، بلا أغاني حب، بلا تروبادور(*)، بلا خدم يعتنون بكل شيء. من أين ستأتي الشهامة، إذنْ؟! هؤلاء كلهم أبناء فلاحين. حتّى أناتول. رغم أنني لا أعرف ما يكفي من اللغة الروسية عن بيئة شخص ما، تربيته وطريقة حديثه، من خلال اختياره للكلمات؛ لأكون قادرة على الاستنتاج، أيضاً لم أجد أحداً أتحدّث معه عن الأدب والفن حتّى الآن. لكني أشعر أن هؤلاء الشباب - بفضل أدائهم الصاخب في حضوري - لم يكونوا واثقين من أنفسهم، إن هؤلاء الرجال البسطاء الواضحين هم أطفال من القرية.

على أي حال، أناتول - على الأقل - أصيل من ٩٠ كغم، مثال للرجولة. ربّما وزنه يبقى مؤثراً حتّى لو سقطت نجومه. قراري لم يتغيّر، على أي حال.

أناتول يسحب كنجم مذنب ذنباً من الشباب خلفه، جنود صبيانيون وجدوا لهم مأوى في شقّة الأخوات - البودنغ الأسود - الثلاثة. أحدهم كان لا يزال طفلاً. وجهه صغير، ونظرته جادّة، ومركّزة في عينَيْه السوداوَيْن. ڤانيا،

---

*) تروبادور (troubadours): ما يُطلق على الشاعر، أو الموسيقي المتجوّل، في القرون الوسطى.

وعمره ستة عشر عاماً. الأرملة أخذتني على جنب وهمستْ بأن هذا الصبي - ربّما - يكون هو الذي كان البارحة عند الدرج. كان جلده - أيضاً - طرياً وناعماً، ومثل هذا الجسد النحيل. ڤانيا - مع ذلك - لم يبدُ على ملامحه شيء، يشير إلى تعرّفه عليها، ربّما لا يمكن ذلك؛ لأن المرأة التي استولى عليها بطريقته الخرقاء شعر بها، لكنه لم يرها. ورغم ذلك، أظنّ أنه يعرف مَن هي؛ لأنه قد سمع صوتها أيضاً. الأرملة أخبرتني كيف أنها بكت، وتوسّلت به. على أي حال، ڤانيا تبع الأرملة مثل كلب، حمل كؤوساً نظيفة، وغسل ما استُخدم منها في المغسلة.

شربتُ كثيراً تلك الليلة، أرغب بالكثير من الشراب، أردتُ أن أسكر، ونجحتُ في ذلك. وبالتالي حدث نقص في ذاكرتي. أناتول وجدتُه إلى جانبي، أسلحته وملابسه مبعثرة في كل مكان... تلك الأزرار والجيوب كلها، وما يضعه فيها ... بلطف، بسرّيّة، وطفولية ... لكن الولادة في مايو، برج الثور ... شعرتُ بنفسي مثل دمية، أهتز جيئة وذهاباً، بلا مرونة ... على حين غرّة، ظهر شخص في الغرفة المظلمة، وأضاء مصباحاً يدوياً. صرخ أناتول بوجه المتطفّل، هدّده بقبضتَيْه، واختفى الآخر ... أم أني كنتُ أحلم؟

في ضوء الصباح، رأيتُ أناتول يقف عند النافذة، وينظر إلى الخارج، بينما يضرب ورقَ الجدران وميضٌ أحمر وأصفر. سمعتُ بكاء الكاتيوشا عندما مدّ أناتول ذراعَيْه فوق رأسه، وقال: «پيتوخ پايوت» صاح الديك. وبالفعل سمعتُ بين رشقتَيْن ناريَّتَيْن صياح الديك.

سرعان ما ذهب أناتول. نهضتُ، غسلتُ نفسي في الحمّام بالبقية البائسة من الماء، نظّفتُ الطاولة، أزلتُ أعقاب السجائر، عظام السمك المملّح، وسماد الأحصنة، لففتُ السجّادة، ورأيتُ فرصة أن أُخفيها فوق الخزانة. نظرتُ في الغرفة المجاورة؛ حيث الأرملة أعدّت لنفسها فراشاً على الأريكة تحت حماية هير پاولي. كلاهما يشخر. الريح الباردة تسلّلت من بين

قطع الكارتون على النوافذ. شعرتُ بحيوية وراحة بعد خمس ساعات من النوم العميق. وخز في رأسي، لكنْ؛ غير مهم. نجونا ليلة أخرى.

كنتُ أحسب أن اليوم هو الأحد، ٢٩ أبريل. لكن الأحد كلمة مَدَنية لا معنى لها الآن. الجبهة لا تعرف الأحد، كل شيء ...، لا، لا أريد أن أكتب هذا، هناك ما يكفي من القذارة في هذه المذكّرات.

عودة إلى الأحد ٢٩ أبريل ١٩٤٥.

الصباح كان مُتخماً بدويّ إطلاقات نارية منذ وقت مبكّر. في الأسفل، تسير شاحنات جيئة وذهاباً. صراخ، صهيل، جلجلة سلاسل. المطبخ الميداني أرسل دخانه من خلال نافذة المطبخ المحطّم زجاجها. موقدنا يحرق خشب الصناديق والألواح الخشبية، يدخّن بشكل سيئ، لذلك تدمع عيوننا. من خلال الدخان، سألتني الأرملة: «قولي لي، أ لستِ خائفة حقاً؟»

«ماذا؟ من الرجال؟»

«نعم، بالتأكيد. أعني أناتول. مثل هذا الثور المعلوف جيداً. ماذا لو ...؟!»

«أوه، هو يأكل من يدي»

«وقد تحملين منه طفلاً» قالت الأرملة، وهي تحرّك الجمرات في النار.

بالضبط. الآن فهمتُ. نعم، من الممكن أن يحدث هذا لنا كلنا. حتّى هذه اللحظة، لم أقلق بهذا الشأن. ولماذا يجب أن أقلق؟ حاولتُ أن أشرح للأرملة. هناك مقولة سمعتُها ذات مرّة: «على درب المارة، لا ينبت العشب». وعندما أقسمت الأرملة أن هذه المقولة لا تصحّ هنا، قلتُ: «لا أعلم لماذا، لكنْ؛ لديّ فكرة ثابتة، بأن هذا لن يحدث معي، كما لو أني تحدّثتُ بذلك مع جسدي، أن يُغلَق بإحكام، أن يعيق حدوث أي شيء ضد رغبتي».

لم يُقنع هذا الكلام الأرملة أيضاً. زوجها كان صيدلياً، وهي تعرف كل

شيء عن عمله. قالت بأنها - مع الأسف - لا تحتفظ في صيدلية المنزل بشيء لمثل هذه الحالات، شيء يمكنني أن أحمي نفسي به. «وماذا عنكِ؟» سألتُها بدوري.

عندها مشتْ - بجدّيّة - إلى حقيبة يدها التي تضعها على خزانة المطبخ، التقطتْ هويّتها الشخصية، وقدّمتْها لي؛ حيث أشارت بخجل على تاريخ ميلادها، كما لو أنها تعرّت أمامي. اتّضح أنها - في هذه السنة - قد أصبح عمرها خمسين عاماً. قدّرتُ لها عمراً أصغر باثني عشر عاماً، على الأقل. «ليس عليّ أن أقلق بهذا الشأن، على أي حال»، قالت. وأضافت: «هذا كل شيء. الآن علينا أن نفكّر إلى أين سوف نذهب في حال حدث الأمر بالفعل» لايزال لديها علاقات، من خلال زوجها المتوفي، أكّدتْ لي ذلك. «لا تقلقي، سأجد حلاً، يجعلكِ تفقدينه، حقاً». أومأتْ مقرّرة ذلك، بينما تسكب الماء المغلي - أخيراً - على قهوة الشعير. أقف، وأنظر بمَلَل إلى يدي على بطني. لا أزال على قناعتي، أن بإمكاني - ببساطة - تفادي هذه الكارثة، بعدم الرغبة في حدوثها.

الغريب، أن أول شيء يسألونه - دائماً - هو: «هل لديكِ زوج؟» ماذا سيكون الجواب الأكثر فاعلية؟ إذا كان الجواب لا يُسيل لعابهم فوراً. وإذا كان الجواب نعم، على أمل أن يتركوك بسلام، يتواصل الاستجواب: أين هو؟ هل أُلقي القبض عليه في معركة ستالينگراد؟ (الكثير من هؤلاء الرجال قاتلوا في معركة ستالينگراد، ويرتدون ميداليات خاصة لمشاركتهم فيها). إذا كان لديك رجل، يمكنكِ إظهاره (كما فعلت الأرملة مع هير پاولي، رغم أنه مجرّد مستأجر عندها). في البداية سوف يعودون خطوة إلى الوراء. ليس لأنهم مهتمّون بمَن سيظهر لهم، هم ليس لديهم أيّ اعتراض على النساء المتزوّجات، لكنهم يفضّلون أن يبقى الزوج بعيداً، لهذا يحاولون إيجاد حجّة لإبعادهم، أو حبسهم. ليس خوفاً منهم. لقد لاحظوا - هنا - أن الزوج لا ينفجر غاضباً. لكنه يزعجهم طالما لم يثملوا - تماماً - بعد.

علاوة على ذلك، سوف لن أعرف كيف يجب أن أجيب زوجي عن هذا السؤال، حتّى لو أردتُ أن أكون صادقة. لو لم تنشب الحرب، لكنا أنا وگيرد متزوّجين منذ فترة طويلة. لكنْ؛ عندما استُدعي للخدمة العسكرية، انتهى الأمر، لم يعد يريد الزواج. «نجلب أيتام الحرب إلى العالم؟ لا، لا نقاش في هذا الموضوع، أنا كنتُ واحداً منهم، وأعلم ماذا يعني اليُتم». وهكذا ظل الحال حتّى اليوم. بفضل هذا، نشعر أننا مرتبطَيْن ببعضنا جداً، كزوجَيْن شرعيَّيْن. ماعدا أني - منذ تسعة أسابيع - لم أسمع عنه أي شيء، آخر رسالة منه، جاءت من الجدار الغربي(*). بالكاد، أتذكّر ملامحه. الصور كلها فقدتُها في القصف، والصورة الوحيدة التي بقيتْ في حقيبتي اليدوية، تخلّصتُ منها بنفسي، بسبب زيّه العسكري. رغم أنه مجرّد ضابط صفّ، إلا أني كنتُ خائفة. الجميع - هنا في المنزل - تخلّصوا من كل شيء، له علاقة بالجيش خوفاً من أن يستفزّ هذا الروس. والجميع أحرقوا الكُتُب التي وفّرت لنا - على الأقل - الدفء والحساء، بينما تحترق، وتتحوّل إلى دخان.

سرعان ما تناولنا قهوة الشعير والخبز المنهوب حتّى ظهرت حاشية أناتول. يبدو أننا - بالنسبة لهم - مثل مطعم نوعاً ما، مع أنهم - أي الضيوف - هم مَن يُحضرون طعامهم معهم. هذه المرّة، كان معهم رجل أنيق، أفضل مَن وجدتُ بينهم حتّى الآن. جمجمة صغيرة، عيناه لونهما أزرق صافٍ، شاب هادئ وذكي. أول حديث لي معه كان عن السياسة. لا يبدو الأمر صعباً، كما يبدو؛ لأن الكلمات كلها التي لها علاقة بالسياسة والاقتصاد في اللغة الروسية مُستعارَة من لغات أخرى، وتشبه مثيلتها في الألمانية. أندريه ماركسي أرثوذكسي. لا يضع اللوم في الحرب على هتلر وحده، لكنْ؛ على الرأسمالية التي تسبّب في حدوثها هتلر، وأرست قواعدها مخازن السلاح.

---

*) الجدار الغربي (westwall): هو المصطلح الألماني الذي استُخدم في الحرب العالمية الثانية، للإشارة إلى خطّ سيجفريد الذي أنشأه الألمان، كجزء من خطّ هايدينبرك بين عامَي ١٩١٦ و١٩١٧ في الحرب العالمية الأولى، وأُعيد إنشاؤه وتجهيزه عام ١٩٣٠ لاستخدامه في الحرب العالمية الثانية مقابل خطّ ماجينو الفرنسي. حدثت حوله أهمّ معركتَيْن قبل سقوط ألمانيا، وهما معركة هيرتنغموالد ومعركة الثغرة.

هو يظن أن الاقتصاد الروسي والألماني يُكمّل كل منهما الآخر، وأن ألمانيا بُنيت وفق أسس اشتراكية، لذا؛ تُعدّ روسيا شريكاً طبيعياً لها. في الحديث مع أندريه، بصرف النظر عن الموضوع، لم أكن متمكّنة ولبقة مثله. مجرّد أن روسيّاً عاملني كمحاورة مساوية له أخيراً، ويداه بعيدتان عنّي (وحتّى عيناه). ولم يرني - فقط - كجسد امرأة، مثلما يراني كل الآخرون حتّى الآن.

في غرفتنا وطوال صباح يوم الأحد، كان هناك قادمون وذاهبون باستمرار. جلس أندريه على الأريكة، وكتب تقريره. طالما هو موجود هنا، نشعر بأننا في أمان. حمل معه صحيفة عسكرية روسية. تمكّنت من تفكيك شفرة الأسماء المألوفة لأحياء مدينة برلين. ليس هناك الكثير من مدينتنا في قبضة الألمان.

لا تمضي ساعة دون أن نلاحظ أننا مستسلمون - تماماً - لرحمة العدوّ. عندما نكون وحدنا، نفزع عند سماع كل خطوة، عند كل صوت. كنتُ أجلس والأرملة حول سرير هير پاولي، بينما أنا أكتب هذا. لساعات، نجلس في هذه الغرفة المهوية الباردة كالثلج. الإيڤان تقبلنا بشكل جيد. حتّى لو صوّرت هذا حرفياً؛ لأن في بنايتنا لا يزال هناك عدد من العوائل غير المكتشفة، يقيمون منذ الجمعة في قبوهم، وفقط في الصباح الباكر، يرسلون مَن يجلب لهم الماء.

الرجال الألمان - كما أظن - أظهروا الجانب الأسوأ فيهم. يجب عليهم أن يشعروا بأنهم حتّى أقذر منا نحن النساء الملطّخات بالعار. في الصفّ عند المضخّة، قالت لي سيدة كيف صرخ زوجها في وجهها، عندما حاول الإيڤان سحبها بعيداً: «اذهبي معهم، هذه إرادة الله! أنت تعرّضيننا جميعاً للخطر!». هذه حاشية صغيرة في معركة برلين.

في كثير من الأحيان، أكره جلدي في تلك الأيام. لا أريد أن ألمس نفسي، ونادراً ما أنظر إلى نفسي. تذكّرتُ ما كانت تقوله لي أمي - دائماً - عن السنة الأولى من عمري. حسب قولها، كنتُ طفلة وردية بيضاء، فخر لقلب كل

والد ووالدة. وعندما أصبح أبي جندياً في ١٩١٦ ودّع أمي في المحطّة، وذكّرها بأن لا تنسى - أبداً - أن تضع على رأسي قبّعة الشمس، قبل أن نتعرّض أنا وهي لأشعّة الشمس. الموضة في تلك الأيام تُحتّم على بنات العوائل الراقية كلها أن تكون رقباتهنّ ووجوههنّ ناصعة البياض. ذلك الحب كله، تلك العناية كلها - مع قبّعة الشمس، ميزان حرارة لماء الاستحمام وصلاة المساء - من أجل كومة من القذارة، هذا ما أصبحتُ عليه أنا الآن.

والآن عودة إلى يوم الأحد. من الصعب تذكُّر كل شيء، كل شيء يمرّ، بسرعة. في الساعة العاشرة، كان مرتادونا كلهم مع بعضهم: أندريه، پيتكا، گريشا، ياشا، وحتّى الصغير ڤانيا، الذي يساعد في غسل الصحون في المطبخ. أكلوا، وشربوا، وتحدّثوا. في لحظة ما، قال ڤانيا لي - هكذا وبدون مقدمات، مع تعبير خطير للغاية على وجهه الطفولي - : «نحن البشر كلنا سيئون، أنا أيضاً، لقد فعلتُ أشياء سيئة».

ظهر أناتول مع فونوغراف، الله يعلم من أين جاء به. كان يتبعه رجلان مع أكوام من الأسطوانات. ثغاء وتدوير لا نهاية له لإبرة الفونوغراف، متعة طفولية. وأي أسطوانة شغلوها مراراً وتكراراً، دون ملل، عشرة مرّات بعد أن جرّبوا أغلب الأسطوانات، وشغلوها، مثل السمفونية التاسعة لبيتهوفن، أوبرا لونگرين، برامس فضلاً عن سمتانا؟ شَغّلوا أسطوانة لأغنية إعلان تجاري، مثل التي كنتَ تحصل عليها سابقاً عند محلات C & A في ساحة شپيتلماركت عندما تتسوّق حاجيات كثيرة: « Gehen Sie zum C & A, schöne Sachen gibt es da ...» (اذهبوا إلى C & A أشياء جميلة هناك ...) وإلخ، على إيقاع فوكستروت و مخزن الملابس الجاهزة كله يدندنّ معها. والإيڤان يدندنون معها، بمزاج ممتاز، لقد وجدوها رائعة.

مرّروا زجاجة المُسكِر من جديد. ظهرت نظرة الجشع في عينَي أناتول الذي عرفتُه الآن تدريجياً. أيضاً نجح في طرد المجموعة كلها إلى الخارج مع بعض الأعذار الواضحة؛ لأن الباب لا يمكن إغلاقه، وضع كرسياً بذراعَيْن خلفه.

كان عليّ أن أفكّر مراراً وتكراراً بما تحدّثنا به أنا والأرملة صباح اليوم. أشعر أني أصبحتُ متخشّبة مثل لوح، أُنصتُ بتركيز، وعيناي مغلقتان على «لا».

جرّ الكرسي إلى الأمام، عندما أرادت الأرملة السماح لها بالدخول مع طبق الحساء. في الوقت الذي كنا نجلس فيه إلى الطاولة، ظهر هير پاولي. نهض من فراش مرضه، مرتّباً ونظيفاً، حلق لحيته، وشذّب أظافره، وارتدى مبذلاً حريرياً. هذا الوقت كله كان أناتول يضطجع - بشكل عَرَضي - على السرير، وساقاه يتدلّيان إلى أسفل، وهو لا يزال يرتدي جزمته الطويلة، شعره المجعّد الأسود متشابك. ينام، وينام، ويتنفّس بلطف.

نام أناتول لثلاث ساعات مثل طفل معنا نحن الثلاثة فقط، أعداؤه. حتّى وهو نائم نشعر بأننا في أمان أكثر، من لو كنا وحدنا، إنه جدارنا. المسدّس كان في الحافظة على وركه، وهو نائم، غاطّ في نومه، ويشخر بقوّة. في الخارج الحرب مستمرّة، المدينة تدخّن، وصوت إطلاق نار.

الأرملة جلبت زجاجة بورغونيه التي ظفرت بها في ثكنة الشرطة، وسكبت لنا في أكواب القهوة تحسّباً من غزو الروس لمنزلنا. تحدّثنا بصوت خافت حتّى لا يستيقظ أناتول. جعلنا هذا مهذّبين ولطفاء مع بعضنا، نستمتع بساعات هادئة، نريد أن نعامل بعضنا بطيبة، وهذا يساعد في إيقاظ أرواحنا.

في حوالي الساعة الرابعة، استيقظ أناتول، واختفى على الفور، خرج على عجل من الغرفة لأداء واجباته كجندي. بعد عدّة لحظات، كان هناك طرق على الباب الأمامي. توقف قلبي للحظة، وكنا نرتجف من الخوف. الشكر لله، لم يكن سوى أندريه المتعلّم، وعيناه الزرقاوان الصافيان. تنفّسنا ملء رئاتنا، ونحن ننظر له، جذبتْه الأرملة من عنقه، وحضنتْه من الارتياح. ابتسم لنا.

لم أتحدّث معه هذه المرّة عن السياسة، لكنْ؛ عن الجنس البشري. أقسم أندريه أنه لا يوافق على «هذه الأشياء»، ونظر بخجل لي، وضّح أنه

يرى في المرأة صديقة، وليس جسداً. إنه رائع. عيناه تحدّق بعيداً، بينما هو يتحدّث، وهو مقتنع بصحة عقيدته.

أسأل نفسي - أحياناً - إن كانت معرفتي باللغة الروسية ميزة أم عيباً. من ناحية، منحتني الثقة التي يفتقدها الآخرون. ما يبدو - بالنسبة لهم - أصواتاً حيوانية، هو - بالنسبة لي - لغة بشرية، لغة الإيقاعات والثراء لبوشكين وتولستوي. رغم أني خائفة جداً (أفضل قليلاً منذ ظهور أناتول) أتحدّث معهم كإنسان، يتحدّث مع الآخر. أميّز بين الصفات السيئة والمقبولة، أراهم كأفراد، مكّنني ذلك من رسم تصوّر لذواتهم. وللمرّة الأولى، أدركتُ دوري كشاهدة على ما يحدث. ربّما يوجد هناك حفنة من الناس في هذه المدينة، يمكنهم الحديث معهم، الذين شاهدوا أشجارهم وقراهم، والفلاحين الذين يرتدون صنادل الرافيا، وبنوا مساكنهم الحديثة بسرعة، وهو ما يفخرون به كثيراً. والآن هم مثل نفاية مُلقاة تحت جزمات جنودهم تماماً مثلي. ومن ناحية أخرى، ربّما أسهل - بالنسبة لكثيرين آخرين - أنهم لا يفهمون أي كلمة من لغتهم؛ لأنهم يظلون غرباء، بالنسبة لهم، يمكنهم الحفاظ على مسافة آمنة، وإقناع أنفسهم أن هؤلاء الناس ليسوا ببشر، على الإطلاق، همجيون، وحوش. أنا لا أستطيع. أعرف أنهم كائنات بشرية مثلنا نحن، رغم أنهم - كما يبدو لي - على مستوى أدنى من التطور، أمّة فتية، أقرب إلى أصولهم منا نحن. أتصوّر أن الجرمانيين قد تصرّفوا بالطريقة نفسها تماماً عند غزوهم روما، وفوزهم بالسيدات الرومانيات المعطّرات، المتجمّلات، المعتنيات بأظافرهنّ وأقدامهنّ، واغتصابهنّ. ومن ثمّ؛ يعمل الغزو عمل الفلفل الذي يجعل طعم اللحم لاذعاً.

كانت الساعة حوالي السادسة عندما سمعنا - فجأة - صوت صراخ على الدرج. ضرب عنيف على بابنا: «نُهبَت الأقبية!» أندريه هزّ رأسه، وهو يجلس على أريكتنا. قال بأنه يعرف ذلك منذ بضع ساعات، ونصحنا بالنزول فوراً، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

القبو كان عبارة عن فوضى عارمة. الحواجز الخشبية كانت محطّمة، انتُزعت الأقفال من الأبواب، والحقائب كانت ممزّقة بالسكّين، ومُداسة تحت الأقدام. تعثّرنا فوق فوضى الآخرين، ندوس على الشراشف والأغطية التي لا تزال مَطوية بعناية. على ضوء شمعة، وصلنا إلى زاويتنا، وانتزعنا ما يمكننا الحصول عليه كله بسرعة، مناشف، ضلوع لحم الخنزير المقدّد، عدداً من الأحذية. الأرملة كانت تبكي، اختفت حقيبتها الكبيرة، وفيها أفضل ملابسها. أفرغتْ أول وأفضل حقيبة ممزّقة رأتْها، وملأتْها بما تبقّى لها من مقتنيات. جرفتْ بيدها الطحين من الأرض، ورمتْه بين ملابسها في الحقيبة، مثل المجنونة. الجيران على اليسار واليمين، يعبثون بأغراضهم على ضوء الشموع. تسمع في كل مكان صرخات حادّة ونحيباً. ريش الوسائد والأفرشة الممزّقة يطير في الهواء. والرائحة القوية النتنة للنبيذ المسكوب والطين ملأت المكان.

أخذنا أغراضنا إلى فوق. أندريه صُدم - على ما يبدو - من عمليات السلب والنهب. حاول التخفيف عنا، بقوله إن الأشياء - ربّما - تكون متّسخة فقط، ورُميت مع بعضها، لكنها لم تُسرَق. وهو مقتنع أن السارقين كانوا هناك، من أجل الكحول. ثانيا، الطفل، الذي حضر - أيضاً - وعد الأرملة، بكلمات نصفها روسي والآخر ألماني، بينما كان ينظر لها - بجدّيّة - بعينَيْه الغامقتَيْن، بأنه سوف يأتي معنا غداً إلى القبو، ويظل معنا حتّى نجد كل أغراضنا.

بدأت الأرملة بالبكاء، وتسمية أشياء مختلفة، مع بكاء متقطّع، كانت في حقيبتها: بذلتها المفضّلة، فستانها التريكو، زوج حذاء جديد للمشي. شعرتْ بالاكتئاب. أدركتْ - فجأة - كم نحن أذلاء، بلا حقوق، غنائم حرب، قذرون. تحوّل غضبنا كله على أدولف. لدينا أسئلة قلقة: أين الجبهة؟ متى يحلّ السلام؟

بينما نحن نهمس إلى جانب سرير هير پاولي، عقد أندريه مجلس حرب حول طاولة الخشب الماهوغني.

وعلى حين غرّة، فُتحت كل النوافذ: القطع الكارتونية طارت مُحدثة أزيزاً خلال الغرفة. الانفجار الهائل قذفني بعيداً على الجدار. صوت احتكاك قوي، سحابة من الغبار في الغرفة، وفي الخارج، انهار جدار بأكمله.

بعد نصف ساعة، سمعنا من الجيران أن قنبلة ألمانية سقطت على منزل مجاور لنا، جُرح عدد من الروس، وقُتل حصان. في صباح اليوم التالي، وجدنا في الأفنية: اللحم، وُضع بعناية - على حدة - على شراشف ملطّخة بالدماء، الأحشاء في دهنها بجانبه على أرض غارقة في الدماء.

كيف قضينا باقي المساء؟! لقد نسيتُ ذلك كله، في لحظة. ربّما بالشراب، أكل الخبز، السمك المملّح، اللحم المعلّب، النوم مع أناتول. لا ... تذكّرتُ الآن: مجموعة من الروس، وجوه جديدة وأخرى معروفة، جلسوا حول طاولتنا. كانوا ينظرون كثيراً إلى ساعاتهم، يقارنون الوقت، توقيت موسكو الذي يتبعوه هنا، وهو يسبق توقيتنا بساعة. واحد منهم لديه ساعة مثل كمأة ضخمة، صُنعت في مصنع بروسيا الشرقية مع قرص زجاجي أصفر مقبّب. لا أفهم لماذا هم مُغرمون إلى هذه الدرجة بالساعات. ليس لقيمتها المادية؛ لأنهم يولون أهتماماً أقل بالخواتم والأساور والأقراط التي يضعونها جانباً عندما تقع أيديهم على الساعات. السبب في ذلك - ربّما - يعود إلى أنهم في بلدهم لا يحصل كل شخص على ساعة. يجب أن يكون الروسي شخصاً مهماً قبل أن يحصل على الساعة التي يتمنّاها، أريد القول إنه يحصل عليها من الدولة. والآن تنمو الساعات - فجأة - مثل الفجل، بوفرة عجيبة، لمَن يريد. مع كل ساعة، يشعر مثل هذا الإيڤان بتنامي سلطته. مع كل ساعة، يمكنه تقديمها كهدية في بلده، تزداد أهمّيّته الشخصية. يجب أن يكون هذا هو السبب؛ لأنهم قطعاً غير قادرين على معرفة الفرق في قيمتها المادية. يفضّلون الساعات المزخرفة، بشكل مبالغ فيه. مثلاً، مع الساعة

التوقيتية، أو مع أوجه القمر. وأيضاً الصور الملوّنة على ميناء الساعة، لها جاذبية هائلة، بالنسبة لهم.

عندما رأيتُ هذه الأيدي الروسية كلها على الطاولة، شعرتُ بالرعب. كشفوا أنفسهم أمامي ... ما الذي ينوون فعله؟ شربتُ كأساً لطرد الفكرة. في كل مرّة، يقترب الكأس من فمي، يصرخون: «ڤيبيت نادا» (الشراب ضروري)(*)، كانوا يحتفلون بكل جرعة أشربها، كما لو أنه إنجاز ملحوظ. هذه المرّة شربنا النبيذ الأحمر إلى جانب شراب الجِنْ. النبيذ الذي نُهب من الأقبية، كما أظن. ارتعاش ضوء الشموع في الأطباق عكس مواصفاتهم السلافية على الحائط.

لأول مرّة، كان هناك نقاش حقيقي بين المجموعة. ثلاثة من الرجال كانوا موهوبين جداً: الأول أندريه، المتعلّم والماهر مع عينَيْه الزرقاوَيْن الصافيتَيْن، يدير النقاش، ويتحدّث بهدوء عموماً. ثمّ القوقازي مع أنفه المعقوف وعيناه اللامعتَيْن. ("لستُ يهودياً، أنا جورجي"، هكذا عرّف بنفسه أول مرّة). واسع الاطلاع، بشكل، لا يُوصَف، يحفظ - بطلاقة - الكثير من النثر والشعر، بليغ وسريع مثل مبارز في النقاش. الثالث لديه قدرة ذهنية عالية، وهو وافد جديد أيضاً، ملازم شاب، أُصيب هذا المساء، بانفجار القنبلة. دخل يعرج، وهو يستند على عصا مشي ألمانية مزخرفة بلوحات معدنية لأماكن معروفة في هارز. عظم ساقه مربوط بشكل سيئ. شعره أشقر، ونظرته شريرة. لديه طريقة خبيثة في الحديث. قال ذات مرّة: «أنا كرجل ذكي ...» وعندها أوقعه القوقازي في الكلام: «هنا - أيضاً - عدد من الأذكياء "نيمكا" (الألمانية) على سبيل المثال». (هذه أنا).

ناقشنا أسباب هذه الحرب. ألقوا باللوم على هيكل الفاشية الذي يؤدّي - بشكل لا مفر منه - إلى عطش التوسع. هزّوا رؤوسهم؛ ليُفهم من ذلك أن رأيهم هو أن ألمانيا لم تكن بحاجة إلى خوض أي حرب. ألمانيا كانت - في

---

*) أو: يجب أن تشرب. عليك بالشراب.

الواقع - دولة غنية، قيادة جيدة، وحضارة متنامية، ولا تزال حتّى الآن، رغم هذا الدمار كله. ناقشوا - لبعض الوقت - قلق الرأسمالية المبكّرة، الإرث الذي وضع الثورة الروسية في مأزق، بالمقارنة مع الرأسمالية المتأخّرة الأكثر تطوراً، وأكثر فساداً، والتي لاحظوها من خلال وجهات نظرنا. بعبارات متردّدة وحذرة جداً أوضحوا أن بلادهم لا تزال تقف على عتبة تطور كبير، ولذلك ينبغي تأمّل، تقييم، ومقارنة تجربتها، من ناحية المستقبل.

أحدهم أشار إلى الأثاث من حولنا (عديم القيمة)، ورأى فيه ثقافة عالية. أخيراً طرحوا. موضوع «الانحلال»، وتشاجروا حول حقيقة أننا - نحن الألمان- مُنحلّون بالفعل أم لا. استمعتوا باللعبة، بالسرعة التي تتردّد فيها ومضات من الحجج في ما بينهم. أندريه قاد المحادثة بطريقة هادئة.

خلال ذلك، هاجمني - بخبث – الملازم الأشقر المصاب بشكل شخصي. سخر، وصبّ جام غضبه على خطط الفتح الألماني والهزائم الألمانية. الآخرون رفضوا تبنّي هذا الموقف، صرفوا انتباهه عن الموضوع، وبّخوه، وحاولوا لعب دور المنتصر اللبق.

في وسط هذا النقاش، دخل أناتول فجأة، كان يتثاءب، متعب من الخدمة. جلس معنا، وكان انزعاجه واضحاً. لا يستطيع مواكبة هذا النقاش. جاء من القرية. قال لي إنه كان مسؤولاً عن الحليب في الكالخوز(*) التي يعمل فيها، أو ما يشبه رئيس عمّال في مصنع الحليب. قلتُ: «أوه، هذا مثير» أجاب: «حسناً، ليس رائعاً إلى هذا الحدّ. حليب، حليب، لا شيء سوى الحليب...» وتنهّد. بعد نصف ساعة، اختفى من جديد، وترك المتحاورين يمضون في نقاشهم.

في الغرفة المجاورة ينام هير پاولي، الأرملة أعدّت لها فراشاً على أريكته مرّة أخرى. الوضع يتضح تدريجياً: في النهار، يظل المنزل مفتوحاً لأصدقاء

---

*) الكالخوز: شكل من أشكال المزارع الجماعية في الاتحاد السوڤييتي

المنزل (إذا كان يمكن تسميتهم أصدقاء، على أي حال) ولأعضاء نادي أناتول. وفي الليل، البيت مفتوح - فقط - للزعيم أناتول. في الوقت الحالي، أبدو - عملياً - من المحرّمات، بالنسبة للجميع ما عدا أناتول، حتّى هذا اليوم، على الأقل. ماذا سيحدث غداً؟ لا أحد يعرف.

في منتصف الليل، ظهر أناتول من جديد، عندها اختفى رجال المائدة المستديرة من تلقاء أنفسهم. الأخير كان الملازم الأشقر، خرج، وهو يعرج متّكئاً على عصا المشي إلى الخارج، ودّعني بصمت ونظرة خبيثة.

هنا حدثت ثغرات في ذاكرتي. شربتُ كثيراً مرّة أخرى، لا أتذكّر المزيد من التفاصيل. قلتُ له: «أنت دبّ». (لكني أعرف كلمة دبّ بالروسية جيداً: ميدقيت، هكذا كان يُسمّى مطعم روسي سابقاً في تاونتسينشتراسه).

أناتول توهّم أني قد خلطتُ بين الكلمات، كان صبوراً جداً، كما لو أنه يتحدّث مع طفل: «لا، هذا سيئ. ميدقيت حيوان. حيوان بنّي في الغابة، سمين، ويقهقه. لكنْ: أنا تشواقيك، إنسان».

نظرة على أحداث الاثنَيْن ٣٠ أبريل.

بدأ يوم جديد، موحش، والسماء محمرّة. الرياح الباردة تهبّ من خلال نوافذ، بلا زجاج. طعم دخان في فمي. صياح الديك من جديد. هذه الساعة المبكّرة لي وحدي فقط. نفضتُ الغبار، أزلتُ أعقاب السجائر، العظام وفتات الخبز، وفركتُ بقايا الكحول من على سطح الطاولة. وبعد ذلك، اعتنيتُ بنفسي بشرب كوبَيْن من الماء. هذا الوقت بين الخامسة والسابعة صباحاً، عندما يكون كل من الأرملة وهير پاولي لا يزالان نائمين، هو أسعد أوقاتي طوال اليوم، بقدر ما يمكنكَ استخدام كلمة سعيدة في الوقت الحاضر. إنها سعادة نسبية. غيّرتُ، وأصلحتُ بعض الأشياء، ودعكتُ قميصي الآخر ببعض الصابون. في هذا الوقت - وهذا ما أصبحنا نعرفه الآن - لن يزعجنا أحد من الروس.

من الساعة الثامنة، تبدأ حركة المرور - من جديد - عبر الباب الخلفي المفتوح. رجال غرباء متنوّعون. فجأة ظهر اثنان أو ثلاثة يحومون حولنا أنا والأرملة، يحاولون الإمساك بنا بشراهة الثعالب. لحسن الحظّ، جاء أحد ضيوفنا الثابتين، وساعدنا على التخلّص من الغرباء. سمعتُ أن گريشا أخبرهم بأني من المحرّمات، وسمعتُه يذكر اسم أناتول. أنا فخورة؛ لأني نجحتُ في ترويض أحد الذئاب، من المحتمل أنه أقوى مَن في المجموعة، ومن ثمّ؛ تمكّنتُ من إبعاد الباقين عن جسدي.

في حوالي الساعة العاشرة، ذهبنا إلى الكُتُبي. خلف أقفال الأمان من

الدرجة الأولى، لا يزال هناك أكثر من عشرة أشخاص، وجدوا مأوى لهم في شقّته. انعقد اجتماع للسكّان، وحسب طَرْقَة سرّيّة على الباب، سمحوا لنا بالدخول. استغرقتُ بعض الوقت؛ لأتعرف على شعب القبو. بعضهم تغيّر، بشكل لافت. بعض النساء ظهر لهنّ فجأة شعر أشيب، أو خصل بيضاء؛ لأنهن لم يواظبنَ على زياراتهنّ الأسبوعية لصالون الحلاقة، ووجوههنّ - أيضاً - تبدو غريبة، ومتعبة.

جلسنا جميعاً حول الطاولة، بسرعة كبيرة، بسبب الخوف من أن يُلاحَظ «اجتماعنا» من قِبَل الروس، ويُساء فَهْمه. أخبرتهم - بسرعة - ما عرفتُه من الصحف الروسية، ومن الروس أنفسهم، من أناتول وأندريه: برلين محاصرة، ضواحيها كلها مُحتلَّة، لا يزال هناك قتال في تيرگارتن وموابيت فقط. أسروا أعداداً كبيرة من الجنرالات. هناك إشاعة تقول إن هتلر قد مات، على الرغم من عدم توفّر أيّ تفاصيل بهذا الشأن. گبلز انتحر، هو وعائلته. موسوليني قتله الإيطاليون رمياً بالرصاص. وأن الروس قد وصلوا إلى نهر إلبه؛ حيث التقوا الأمريكيين في وئام تامّ.

الجميع كان يُنصت باهتمام. هذا كله جديد، بالنسبة لهم. نظرتُ حولي، سألتُ السيدة من هامبورك عن ابنتها ستينشن، وتلقّيت الرد مع صوت حرف الـ س الحاد، أن البنت قد انتقلت إلى مخزن المؤن تحت سقف شقّتهم؛ حيث تقضي هناك الليالي ومعظم الأيام. الروس لم يعتادوا على وجود مخازن الغلال. مثل هذه الأماكن غريبة وغير معروفة في بلادهم. في السابق، كنا نخزن حقائبنا فيه، وقديماً جداً كانت تنام فيه الخادمات. والآن تعيش ستينشن هناك في ذلك الكهف الضيق الخانق، مع فراشها، مع مرآتها وعطرها. وفي كل مرّة، تسمع خطواتهم، هكذا أخبرتني والدتها، تغلق الفتحة بسرعة. على أيّ حال ستينشن لا تزال عذراء.

تلمّسنا طريقنا إلى أسفل. منزلنا - الآن - تحوّل إلى ملجأ عسكري نوعاً ما. الجميع تفوح منه رائحة الخيول، ندوس على علف الخيول في الممرّات،

وفي كل غرفة. غير مُنضبطين في أعمالهم هؤلاء الفاتحون، يتبوّلون على الجدران، أينما يريدون، برك من البول على الدرجات، وتقطر على طول الدرج إلى الأسفل. يبدو أنهم يتصرّفون - بالطريقة نفسها - في الشقق الفارغة المتاحة لهم.

في مطبخنا، كان يقف ڤانيا في انتظارنا، في وضعية حارس قصر الحاكم، وبندقيته على أهبة الاستعداد. مع نظرة كلب مخلص، قدّم نفسه على أنه مرافق لنا إلى القبو. إلى القبو مرّة أخرى في الظلام. في الطريق إلى القبو، كان لا يزال هناك عدد من الروس نائمين، على فراش كامل، سرقوه من مكان ما. في زاوية تحت الدرج الحلزوني، كان يستلقي أحدهم في طريقنا، في بركته الصغيرة، لايزال البول يقطر من جسده. تأفّف، وهو ينقلب على جانبه، عندما ركله ڤانيا. ڤانيا، على الرغم من عمره، كان برتبة رقيب، وفخور بهذه الرتبة. قال لي أندريه، إنه كعامل أجنبي شاب، عمل في مزارع شرق بروسيا، وانضم إلى القوّات الروسية المحاربة. وكمكافأة على بعض الأعمال البطولية صعد في رتبته العسكرية، بسرعة كبيرة.

في القبو، بحثنا عن مقتنيات الأرملة. أشياء لم أرها من قبل، والأرملة - أيضاً - يبدو أن لديها فكرة غامضة عنها؛ لأنها أخذت كل ما هو مفيد يظهر أمامها. بمساعدة ضوء ضعيف من نافذة القبو، وزاد الضوء بفضل مصباح ڤانيا اليدوي، وجدنا بعض البطاطا، وبصلاً، وعدداً من أوعية المربّى السليمة، جمعناها معاً، عندها جاء لنا إيڤان بعينَيْن صغيرتَيْن. قال بعض الجمل القذرة، يتخلّلها كلمات ألمانية. أجابه ڤانيا بسرعة: «هذا يكفي الآن، اخرج». انسحب الرجل ذو العينيْن الصغيرتَيْن خائفاً.

للغداء، كان لدينا ما يكفي من كل شيء. بالمقارنة مع الوجبات قليلة الدسم التي كنتُ أعيش عليها عندما كنتُ أسكن وحدي في العلّيّة، الآن أنا آكل بإسراف. لا مزيد من شاي القرّيص. بدلاً عنه: لحم، لحم خنزير مقدّد، زبد، بازلاء، بصل، خضروات معلّبة. هير پاولي على «فراش المرض»

يلتهم كل شيء بشراهة كبيرة. وعند كومبوت الكمثرى بدأ يشتم، وسحب شظية زجاج طويلة حادّة من لثّته. وأنا - أيضاً - أخرجتُ قطعة زجاج حادّة من فمي. من الواضح أن هناك بعض الأوعية الزجاجية المكسورة من بين مسروقاتنا في القبو.

في الخارج، الحرب - دائماً - مستمرّة. صلاة الفجر وصلاة العشاء: «ندين بهذا كله للفوهرر» شعار تكرّر في سنوات السلام، بما لا يُعدّ، ولا يُحصى، كمديح، وشكر، طُبع على الملصقات، وتميّزت به الخُطب. الآن هذه الكلمات نفسها تحوّلت إلى نقيضها، أصبحت تعبيراً عن السخرية والاستهزاء. هذا ما يُسمّى - كما أظن - عكس الجدلية.

ما بعد ظهر هادئ. أناتول كان مع رجاله على الطريق. يبدو أنهم يستعدّون للتحضير لعيد العمال ١ مايو. نحن خائفون من هذه العطلة الرسمية. الروس، كما قال أحدهم، توزّع عليهم حصص إضافية من الخمور.

في حوالي الساعة التاسعة ظهراً، بدلاً من أناتول رجل صغير مجدور، مع جروح في وجهه. كان قلبي يدقّ. لديه وجه شرس! لكن تصرّفاته لطيفة، بشكل مفاجئ، وأسلوبه دقيق في الكلام.

هو أول شخص خاطبني بـ "گراشدانكا" مواطنة. هكذا يخاطب الروس المرأة، ولا يستطيع المرء مخاطبة رفيقه بهذه الطريقة. عرّف نفسه على أنه معاون أناتول الجديد، أرسله أناتول ليقول لي بأنه سيأتي لتناول الطعام؛ ليجلب ما يلزم لذلك. هذا كله حدث عند الباب الأمامي، بينما أنا أمسك السلسلة على الباب.

سمحتُ له بالدخول، وقدّمتُ له كرسياً. من الواضح أنه كان يرغب في الحديث معي. أنا متأكدة من وعيه بأن وجهه المحطّم لا يوحي بالثقة، لهذا يبذل جهداً مضاعفاً لكسب هذه الثقة، بطرق أخرى. قال إنه جاء من القوقاز، من منطقة؛ حيث كان بوشكين يتردّد عليها كثيراً، ووجد الشاعر فيها الإلهام

للكثير من أعماله. لم أفهم منه كل شيء، عبّر عن نفسه بطريقة، يبدو فيها أنه متعلّم جداً، صاغ جملاً طويلة ودقيقة. على أي حال، عند كلمة الدالّة «بوشكين» كنتُ قادرة على تسمية عدد من العناوين من أعماله، « بوريس غودونوف»» و«مدير دائرة البريد». وأخبرتُه أن العمل الأخير قد تحوّل إلى فيلم في ألمانيا قبل عدّة سنوات، ما جعله يبدو سعيداً. باختصار، أجرينا حديث صالونات حقيقياً، كم هذا غريب! لا أستطيع الوصول إلى فكرة معينة عن هؤلاء الرجال، أكتشف فيهم - دائماً - صفات مفاجئة، وهو ما يجعلنا في حيرة من أمرنا.

فجأة سمعنا أصوات رجال وضجيجاً في المطبخ. ربّما أناتول؟ قال القوقازي الصغير، لكنْ؛ رغم أن هذا الاحتمال مستحيل إلا أني توجّهتُ إلى المطبخ. وإذ بالأرملة تندفع - بقوّة - من هناك، مع وجه خائف، صرختْ: «انتبهي! پيتكا!».

پيتكا؟ يا للسماء! لقد نسيتُه تماماً! پيتكا بشعره القصير الخشن وذراعي الحطّاب اللتَيْن كانتا ترتجفان عندما صارحني كروميو، وهو يتلعثم.

دخلنا ثلاثتنا إلى المطبخ. كان هناك على حوض الغسيل ضوء هيندنبورك صغير، وضعيف جداً. وضوء آخر من مصباح يدوي ضعيف، في يد روسي، لم أره من قبل. لكن الآخر هو پيتكا، بلا شكّ، تعرّفتُ على صوته. منذ أول البارحة (نعم، منذ يومَيْن) تغيّر حبه لي إلى كره. پيتكا، السيبيري المرفوض، تقدّم نحوي عندما رآني. عيناه تلمعان. وكان ثملاً للغاية.

في الزاوية القريبة من الأرملة، كان هناك ماكنة خياطة. پيتكا أمسكها من غطائها المحكم، رفعها من الأرض، ورماها - مباشرة - في اتجاهي. سقط الشيء، وتبعثر على البلاط. انحنيتُ بجسدي إلى الأمام، وناديتُ على القوقازي الصغير: «احضرْ، أناتول!» وأخفيتُ نفسي خلف الجندي الآخر، توسّلتُ به أن يحميني من الرجل السكران. پيتكا بدأ يضرب بقبضته، لكنه

يخطئني في كل مرّة. فجأة نفخ على ضوء الطوارئ الصغير على حوض المغسلة، ولأن المصباح اليدوي انطفأ أيضاً، وقفنا جميعاً في الظلام. أسمع بيتكا يلهث، وأشمّ رائحة الكحول. لم أشعر بالخوف على الإطلاق، أنا مشغولة بتجنّب بيتكا، ومحاولة إيقاعه. علاوة على ذلك، شعرتُ بالحلفاء من حولي. وأخيراً وجدنا جميعاً فرصة تنفيذ المهمة عند الباب الخلفي. دفعناه على الدرج الحلزوني، وبسرعة سمعناه يسقط بضع درجات. قال في أثناء سقوطه، إني سيئة، فتاة قذرة، خنزيرة، وبنتُ عاهرة.

الساعة الواحدة ليلاً، بدأ يوم الثلاثاء، بالفعل. جلستُ منهكة على الأريكة. المساعد الصغير اختفى من جديد؛ ليجلب أناتول. جلستُ أنصتُ قليلاً، ثمّ غفوتُ مرّة أخرى ... الأرملة وهير پاولي ناما منذ وقت طويل. أنا لا أجرؤ على النوم، أنتظر...

وأخيراً هناك طرق على الباب الأمامي. كان المساعد الصغير مرّة أخرى. هذه المرّة كان محمّلاً بلحم الخنزير، الخبز، السمك المملّح، وقدر مليء بالخمر. نهضتُ من النوم بتثاقل، وذهبتُ إلى المطبخ لجلب الكؤوس والصحون. فرشتُ الطاولة المستديرة، والمساعد الصغير ساعدني. الطعام يبدو لذيذاً. تثاءبتُ. المساعد أراحني: «أناتول سيأتي بعد قليل».

وبالفعل، ظهر بعد عشر دقائق، يرافقه الملازم الأشقر الكئيب الذي لا يزال يتّكئ على عصا المشي. أناتول سحبني إلى ركبته، وتثاءب: «أريد أن أنام، أنام». كنا قد جلسنا للتوّ نحن الأربعة عندما سمعنا طرقاً على الباب مرّة أخرى. أحد رجال أناتول جاء؛ ليأخذه هو ومساعده إلى القائد. يبدو أن شيئاً قد حدث الليلة. أو أن الأمر متعلّق باحتفال ١ مايو؟ تناول المساعد الصغير لقمة أخرى من شطيرة لحم الخنزير بسرعة، ومشى، وهو يمضغ خلف أناتول.

ذهبا. لكن الملازم الكئيب لا يزال هنا. يعرج على عصاه بقلق ذهاباً وإياباً

في الغرفة. جلس - مرّة أخرى - وحدّق بي. الشموع تحترق. كدتُ أسقط من على الكرسي من التعب.

الملازم ينظر أمامه. وقال إنه يريد أن يبقى هنا. أردتُ أن أشير عليه الذهاب إلى الغرفة الخلفية. لكنْ؛ لا، يريد البقاء - هنا - في هذه الغرفة. وضعتُ له بطانية على الأريكة. لا، تذمّر، يريد أن ينام في السرير، وقح، رتيب، مثل طفل منهك. حسناً، تركتُه. ذهبتُ، ارتديتُ ملابسي، واستلقيتُ على الأريكة. لا، يجب أن أنام إلى جانبه في السرير. وعندما رفضتُ، بدأ يضايقني على الأريكة. هدّدتُه بأناتول. ضحك في وجهي، وقال: «لن يأتي الليلة».

وقفتُ، وقرّرتُ الذهاب إلى الغرفة الأمامية، أو هنا، إلى الأرملة، لا يهمّ إلى أين. عندها تخاذل، يظهر أنه قد اقتنع بالأريكة، ولفّ نفسه بالبطانية. ذهبتُ للنوم على السرير، وأنا أرتدي ملابسي كلها عدا حذائي.

بعد قليل، نهضتُ فزعة، سمعتُ العصا تقترب. ها هو - من جديد - يحاول النوم على السرير. نصف مشلولة من التعب، دافعتُ عن نفسي، وحاولتُ إبعاده. لكنه لم يهتم، ظل يواصل بقسوة. قال عدّة مرّات، وهو عابس: «لا أزال شاباً». عمره لا يزيد عن عشرين عاماً.

في صراعي معه، أصبتُ ساقه المجروحة. تأوّه، شتم، وهدّد بقبضته المضمومة. انحنى للخروج من السرير، وبدأ يبحث في الأرض. عندها فهمتُ أنه يبحث عن عصاه التي تركها ملقاة أمام السرير. إنها عصا المشي الشرسة. عندما ضربني على رأسي في الظلام، نفد صبري. حاولتُ الإمساك بيدَيْه، وسحبه من حافة السرير. عندها بدأ الإلحاح مرّة أخرى، همستُ له: « تماماً مثل الكلاب» الجملة أعجبتْه كثيراً؛ لأنه ظل يردّدها: «نعم - هذا جيد – تماماً مثل الكلاب - جيد جداً - مضاجعة الكلاب - حب الكلاب ....» أحياناً نغفو مستنفدين في نوم عميق لبضع دقائق، ثمّ يبدأ من جديد . . . وأنا منهكة، محطّمة، بقيتُ نصف نائمة، أدافع عن نفسي. لديه شفتان باردتان جداً...

في الساعة الخامسة، مع أول صياح للديك، نهض متعباً، لفّ ساق بنطلونه إلى أعلى، ورفع الضماد القذر عن جرحه. سألتُه - بخجل، وبشكل لا إرادي عندما رأيتُ جرحه المفتوح - إن كان يمكنني مساعدته. هَزّ رأسه، حدّق بي، ثمّ بصق - فجأة - أمام سريري على الأرض، بصق احتقاره. خرج من المنزل. اطمأنّ قلبي. نمتُ نوماً عميقاً لثلاث ساعات، كما لو أني ميتة.

ما بعد الظهر، الثلاثاء ١ مايو ١٩٤٥.

بدأنا هذا اليوم، ونحن خائفين. في حوالي الساعة الثامنة، جلسنا حول المائدة، مستعدّين لأي شيء. لكنه بدأ مثل أي يوم آخر. فجأة امتلأ المطبخ برجال معروفين وغرباء. كان معهم رجل يرتدي رداء أبيض، خبّاز. وعدني - وهو يهمس - بالخبز والطحين إذا أنا وهو ... (لم يقلها صراحة، غالباً ما يسمّونه «حب»، أو «زواج»، أو ببساطة «نوم»، حرّك عينَيْه فقط).

فجأة استُدعُوا من الشارع، واختفوا جميعاً من المطبخ. بعد بضع دقائق، وقفوا في صفَّيْن نُظماً تحت شجر الحور. أناتول كان يسير إلى الأمام والخلف، مرّة أخرى، الملازم المهم، لكنْ؛ بمظهر ودّي. كان يضع يدَيْه في جيوب معطفه الجلدي، ويلقي خطاباً. بعض العبارات أخذتها الريح معها إلى فوق ... الأول من مايو ... النصر بات وشيكاً ... ابتهجوا لذلك، لكنْ؛ مع مراعاة تعليمات الرفيق ستالين. عندما قال هذا، غمز لرجاله، فضحكوا. تقدّم أندريه إلى الأمام، سأل سؤالاً، وتلقّى الجواب. بعض الرجال رفعوا أيديهم، كما لو أنهم يجلسون في مدرسة، يطرحون الأسئلة دون خجل. لم أرَ أيّ علامة على طاعة مبالغ فيها، صلابة، أو انضباط حديدي. الرفيق الملازم الأول تصرّف - أيضاً - كرفيق. في أثناء المراسيم، بكت الكاتيوشا على الجانب الآخر عند المدرسة، بشكل مستمر، تاركة مسارات نارية في السماء.

شعرتُ بالإرهاق والتعب، زحفتُ مثل طائر مكسور الجناحَيْن. الأرملة شخّصتْ الحالة فوراً، وجلبتْ صندوق الأدوية من مخزن المؤن تحت

السقف؛ حيث تخفيه هناك. دون أن تقول أي كلمة، أعطتني علبة فازلين، لكن عينَيْها كانتا مليئَتَيْن بالدموع. شعرتُ بأني أصبحتُ ضعيفة وجبانة.

تذكّرتُ كم كنتُ سعيدة قبل الآن، والحبّ كان - بالنسبة لي دائماً - سعادة، وليس عبئاً على الإطلاق. لم أكن مُجبرة أبداً، لم أكن بحاجة إلى إجبار نفسي على شيء. كما كنتُ، كان كل شيء رائعاً. هذا متوقّع، أن يجعلني ما حدث كله بائسة إلى هذا الحدّ. إنه سوء المعاملة الذي تعرّضتُ له، الجسم الذي استُولي عليه ضدّ إرادته، يظل يتألم ردّاً على ذلك.

أتذكّر صديقة من المدرسة، كانت متزوّجة، اعترفتْ لي - في بداية الحرب - أن زوجها التحق بالخدمة العسكرية الآن، وتشعر أنها أفضل في هذا الوقت؛ لأن الجماع معه كان - دائماً - مؤلماً، بالنسبة لها، ولم تكن تشعر بالسعادة. بارد جنسياً، يُسمّى مثل هذا الشخص. جسدها لم يكن مستعداً. باردة جنسياً، بقيتْ - دائماً - مع هذا الجماع. لا يمكن أن يكون شيئاً آخر، أريد أن أظل ميتة عديمة الإحساس، طالما أُعامَل مثل غنيمة. لهذا أنا سعيدة، أن أشعر بأني ضعيفة وسيئة إلى هذا الحدّ. ومع هذا، أبكي وعلبة الفازلين في يدي، وأمامي الأرملة تبكي معي. لكنْ؛ عندما ذهبنا إلى هير پاولي، سيطرنا على أنفسنا، وتحدّثنا عن شيء آخر. هذه الأشياء من شؤون المرأة فقط.

في حوالي الساعة الثانية عشرة، كان لديّ فرصة إنقاذ حياة شخصَيْن. بدأت القصّة عندما طَرَقَ على الباب الأمامي رجلٌ ألماني، رجلٌ مُسنّ، لا أعرفه، طلبني، بمعنى أنه يريد «السيدة التي تتحدّث الروسية».

نزلتُ معه، وأنا متشكّكة، أعترف بذلك؛ لأن الرجل ثرثر بشيء عن مسدّس، وإطلاق نار. في الأسفل، كان يقف موظّف البريد وزوجته و - الحمد لله ! - عدد من رجال أناتول، الرقباء. (يمكنني - الآن، بفضل تعليم أناتول الأولي - أن أميّز بين الرُّتب، إلى حدّ ما). الرجل وزوجته المُسنّان يجب أن يُعدَما. كان يقف - بالفعل، ووجهه إلى الحائط صامتاً، كتفاه معلّقان، رأسه

على صدره، ويرتدي نعاله. أما هي؛ فأدارت رأسها على كتفها، وظلّت تردّد جملة واحدة، بسرعة.

ماذا حدث؟ ما حدث هو التالي: الفتاة الهاربة من كونيسبيرك، التي كانت تسكن في بيت ساعي البريد، وكانت تشتكي لنا في السبت الماضي، كانت تريد وضع نهاية لحياتها، قبضوا عليها على الدرج مع مسدّس في جيبها. ربّما أخذت المسدّس معها عندما هربت من كونيسبيرك، لا أحد يعرف. خَلّصت نفسها، وهربت من مطارديها في متاهات غرف العلّيّة. اختفت منذ ذلك الحين. في أثناء البحث في المنزل، عثر الروس على صورة للفتاة، وهي تقف مع رجل من الإس إس. سمحوا لي برؤية الصورة، وكان عليّ أن أعترف بأنها كانت هي - بالتأكيد - الفتاة المقصودة. ربّما يكون الرجل خطيبها، أو، الأكثر احتمالا أنه أخوها؛ لأن رأسه يشبه رأسها المستدير تماماً.

والآن، الروس يريدون أن يطلقوا النار على كل من المرأة والرجل الْمسنَّيْن فوراً، اللذَيْن تمّ اعتقالهما كرهائن، ما لم تظهر الفتاة، أو يعترفا أين أخفياها.

في البداية، كان يمكنني إزالة سوء الفَهْم. الروس احتجزوا الْمسنَّيْن، على أنهما والدا الفتاة. هم معتادون على نمط الأسر العادية، الروس لا يعرفون شيئاً عن عيشنا المضطرب، وعزلتنا. إذا سمعوا أن الفتاة ليست من العائلة، لكنها تسكن معهما فقط، يغيّرون لهجتهم فوراً. السيدة العجوز ظلّت تنظر لنا بخوف في أثناء هذه المحادثة، ثمّ قاطعتْنا. يبدو أن من رأيها، بأنها سوف تساعد نفسها، إذا تخلت عن الفتاة. قالت إنهما كانا يؤيان الفتاة، ولم تجلب لهما سوى المتاعب، هي وزوجها قد نفد صبرهما أخيراً، وسوف لن يستغربا من أي شيء، وإذا كانا يعرفان مكان الفتاة، فسوف يخبران عنه. ليس لديهما أي سبب للحفاظ على هذا السّرّ. وإلخ وإلخ. ليس لديّ شكّ بأن هذه المرأة سوف تسلّم الفتاة، إذا أُتيحت لها الفرصة. كرّرت مرّة بعد أخرى - ثرثرتها بقلق، بينما زوجها كان يقف صامتاً وساكناً، ووجهه إلى الحائط.

تكلّمتْ، وتكلّمتْ. شرحتْ للروس أن الفتاة مع المسدّس لم يكن لديها أي خطط لقتل الروس، لكنها - كما سمعتُ بنفسي - كانت تحاول قَتْل نفسها، وأنها - الآن - سوف تكون قد ماتت، بالفعل. ربّما سيتمّ العثور على جثتها قريباً. (كلمة الانتحار، سَمو - بيستڤا، غير موجودة في قاموس الجنود الألماني - الروسي. وأنا سألت أندريه عن الكلمة).

عندما قلّ التوتّر بعض الشيء، غامرتُ وقدّمتُ العجوزَيْن في شكل كوميدي، على أنهما شخصَيْن سخيفَيْن جداً، وليس لديهما فَهْم لأي شيء. الرجل - أيضاً - كان قد استدار أخيراً. من فمه المفتوح، سال لعابه إلى الأسفل مثل طفل رضيع. المرأة صمتتْ أخيراً. لكن عينَيْها اللامعتَيْن ظلّتا تومضان بيني وبين الروس جيئة وذهاباً. أخيراً سمحوا لهما بالمغادرة حيَّيْن.

وأعطوني تعليمات، يجب عليَّ إبلاغها لجميع سكّان البناية: أنهم سوف يحرقون البناية بالكامل وفقاً لقانون الحرب عندما يعثرون على أي سلاح مرّة أخرى. لكنهم أقسموا على أنهم سوف يجدون الفتاة، وسيقومون بتصفيتها.

شاربو الفودكا المرحون لم يعودوا مرّة أخرى! ولا إشارة تكشف أنهم كانوا يقضون ساعات طويلة حول طاولتنا، ويشربون بصحّتي. بالنسبة لهم، الواجب هو الواجب والسُّكْر هو السُّكْر. يجب عليّ أن أحفظ ذلك، ويجب أن أكون حذرة معهم.

من جانب آخر، كنتُ راضية جداً عن نفسي، رغم أني قلقة بعض الشيء. عدد آخر من هذه الحالات، وسوف أكون معروفة ككلب ملوّن، ولا يمكنني فعل شيء إزاء ذلك. أعترف بأني خائفة، وأُفضل أن أبقى غير ملحوظة. عندما خرجتُ، تبعني الرجل الذي دعاني، وسألني إن كان بإمكاني ترجمة مصطلح، يسمعه كثيراً من الروس: «گيتلر دوراك» ترجمتُه له: «هتلر أحمق»، يقولون هذا - دائماً - لنا، كما لو أنه اكتشاف عظيم.

الأربعاء ٢ مايو ١٩٤٥، مع الباقي من يوم الثلاثاء.

قضيتُ نصف وقت ما بعد ظهر الثلاثاء، وأنا أجلس على سرير هير پاولي لتحديث مذكّراتي. ثمّ بدأتُ - من باب الاحتياط - بقائمة كلمات ألمانية - روسية، من الممكن إظهارها للفضوليين الروس. فعلتُ ذلك مرّة واحدة من قبل، وحصلتُ - عندها - على تربيتة تشجيع على كتفي.

في المساء، حدثتْ لنا بعض المتاعب. أحدهم كان يطرق ويركل الباب الأمامي بعنف. فتحتُ الباب، لكنني تركت سلسلة الأمان مغلقة. رأيتُ شيئاً أبيض، وتذكّرتُ - عندها - الخبّاز من صباح الأمس في ردائه الأبيض. كان يريد السماح له بالدخول. رفضتُ، وتصرّفتُ، كما لو أن أناتول كان في الداخل. عندها طلب منّي فتاة أخرى، لا يهمّ مَن تكون، عنوان، أو دلالة؛ حيث يمكن العثور عليها. في مقابل ذلك، وعد بأنه سوف يمنح الفتاة طحيناً، الكثير من الطحين، ولي أيضاً كعمولة. لا أعرف أي فتاة، ولا أريد أن أعرف. أصبح مزعجاً، دفع قدمه في فتحة الباب، وجرّ سلسلة الأمان. أخرجتُه بصعوبة، وأغلقتُ الباب بقوّة.

نعم، الفتيات أصبحن نادرات. الأوقات التي يطارد فيها الروس النساء أصبحت - الآن - معروفة عموماً. الفتيات محبوسات، مختبئات في مخازن المؤن تحت السقوف، ومرصوصات في شقق «آمنة». في صفّ الانتظار عند المضخّة قيل إن طبيبة أنشأت مستشفى في ملجأ لمكافحة الأمراض المعدية. لوحات كبيرة، تُشير باللغة الألمانية والروسية إلى أن المستشفى

أُنشئت خصيصاً، من أجل مكافحة مرض التيفوئيد. والمرضى ليسوا سوى فتيات صغيرات من المنازل المجاورة، ساعدتهنّ الطبيبة مع خدعة التيفوئيد على احتفاظهنّ بعذريّتهنّ.

بعد فترة ليست طويلة، كان هناك ضوضاء في الخارج مرّة أخرى. هذه المرّة، كان لدينا اثنان من الروس غير معروفَيْن، بالنسبة لنا، تدبّرا دخولهما إلى شقّة مجاورة. الجدار الفاصل بين الشقّتَيْن بارتفاع حوالي مترَيْن عن الأرضية، تسبّبت آخر غارة جوّيّة في شقّ وفتح فجوة بعرض خمسين سنتيميتر فيه. من خلال هذه الفجوة في الجدار، سحب الرجلان الطاولة. الآن بدءا بالصراخ، من خلال الفجوة، بأن علينا فتح الباب فوراً، وإلا سيُطلقان النار. (مع العلم أن بابنا الخلفي كان مفتوحاً، ببساطة). أحد الشابَّيْن ترك مصباحه اليدوي يضيء في الداخل، بينما الآخر حمل مسدّسه مستعداً لإطلاق النار. لكننا نعرف الروس، لن يُطلقوا النار فوراً، خاصة وأنهم في وعيهم وقادرون على التحدّث، كما هذَان الاثنان. في البداية، حاولتُ أن أنظر إلى الحالة على أنها مزحة، وبذلتُ ما في وسعي؛ لأكون مضحكة في الروسية. كانا شابَّيْن صغيرَيْن. تحدّثتُ بهدوء معهما، وذكّرتُهما حتّى بأوامر ستالين العظيم. نزلا من منصة إطلاق النار إلى الأسفل، وغادرا بعد ركلة أخيرة على الباب الأمامي. عندها تنفّسنا براحة كبيرة. على أي حال، هي فكرة مريحة، أني في حالة الطوارئ، يمكنني - دائماً - أن أمشي نحو الدرج، وأطلب المساعدة من رجال أناتول، إن كانوا موجودين. نحن منطقة صيد خاصة لأناتول. الأغلبية يعرفون ذلك جيداً الآن.

الأرملة - أخيراً - ظهر الخوف على جسدها؛ لأن مع اقتراب المساء لم يظهر أي أحد من ضيوفنا الثابتين. استغلّتْ لحظة من الصمت في بيت الدرج؛ لتركض إلى فوق، وتتواصل مع السكّان الآخرين. عادتْ بعد عشر دقائق: «تعالي معي إلى فراو ڤينت، هناك روسيون أنيقون، جلسة جميلة فعلاً».

فراو ڤينت العزباء الخمسينية مع التهاب جلدي على وجهها، السيدة

التي ربطت خاتم زواجها بالشريط المطّاطي لسروالها الداخلي. اتّضح أنهم انتقلوا إلى خادمة مالك البناية المختفي، واحدة من تلك المجتمعات التي شكّلها الخوف والحالات الطارئة، كما نشأ الكثير منها في الوقت الحاضر. في المطبخ الصغير، كان الهواء ملوّثاً، ويبدو أزرق من الدخان. على ضوء الشموع، تعرّفتُ على السيدتَيْن، وثلاثة من الروس. أمامهم على الطاولة، كان هناك مجموعة من العلب، أغلبها دون مُلصقات، من المحتمل أنها من إمدادات الجيش الألماني التي استولى عليها الروس. الأرملة حصلتْ - فوراً - على واحدة، تمُسكها بين يدَيْها.

طوال الدعوة، لم أنطق أي كلمة روسية، لعبتُ دور امرأة بلهاء. لا أحد من الروسيين الثلاثة يعرفني. أحدهم يُدعى سيرجوشا، كان قد بدأ بإزعاجي، وضع ذراعي حول خصره. تدخّل واحد من الآخرين، وقال بهدوء: «أخي، أطلب منكَ أن تترك هذا». سيرجوشا ضُبط متلبّساً، وتركني، وشأني.

استغربتُ للغاية. هذا الرجل الذي تحدّث للتوّ كان شاباً حسن المظهر. لديه ملامح عادية داكنة. عيناه تلمعان. يداه بيضاوان صغيرتان. الآن ينظر لي بجدّيّة، وقال بألمانية مكسّرة: «لا تخافي».

همست فراو ڤينت بأن اسمه ستيپان. وإنه قد فقد زوجته وطفلَيْه في غارة جوّيّة على كييف. ومع ذلك، غفر لنا كل شيء، وتصرّف، وكأنه قدّيس.

الآن الروسي الثالث، صغير، ووجهه فيه ندوب كثيرة، دفع لي علبة، فتحها بسكّين جيبه. وطلب منّي - ببعض الإيماءات - أكلها. كان هناك لحم في العلبة. حشرتُ القطع الدهنية الكبيرة في فمي، كنتُ جائعة. الروسيون الثلاثة كانوا ينظرون لي بسرور. فراو ڤينت فتحتْ خزانة المطبخ، وسمحتْ لنا برؤية صفوف كاملة من العلب، حملها الرجال الثلاثة كلها معهم. هنا - بالفعل - جوّ ودي، لكن الشيطان وحده يعلم لماذا اختار هؤلاء الرجال هذه الشقّة بالذات لهذه الجلسة الودّيّة، لماذا يهتمون جيداً بهاتَيْن السيدتَيْن،

في الحقيقة، كلاهما مثيرتان للاشمئزاز من الناحية الجسدية. مدبّرة المنزل تشبه الفأر، ترتدي النظّارة، ومنحنية الظهر. ومن ثمّ؛ تنسى فكرة الرغبة في الاغتصاب، كما أظن.

يمكنني أن أبقى جالسة هنا دائماً. ستيپان تشعّ منه الحماية، بشكل طبيعي. جلستُ أحدّق به، وأسأل نفسي إن كان خيالاً، أسميتُه سرّاً، وأنا أتذكّر - من جديد - «الأخوة كارامازوف»، أليوشا. لكن الأرملة أصبحت غير مرتاحة، شعرتُ بالقلق على هير پاولي الذي ظل وحيداً في سريره. رغم أن الرجال - وبالتأكيد الرجال المرضى، وطريحي الفراش - لا يخافون من الروس أبداً. ذلك غير وارد، أن أحد هؤلاء الرجال سوف يذهب متمايلاً إلى رجل ألماني، ويهمس: «يا رجل، تعال» هم بائسون، بشكل طبيعي.

سيرجوشا أوصلنا مع الشموع إلى باب الشقّة. يكون وديعاً مثل خروف عندما يكون ستيپان في الجوار. فقط في المدخل، تجرّأ، وخاطر بقرص ذراعي بلطف.

نزلنا، كل منا مع علبة لحم. كان يخرج من شقّتنا صوت موسيقى مبهجة. في الداخل كان هناك حفلة صاخبة. يشغل غرفة الجلوس، بشكل شبه كامل، جماعة أناتول الذين دخلوا من خلال الباب الخلفي المفتوح دائماً. حصلوا على أكورديون، يعزفون عليه بالتناوب. الجميع يحاول أن يعزف، لكنْ؛ لا أحد يستطيع العزف. والنتيجة كانت وفقاً لذلك. لكنهم وجدوا ذلك رائعاً. يريدون الاحتفال، إنه الأول من مايو. أين أناتول؟ لا أحد يعرف. أناتول ذهب في مهمة في مكان ما، لديه الكثير للقيام به.

ذهبنا إلى الغرفة الجانبية؛ حيث يرقد هير پاولي؛ ووجدنا هناك المزيد من الضيوف الروس: الملازم الأشقر الكئيب مع عصاه المزخرفة، وشخص آخر، عرّف عن نفسه، بشكل عابر سهل: تش- تش- تش - وإلخ وإلخ، رائد. (لديهم طريقة خاصة في التستّر على أسماء عوائلهم، ويخفونها - دائماً

- من هوياتهم، في معظم الأحيان، لا يذكرون إلا أسماءهم الأولى التي لا تُعدّ، ولا تُحصى، ورُتبهم التي يمكنك معرفتها بالفعل، إذا أجريت دراسة بسيطة حولها).

أحدّق بالملازم الكئيب، وأنا مليئة بالرعب، وأتمنى لو يذهب إلى الجحيم. لكنه لم يُبدِ أي علامة على معرفتي، ظل رسمياً ومهذّباً للغاية. الرائد الذي جاء معه، كان أكثر تهذيباً. قفز من مكانه، وانحنى لنا عندما رآنا، كما لو أنه في درس رقص. طويل ورشيق في لباس عسكري نظيف، وشعره داكن. وكان يجرّ إحدى ساقَيْه.

الآن - فقط - رأيتُ شخصاً ثالثاً غير معروف في الغرفة. يجلس دون حراك، بالقرب من النافذة، وعندما ناداه الرائد، جاء وعيناه ترمشان في ضوء الشموع. آسيوي مع خدَّيْن سمينَيْن، وعينَيْن صغيرتَيْن منفوختَيْن، عرّف نفسه لنا على أنه حارس الرائد. وبعد ذلك، اختفى فوراً مرّة أخرى في زاويته إلى جانب النافذة، رفع ياقته مع صفير الريح الداخلة.

مع الرجال الأربعة، جلسنا حول سرير هير پاولي. الأرملة، أنا، الرائد والملازم. الرائد قدّم للمحادثة. في زيارتهم، ترجمتُ أنا حسب طلبه العديد من تعبيراته المعقّدة من باب المجاملة للأرملة وهير پاولي اللذَيْن أعدّهما زوجَيْن. في أثناء الحديث، كنا ننظر لبعضنا سرّاً. بحذر، استكشفنا الحديث مع بعضنا. لم أتمكّن من التعرّف على شخصيته، وبقيتُ أراقبه. الرائد قدّم سجائر مفكّكة، كانت في جيب سترته. أخذ هير پاولي منه سيجارتَيْن، وشكره. وضع سيجارة في فمه، ووقف الرائد لإشعالها له. كلاهما دخّن سيجارته باهتمام، الرائد - بين الحين والآخر - يقدّم بلطف منفضة السجائر له. فجأة قفز من مكانه، وسألنا بأدب أن نقول في ما إذا كان يزعجنا، في هذه الحالة سوف يخرج فوراً. لا، لا، أكّدنا له بأنه لا يزعجنا. ولماذا يزعجنا؟! عندها جلس من جديد، واستمر في التدخين بصمت. رجل حقيقي. ومرّة أخرى، نموذج جديد تماماً من مجموعة أنواع بشرية، لا تنضب، أرسلها

لنا الاتحاد السوفييتي. وكان منفعلاً أيضاً. يده التي يمسك بها السيجارة ترتجف بشدّة. أو ربمّا مصاب بالبرد؟ لأنه قال لنا إنه قد جُرح في ركبته، وتمّ علاجه في المستشفى نفسه مع الملازم الأشقر. (إذنْ؛ يتم علاج الروس في المستشفى أيضاً. أودّ لو أعرف كيف تمكّنوا من ضبط الأزمة هناك، والى أين أرسلوا مواطنينا الذين كانوا يُشغلون كل سرير متاح في كل مكان في الاسبوع الماضي).

في غضون ذلك، اختفت الجوقة في غرفة الجلوس مع الأكورديون من شقّتنا. أصبح المكان هادئاً. نظرتُ إلى ساعة الملازم، كانت الساعة حوالي الحادية عشرة. نظرنا إلى بعضنا أنا، الأرملة وهير پاولي، نحن لا نعرف ماذا نفعل مع ضيوفنا.

عندها أعطى الرائد أوامره للآسيوي في الزاوية بالقرب من النافذة. بصعوبة سحب شيئاً من جيب سترته: زجاجة شمبانيا ألمانية حقيقية. وضعها على طاولة سرير هير پاولي. الأرملة ذهبت لجلب الكؤوس فوراً. قرعنا كؤوسنا. في أثناء ذلك، دارت محادثة بين الرائد والملازم بهمس، من الواضح أني لا ينبغي أن أسمع. حتّى تحوّل الرائد - فجأة - نحوي، وبصرامة المعلم، سألني: «ماذا تعرفين عن الفاشية؟».

«الفاشية؟» ردّدتُ متلعثمة.

«نعم. هل يمكن من فضلكِ أن تشرحي لي أصل الكلمة، وتقولي لي في أي بلد، نشأت هذه المنظمة السياسية؟»

فكّرتُ بشكل محموم، تأتأتُ بشي عن إيطاليا، موسوليني، الرومان القدامى، قلتُ إن الفاسيز تعني رزمة من العصي، حاولتُ شرح ذلك مع الاستعانة بعصا الملازم... وطوال هذا الوقت كانت يداي وركبتاي ترتجفان؛ لأني فهمت - الآن - لماذا الرائد هنا، وماذا يريد منّي. كان يريد أن يختبر قناعاتي السياسية، تحديد مضمون عقيدتي السياسية، معرفة ماضيّ؛ من

أجل ربطي بإحدى المنظمات الروسية، كمترجمة، أو بأي وظيفة أخرى. أو ربّما رجال الاستخبارات السوفييتية يرغبون في استخدامي كجاسوسة؟ ألف فكرة وفكرة مروّعة، لمعتْ في رأسي، شعرتُ أن يديّ باردتان، ومن الصعب إعطاء المزيد من الإجابات...

يبدو أني أصبحتُ شاحبة؛ لأن الأرملة التي لا تستطيع فَهْم أي كلمة، نظرتْ لي بعينَيْن خائفتَيْن حائرتَيْن. شعرتُ بالراحة عندما سمعتُ الرائد يقول للملازم بنبرة رضا: «نعم، لديها معرفة مقبولة في السياسة». رفع كأسه، وقرعه بكأسي.

يمكنني - الآن - أن أتنفّس، بشكل طبيعي. يبدو أن الامتحان قد انتهى، وليس لديّ أيّ رغبة في اختبار معرفتي الدراسية. شربتُ كأسي كله، وحصلت على القليل المتبقّي في الزجاجة. الأرملة كادت أن تنام على كرسيها. حان الوقت؛ لأن يفكر ضيوفنا في المغادرة.

فجأة تغيرّ الموقف بعرض مفتوح. الملازم قال في جملة واحدة: «الرائد - هنا - يريد أن يعرف إن كنتِ قد وجدتيه لطيفاً».

دون أن أقول كلمة، تثاءبتُ لكلا الرجلَيْن. الرائد دخّن سيجارته، بانفعال مفاجئ. ضغط الباقي في منفضة السجائر، ويبدو أنه لم يسمع ما سأله الملازم نيابة عنه. الآسيوي لا يمكنني أن أراه في الظلام. لا يزال يجلس إلى جانب النافذة، ولم يشرب من الشمبانيا.

الصمت ساد المكان. الأرملة تنظر لي بعينَيْن قلقتَيْن. ثمّ الملازم مرّة أخرى، قال بملل ولا مبالاة: «هل تجدين الرائد لطيفاً؟ هل يمكن أن تحبّيه؟».

من جديد هذه الكلمة اللعينة، لم أعد أستطيع سماعها. أنا مصدومة جداً، ويقظة، لا أعرف ماذا يجب أن أقول، ماذا يجب أن أفعل. الملازم ينتمي - أيضاً - إلى جماعة أناتول. هو يعرف أني مُحرّمة. هل هذا يعني أن أناتول

لم يعد موجوداً؟ هل أن هذا الرائد هو خليفته؟ هل يظن لهذا أني تابعة له؟ لكنْ؛ لا، الرائد قال للتوّ إنه يسكن في المستشفى، وإن لديه سريراً هناك.

وقفتُ، وقلتُ: «لا، لم أفهم».

الملازم عرج على عصاه خلفي في الغرفة، الرائد ظل جالساً على سرير هير پاولي، كما لو أن هذا كله ليس من شأنه.

بصوتٍ عالٍ تقريباً؛ قلتُ للملازم: «وأناتول؟! ماذا حدث لأناتول؟!».

«ماذا!! أناتول!» صاح بانفعال وحدّة. «ماذا به أناتول؟! لقد غادر منذ فترة طويلة، انتقل إلى مقرّ القيادة العامة».

ذهب أناتول؟! هكذا، دون أن يقول كلمة! هل هذا صحيح؟! لكنْ؛ يبدو أن هذا أكيد، نبرته كانت واثقة جداً، متعالية جداً ومُحَقِرة جداً.

شعرتُ بالدوار. الآن وقف الرائد أيضاً، ودّع الأرملة وهير پاولي بكل احترام، سمعتُ شكره وتقديره المتكرّر على حسن الضيافة. پاولي والأرملة لم يفهما من هذه القوادة أي شيء. لم أجرؤ على التحدّث معهما بالألمانية عندما كان الروسيين معنا. أنا أعرف أن الروس لا يحبون ذلك؛ لأنهم يشمّون منها - فوراً - رائحة تآمر وخيانة.

مع انحناءة لنا جميعاً، تحرّك الرائد باتجاه الباب. جاء الآسيوي يتهادى من عند النافذة. اصطحبتُهم مع الشموع. ببطء، كان يسير الرائد في المدخل، يسحب ساقه اليمنى، لكنه حاول إخفاء ذلك. الملازم الأشقر وخزني بكوعه، وسألني بانفعال: «الآن، كيف تفكرين - الآن - بالأمر؟» تبع ذلك نقاش قصير بينه وبين الرائد عن المكان الذي سوف يقضيان فيه الليلة، في المستشفى؟ أم...؟ والملازم سألني ببرود، لكنْ؛ بأدب من جديد: «هل يمكننا المبيت هنا؟ نحن الثلاثة؟» وأشار إلى الرائد، نفسه والآسيوي النصف نائم.

الثلاثة؟ بالتأكيد، ولمَ لا؟ عندها فكّرتُ أن لدينا حماية ذكورية لهذه

الليلة، وأوصلتُ الرجال الثلاثة في الغرفة الخلفية بجوار المطبخ. يوجد هناك أريكة عريضة مع عدد من البطّانيات. الملازم والآسيوي زاحماني، وتقدّما أمامي نحو الغرفة. الملازم أغلق الباب خلفه، لا أزال أرى أنه قد ترك المصباح اليدوي يُضيء.

كنتُ أقف في المطبخ، والشمعة في يدي. الرائد يقف إلى جانبي صامتاً. بلطف، سألني أين الحمّام؟ أشرتُ له على الباب، وأعطيتُه الشمعة. وبينما أنا أقف إلى نافذة المطبخ أنتظر، وأنظر في الظلام إلى الخارج، فَتح الملازمُ بابَ الغرفة من جديد، وهو يرتدي قميصه الداخلي، همس لي: «ما حدث بيننا - البارحة - لا يحتاج أن يعرف به أيّ أحد». وبعد ذلك، اختفى من جديد. فكّرتُ للحظة: «كيف - ما حدث بيننا؟» عندها اندفعت الليلة الماضية من جديد في عقلي، حبّ الكلاب، البصاق أمام سريري. يبدو لي أن هذا حدث منذ قرون. لقد تخلّصتُ منه بالفعل، نسيتُه تقريباً. لم يعد لديّ أيّ فَهْم للزمن. اليوم مثل الأسبوع، ودائماً ما يصبح هاوية بين ليلتَيْن.

الرائد ظهر من جديد، دخل معي إلى غرفتي. الآن سوف يفهم كلّ من پاولي والأرملة في الغرفة المجاورة - أخيراً - ماذا يحدث هنا. سمعتُ أصواتهما المكتومة عبر الجدار. أخرج الرائد شمعة جديدة كبيرة من جيبه، أسقط بعض القطرات منها في منفضة السجائر، أشعل الشمعة فيها، ووضع المنفضة على الطاولة قرب السرير. سأل بهدوء وقبّعته لا تزال في يده: «هل يمكنني البقاء هنا؟».

قمتُ بإيماءة عجز بيدي وكتفي. عندها قال بعينَيْن حزينتَيْن: «حاولي أن تنسي الملازم الأول. غداً سوف يكون بعيداً جداً عن هنا. لقد سمعتُ ذلك».

«وأنتَ؟»

«أنا؟ أوه، أنا سأظل هنا لفترة طويلة، طويلة جداً، على الأقل أسبوع،

وربّما لفترة أطول». وأشار إلى ساقه: «لا تزال هناك شظية. ولا أزال تحت العناية الطبية».

عندما أراه يقف هناك، أشعر بالأسف عليه. سألتُ إن كان يريد الجلوس. هو، ردّ بخجل: «يجب أن تكوني متعبة. الوقت متأخّر. متى تذهبين إلى الفراش؟» وذهب نحو النافذة (ليست سوى كتلة من الزجاج المكسور والكارتون. والآن لا تسمع من خلالها أي شيء، حرفياً أي شيء من الجبهة)، وتصرّف كما لو أنه ينظر إلى الخارج. في أقل من دقيقة، نزعت نصف ملابسي، ولبستُ بسرعة ثوب الأرملة القديم، وزحفتُ تحت البطانية.

اقترب، وسحب الكرسي إلى جانب السرير. ماذا يريد؟ يتحدّث مرّة أخرى؟ المزيد من حديث كتيبات قواعد السلوك، تحت عنوان: «اغتصاب نساء العدوّ»؟ لا شيء من هذا، كان يريد أن يُعرّف بنفسه جيداً، أخرج أوراقاً مختلفة من جيبه الداخلي، وضعها أمامي على البطّانية، قرّب الشمعة حتّى أتمكّن من الرؤية جيداً. هذا أول روسي يكشف هويته بكل تفاصيلها. أعرف الآن ما اسمه، متى وُلد، وأين، عرفت حتّى ما يملكه؛ لأن هناك كُتيّباً للمدّخرات البنكية من بين الأوراق من مدينة لينينگراد وفيه ٤٠٠٠ روبل. وبعد ذلك، جمع أوراقه مع بعضها مرّة أخرى. كان يتحدّث بروسية رفيعة، أعرف ذلك دائماً عندما لا أفهم - أحياناً - الجمل كاملة. هو واسع الاطّلاع، موسيقي، ويبذل جهداً كبيراً الآن؛ ليتصرف بنُبل. فجأة قفز مرّة أخرى، وسأل بعصبية: «أنا لستُ مزعجاً، أ ليس كذلك؟ هل تكرهينني؟ قولي بصراحة».

«لا، لا». لا، بالتأكيد، لا، هذا جيد. فقط لا أستطيع التركيز في هذه الحالة الجديدة. لديّ شعور مرعب بأني أذهب من يد ليد، أشعر أني ذليلة ومهانة، انحدرتُ إلى مجرّد غرض جنسي. ثمّ فكّرتُ من جديد: «وإذا كان الخبر صحيحاً، أن أناتول اختفى، أن هذا المُحرم الذي بنيتُه بمشقّة، هذا الجدار، قد أُزيل؟! أ ليس من المستحسن إعداد مُحرم جديد، ربمّا دائم، وأبني جداراً جديداً من حولي؟ كيف أكتشف ذلك؟».

الآن خلع حمالّةِ السلاح، ونزع سترته بوتيرة بطيئة، بينما كان ينظر لي، بطرف عينه. وأنا أجلس، وأنتظر، شعرتُ بالعَرَق في راحة يدي، أريد، ولا أستطيع أن أساعده، بأن أجعل الأمر أكثر سهولة له. حتّى قال بشكل مفاجئ: «أعطني يدكِ، من فضلكِ».

أنظر له، وفمي مفتوح. هل هذا ممكن، أن يستمر بدماثة أخلاقه إلى هذا الحدّ؟! يريد أن يُقبّل يدي؟ أم يريد أن يقرأ كفّي؟ لكنْ؛ لا، أخذ يدي بقوّة بين يدَيْه، وقال وفمه يرجف ونظرة شفقة في عينَيْه: «سامحيني، منذ زمن طويل، ليس لديّ زوجة!».

يجب عليه أن لا يقول ذلك. دون أن أعرف كيف حدث ذلك، وضعتُ رأسي - فجأة - على ركبته، وبكيتُ، بكيتُ من المعاناة والحزن. شعرتُ أنه يمسح بيده على شعري. فجأة سمعتُ شيئاً عند الباب، نظرنا إلى بعضنا. عند الباب، تقف الأرملة، وهي تمسك شمعة في يدها، وسألت بخوف عن ما حدث. أومأنا أنا والرائد لها بالذهاب. على أي حال، يمكنها أن ترى أنْ لا شيء حدث لي. وسمعتُ الباب يُغلَق من جديد.

بعد ذلك بقليل، وفي الظلام، قلتُ له كم أنا بائسة ومتألمة. سألتُه أن يكون حذراً معي. كان حنوناً وحسّاساً، ولم يقل شيئاً. تركني بسرعة، وشأني. تركني أنام.

كان هذا ثلاثائي، الأول من مايو.

اليوم التالي، الأربعاء. هذه هي المرّة الأولى من بين الليالي كلها التي أستطيع فيها النوم بوجود الرجال. كنتُ أستلقي - دون خوف - إلى جانب الرائد، ونمتُ نوماً طويلاً. كما يبدو ليس لديه واجب، ويمكنه تقسيم وقته بنفسه. تحدّثنا عن كل شيء، كان ودوداً وذكياً. اعترف - فجأة - أنه ليس شيوعياً. قال إنه ضابط استئناف، تخرّج في الأكاديمية العسكرية، ويكره

الجواسيس الشباب التابعين للكامسومول(*). من هذا استنتجتُ أن كبار الضباط - أيضاً - لديهم سبب للخوف من سيطرة الحزب. تفاجأتُ من حديثه معي، بهذه الصراحة كلها. على أي حال، ليس هناك شهود. وبشكل غير متوقّع، سأل إن كنتُ بصحة جيدة «هل فهمتِ حضرتكِ؟ - أقصد - هل فهمتِ؟ ...» (حضرتك، وأنتِ، لا يزال يخلط بينهما). قلتُ الحقيقة، بأني لم أعانِ من صحتي أبداً، لكني لا أعرف - بالطبع - إن كنتُ قد اكتسبتُ شيئاً من الذين اغتصبوني. هزّ رأسه، وتنهّد: «أوه، أولئك الهمجيون!» (الهمجي، تُلفظ خوليگان، كلمة تُستخدَم كثيراً في اللغة الروسية، للدلالة على الطفل الشقي، المشرّد، والوغد).

وقف، وارتدى ملابسه، ذهب إلى المدخل؛ لينادي على الحارس الآسيوي. جاء - فوراً - يتمايل، وهو يرتدي جواربه، وحذاؤه بيدَيْه. الملازم ظلّ خفياً، وربّما اختفى بالفعل. إلى جوارنا، سمعتُ الأرملة تتحرّك مُحدثة جلبة.

صباح بارد صاف من صباحات مايو. في الخارج، أصوات جلجلة السلاسل، وصهيل الخيول. الديك توقّف عن الصياح منذ فترة طويلة. لكنْ؛ لم نسمع صوت الكاتيوشا هذا الصباح، ولا إطلاق نار، لا شيء. الرائد يعرج في الغرفة المجاورة، يسحب ساقه، ويغنّي أغانٍ مختلفة بصوت جميل، من بينها الأغنية الساحرة: «ابقَ، ابقَ، لا تذهب بعيداً، حبيبي ..» جلس على حافة السرير، وعزف على هارمونيكا صغيرة، أخرجها من جيبه. بحماس شديد وبراعة. في غضون ذلك، ساعد الآسيوي (وأجاب عن سؤالي له، بأنه من أوزباكستان) سيده في ارتداء جزمته الجلدية الطويلة بحذر حتّى لا يؤذي ساقه المجروحة. نظر إلى الرائد باحترام، تنهّد، وقال بروسية تبدو غريبة: «أوه، أ ليس هذا رائعاً؟».

لاحقاً، عندما خرج الاثنان، سَمِعت الأرملة من شخص عند بيت الدرج

---

*) كامسومول (Komsomol): الاتحاد اللينيني العام لرابطة الشباب الشيوعي. منظّمة سياسية للشباب في الاتحاد السوڤيتي.

أن في حوالي الساعة الرابعة صباحاً وُقِّعت وثيقة استسلام برلين. أحدهم سمع ذلك عن طريق المستقبل البلوري.

كنا نظنّ أن السلام قد حلّ أخيراً، وكنا مسرورين، حتّى سمعنا - بعد وقت قليل - أن الحرب لا تزال مستمرّة بغضب، في الجنوب والشمال.

الأربعاء، الساعات تمضي ببطء، ومرّة أخرى، انقطعتُ عن الكتابة. لكنْ: لا أحد يولي اهتماماً بخربشتي. أكثر ما أتوقّعه أن يقول أحد الرجال: «هذا جميل. تعلّمي اللغة الروسية جيداً».

الأمر نفسه مراراً وتكراراً: الروس، الخمر، الطبخ، جلب الماء. في مكان ما هناك دعامة خشبية. بسرعة توجّهتُ لها قبل أن يأخذها آخر. اثنان من رجال أناتول جاؤوا من شقّة مهجورة؛ حيث سكنوا فيها مؤخراً، وبطّانيات وأفرشة على أذرعهم. إلى أين سيذهبون؟ ليس هناك أثر لأناتول. يبدو أن الملازم لم يكذب. علاوة على ذلك، وعدني الرائد عند ذهابه أنه سيعتني بي، وسيجلب لي الطعام والشراب. هذا يسعدني. انزعجتُ لأيام طويلة من أني يجب أن آكل من قطعة الزبدة التي جلبها هير پاولي معه. الآن حياة أخرى تماماً عن التي عشتُها في البداية، عندما كنتُ جائعة في غرفة العلّيّة الفارغة الباردة. أولاً ما تبقّى لدينا من التوزيع الألماني الأخير. ثمّ ما سرقتُه، المسروقات من ثكنة الشرطة، البطاطا من الثكنات. الأرملة لا يزال لديها - أيضاً - خزين صغير من البطاطا، الحبوب ولحم الخنزير المقدّد. ناهيك عن ما جلبه أناتول وجماعته معهم من خبز، سمك مملّح، لحم الخنزير المدخّن، لحوم معلّبة. (فقط الكحول لم يبقَ منها شيء). وجاء مع هذا كله علبتان من اللحم من الأيدي البيضاء لستيپان وأليوشا. كافٍ لبقائنا على قيد الحياة، لوقت طويل. في الواقع، لم آكل دهوناً بهذه الكمّيّة منذ سنوات، لم أشبع - بعد - الوجبات منذ شهور. لن يستمرّ هذا الوضع بطبيعة الحال. الآن لا يزال من الممكن إشباع نفسي، وملؤها بالطاقة.

الطقس بارد في الخارج، والسماء غائمة. اليوم كان عليّ الوقوف طويلاً في المطر عند المضخّة. في الحدائق، وعلى العشب المسحوق بأقدام الجنود يُشعلون حرائق صغيرة، أصوات رجال يغنّون مع الأكورديون. أمامي تقف امرأة، ترتدي حذاء رجل، وتلفّ شالاً حول رأسها، يغطّي نصف وجهها، وعيناها منتفختان من البكاء. الهدوء يعم المكان هنا لأول مرّة منذ أن جلبتُ الماء. الكاتيوشا صامتة. السماء عند الأفق لا يزال لونها أصفر من حرائق الليلة. لم يُطلَق المزيد من الرصاص. برلين هادئة. نحن نقف فقط، كان المطر ينزل بغزارة، ولم نتحدّث إلا قليلاً. المضخّة تُحدث صوتاً حاداً، وذراع التدوير تُصفّر. الروسيون يملؤون الدلو تلو الآخر، ونحن ننتظر. المرأة أمامي قالت لي بنبرة رتيبة إنها لم تُغتصب بعد؛ لأنها حبست نفسها مع أُخريات في القبو. لكن زوجها عاد من الحرب الآن، وهذا يعني أنها يجب أن تعتني به، أن تجلب الطعام، وتبقيه خفياً. الآن لم يعد بإمكانها حماية نفسها. في غضون ذلك، دمدمتْ خلفي امرأة شعثاء: «أريكتي المفضّلة، حرير بلون أزرق ملوكي، وكان لديّ - أيضاً - كرسيان منسجمان معها، قاموا بتكسيرها، وحرقها!» وأخيراً كان هناك رجل شاحب، جلد وعظم، وجهه صغير ليس أكبر من قبضة اليد، وكان لديه قصّة: عائلة في بيته أخفوا ابنتهم تحت المضجع، المفرش كان يتدلى إلى الأرض، الروس جلسوا دون أن يتصوّروا أن هناك بنتاً كانت تضطجع تحت... إن كانت هذه القصّة حقيقية أم لا، لا أعرف. لكنها مُحتمَلَة على أي حال. نحن نعيش - الآن - في عصر الروايات الهابطة والتافهة.

لا أستطيع الاختباء رغم أنني أعرف فجوة في القبو. وعلى أي حال، ليس هناك إنسان يحمل الماء والطعام لي إلى فوق. هذا جعلني أفكّر بعمّتي كلارا، ذات مرة عندما كنتُ في التاسعة، وأقضي العطلة في بيت جدّي، اختبأنا أنا وابنة عمّي كلارا في العليّة في بعد ظهر أحد الآحاد، وتسلّقنا إلى زاوية تحت ظلّة من القشّ الدافئ من حرارة الشمس بين العوارض الخشبية للسقف، ونهمس حول إنجاب الأطفال. كلارا أصغر منّي، لكنها أنضج منّي

بكثير، تحدّثتْ بهمس عن السكاكين الكبيرة التي تُقطع بها النساء؛ ليُخرجوا الأطفال. شعرتُ بضيق في حنجرتي من الرعب. حتّى نادت علينا جدّتي بصوتها الدافئ؛ لننزل من أجل أن نتناول «وجبة خفيفة» (وجبة الساعة الرابعة ما بعد الظهر). نزلتُ مرتاحة، وأنا أتعثّر، وأخذتُ نَفَساً خفيفاً عندما رأيتُ جدّتي في مئزرها الساتان، لم تُقطّع، بل لا تزال عريضة ومدوّرة، تضع نظّارتها النيكل على أنفها. تفوح منها رائحة القهوة وكعكة التفّاح، ودائماً كانت ترشّ الكعكعة بمسحوق السّكّر رغم أن الرطل منه في ذلك الوقت ثمنه ملايين الماركات. مع الكعكة، نسيتُ سكاكين كلارا، وخوفي. لكنْ؛ الآن صرتُ مقتنعة بأن الأطفال على حقّ في خوفهم من كل شيء جنسي، هناك يوجد الكثير من السكاكين الحادة.

الروس عند المضخّة لا يعيرون اهتماماً كبيراً للنساء اللواتي يجلبنَ الماء من هناك؛ لأنهم أدركوا - بالفعل - أن معظم مَن يخرجنّ للمضخّة نساء كبيرات في السّنّ، وبائسات. عندما أكون هناك، أقف عابسة، مقطّبة الجبين دائماً، أقوّس زاويتَي فمي إلى الأسفل، وأغمض عيناي نصف إغماضة؛ لأبدو كبيرة في السّنّ، وبائسة. في البداية، عندما كنتُ لا أزال غير معروفة، وأبدو غريبة، كان الروس يسألون - دائماً - عن عمري، وعندما أقول إني في حوالي الثلاثين، يبتسمون ابتسامة عريضة، ويقولون: «ها، هذا يجعلكِ أكبر سناً، يا ذكية». وعندما أُريهم هويّتي، يصدّقونني. مظهرنا يخدعهم دائماً، اعتادوا على زوجاتهم اللواتي يُنجبنَ الكثير من الأطفال، ويكبرنَ بسرعة. هم يجدوننا أصغر سناً من عمرنا الحقيقي رغم أن مظهرنا سيئ وبائس، بالمقارنة مع زمن السِّلْم.

روسي ذو خدَّيْن ورديَّيْن يتمشّى على طول صفّنا، ويعزف على الأكورديون. صرخ بنا: "گيتلر كابوت، گبلز كابوت، ستالين گوت!" (يسقط هتلر، يسقط گبلز، يعيش ستالين!) ضحك، ونعق بشتيمة، ثمّ ضرب رفيقه على كتفه، وصاح بالروسية، رغم أن لا أحد يفهم ما قال: «انظروا له! هذا الجندي

الروسي. لقد سار على قدَمَيْه من موسكو إلى برلين». وانفجروا ضاحكين من فخرهم بالنصر. يبدو أنهم متفاجئين - أيضاً - من وصولهم إلى هنا. ابتلعنا كل شيء، لكننا نقف، وننتظر.

عدتُ إلى المنزل مع دلوَيْن من الماء. في المنزل، كان هناك فوضى. جنديان غريبان يركضان من غرفة إلى أخرى، للبحث عن ماكينة خياطة. سمحتُ لهم برؤية ماكينتنا الزينكولسمنذ أن قذفها بيتكا، الروميو ذو الشعر الخشن، مثل كرة، لا تبدو بحالة جيدة. سألتُ لأي غرض يحتاجانها. اتضح أنهما يريدان إرسال حزمة إلى روسيا، ويرغبان خياطتها في شرشف. وهذا - بالطبع - لا يمكن أن تقوم به أي ماكينة خياطة، والطريقة الوحيدة الممكنة هي خياطته باليد. عن طريق سيل من الكلمات، أقنعتُهما بأن تقنية الماكينة الحديثة ليست متطورة إلى حدّ تلبية احتياجاتهما، وأن عليهما اللجوء إلى طريقة جدّاتنا اليدوية البسيطة.

أخيراً هزّا رأسيَهْما المستديرَيْن، واتفقا معي. كمكافأة، أومأ أحدهما برغيف كامل من الخبز. الأرملة فكّرتْ، وقرّرتْ تكليف زوجة الكُتُبي بهذا الأمر المَلَكي، فهي ماهرة باستخدام الإبرة، والخبز يمكن استخدامه، بشكل مفيد. رَكضتْ إلى السيدة، وجلبتْها من شقّتها الآمنة بثلاثة أضعاف من شقّتنا.

بعد بعض الوقت، دخلتْ متردّدة، لكنْ؛ في الوقت نفسه، كانت تنظر - بحرص - إلى الخبز. منذ أيام طويلة، كما قالتْ، لم تذُق طعم الخبز، وتعيش مع زوجها على الشعير والفاصوليا. جلستْ إلى جانب نافذة المطبخ، وخاطتْ - باهتمام - القماش الأبيض إلى صُرّة. المحتوى ظل مخفياً، بالنسبة لنا. كان مَلسمه ناعماً، أظن أن فيها ملابساً.

بذلتُ قصارى جهدي لتصوّر كيف يشعر هؤلاء الروس بين هذه الممتلكات المهجورة كلها. لكل بناية شققها المهجورة التي كانت تحت رحمتهم. كل قبو - مع ما فيه كله، من خزين - مفتوح لهم على مصراعَيْه. لا شيء في هذه المدينة لا يمكنهم الوصول إليه. إنه - ببساطة - كثير جداً.

لا يمكنهم تفقّد وفرة البضائع، ويلتقطون - من هنا وهناك - بعض الأشياء اللامعة، يفقدونها، أو يتخلّون عنها مرّة أخرى، ويأخذون الكثير معهم. وبعد ذلك، يرمونها بعيداً، إذا كان من الصعب جداً الاحتفاظ بها. للمرّة الأولى - الآن - أجرّب رجالاً، يختارون من غنائمهم؛ لإرسالها في طرد بريدي إلى الوطن.

عادة لا يكونون قادرين على معرفة قيمة الشيء، وليس لديهم أي فكرة عن النوعية والأسعار. وكيف يعرفون ذلك؟ طوال حياتهم، وهم يتصرّفون على أساس ما يُكلَّفون به، ولم تُتح لهم الفرصة للتقييم والاختيار. على سبيل المثال، عندما يسرقون الأفرشة، يفعلون ذلك - فقط - من أجل أن يستلقون عليها فوراً، سواء كانت مصنوعة من ريش الأوز أم من الصوف الخالص، بالنسبة لهم، هذا غير مهم. الأعلى قيمة - بالنسبة لهم - هي الكحول. زوجة الكُتُبي قالت لنا أخبارها، بينما كانت تجلس، وتخيط القماش. نعم، ستينشن لا تزال مختبئة في مخزن المؤن تحت السقف من قِبَل والدتها، وحالياً تظل فوق حتّى في النهار منذ أن اقتحم - ذات مرّة - روسيَّاْن شقّتهم، وبرصاصهم ملؤوا الأرضية بالثقوب. قالت أمها إنها تبدو شاحبة. لا عجب في ذلك أيضاً. لكنها - على الأقل – لا تزال عذراء. هناك - أيضاً - ساكنون جديدون في المبنى، أختان شابتان. اختارتا إحدى الشقق الشاغرة، وتقضيان أيامهما هناك بالاحتفال مع الروس. يجب أن يكون المكان بهيجاً جداً. وسمعنا - أيضاً - أن سيدة من البناية على الجانب الآخر من الشارع قد ألقت بنفسها من الطابق الثالث عندما لاحقها الإيفان. دُفنَت في الحديقة أمام السينما. هناك دُفِنَ الكثير من الناس، كما يبدو. لم أعرف بهذا كله، الطريق إلى المضخّة على الجانب الآخر، وأكثر من هذه المسافة، لا أمشي في الوقت الحاضر. وهكذا، بينما تجلس زوجة الكُتبي منهمكة في عملها، همست لنا بكل شيء تعرفه.

إشاعة. مع هذه الكلمة، أتخيّل - دائماً - امرأة متلثّمة، تتحدّث بصوت غير مفهوم. الإشاعة. نحن نقتات عليها. في عصر ما قبل التاريخ، كانت أخبار

وتقارير الأحداث كلها تصل الناس عن طريق هذه الفاما(*). المرء لا يستطيع تصوّر مدى تأثيرها على الثقافات السابقة، كم كانت غير واضحة وغير مؤكّدة نظرتهم للعالم ـ شبحية، كابوسية، غارقة بهمهمات الرعب والخوف، الأشرار والآلهة الغاضبة. أحياناً أشعر - في الأيام الأخيرة - أن لا شيء حقيقي في هذه الإشاعات كلها. ربّما أدولف قد وصل إلى فرانكو(**) عن طريق غوّاصة منذ فترة طويلة، وفي مكان آمن في إسبانيا، يضع الخطط لترومان(***) حول الكيفية التي يعود فيها الروس أدراجهم إلى روسيا. الشعور الأقوى دائماً إلى جانب هذا هو هزيمتنا، استسلامنا.

ظهر الروسيان مرّة أخرى، أخذا الحزمة المخيطة برضا وترحيب، وقدّما للمرأة خبزاً طازجاً. تحدّثتُ معهما. واتضح أنهما ليسا روسيَّيْن بالمعنى الأثنولوجي للكلمة. أحدهما قادم من منطقة نهر كوبان، ومن أصل ألماني، والآخر بولندي من ليمبرك(****). الأول يُدعى آدامز، أسلافه هاجروا منذ ٢٠٠ عام من فالز(*****)، ويمكنه - إلى الآن - التحدّث ببضع كلمات على أفضل ما يكون باللهجة الفالزية. الصبي البولندي وسيم مع شعر أسود وعينَيْن زرقاوَيْن، نشيط وسريع. في لحظة، قطّع لنا خشب الصندوق إلى حطب. تبادل بعض الكلمات البولندية مع الأرملة التي عاشت طفولتها في مزرعة في شرق - بروسيا، واكتسبت بعض اللغة البولندية. عرض عليّ المساعدة في جلب الماء. وافقتُ بتردّد. في المرّة الأولى، لجلب الماء هذا الصباح، اكتشفتُ ملصقاً على الباب مكتوباً باللغة الروسية والألمانية، يشير إلى أن

---

*) الفاما (Fama): إلهة الشهرة والإشاعة في الأساطير الرومانية.

**) فرانسيسكو فرانكو (Francisco Franco): القائد والديكتاتور الإسباني حكم من ١٩٣٦- وحتّى وفاته ١٩٧٥.

***) هاري ترومان (Harry S. Truman): الرئيس الثالث والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية، تولّى المنصب من ١٢ أبريل ١٩٤٥ حتّى ٢٠ يناير ١٩٥٣.

****) ليمبرك(Lemberg): اللفظ الألماني لـ Lviv لڤيڤ: هي مدينة في غرب أوكرانيا.

*****) فالز (Pfalz): منطقة في جنوب غرب ألمانيا

الروس - من الآن فصاعداً - لا يُسمَح لهم بدخول المنازل الألمانية، أو التعامل مع المواطنين الألمان.

ذهبنا، وكنتُ سعيدة؛ لأني - بهذه الطريقة - سوف أدّخر ساعة من الوقوف في صفّ الانتظار، إذا ضخّ روسي الماء من أجلي، سيكون لي الأولوية. عندما خرجنا إلى الشارع، نادى ضابط على رفيقي البولندي: «هَيي، أنتَ هناك، ماذا تفعل مع هذه الألمانية؟!» غمز لي البولندي، وظل خلفي. التقيتُه مرّة أخرى عند المضخّة؛ حيث خدمني في الحال. في صفّ الانتظار، لاحقتْني نظرات، قرأتُ فيها مرارة واحتقاراً. لكنْ؛ لم يقل أي أحد أي شيء.

البولندي كان سريع الغضب. في طريق عودتنا، تشاجر مع جندي روسي، بلا سبب، كان يهدّد بقبضته، يتذمّر ويهدر كل مَن حوله، يزمجر، ويستنشق الهواء. بسرعة، عاد هادئاً من جديد، وجاء لي، وقال بينما يشير إلى مؤخّرة رأسه، إنه منذ أن أُصيب بجرح في رأسه في معركة ستالينگراد يعاني من نوبات من الغضب. حتّى إنه - في كثير من الأحيان - لم يعد يعرف ماذا يفعل. لم يكن هكذا في السابق. نظرتُ له بخوف، وعجّلتُ بالعودة مع دلوي. وبالتأكيد يحمل البولندي ميدالية معركة ستالينگراد النحاسية السمينة، ملوّنة وملفوفة بشريط من السيلوفان. شعرتُ بالراحة عندما اختفى، حالما وصلنا إلى البناية. عدم السماح بدخول منازل الألمان سيستغرق بعض الوقت من التراخي في تنفيذه، كما أظن. على الأقل مادام الجزء الكبير من المساكن المهجورة بين مساكننا - حتّى الآن - يقيم فيها الروس، بشكل رسمي.

الخميس، ٣ مايو ١٩٤٥، مع بقية يوم الأربعاء.

حدث شيء مضحك. بينما كنتُ أقف عند المضخّة مع البولندي، ظهر بيتكا للأرملة، مغتصبي السابق ذو الشعر الخشن، محطّم ماكينة الخياطة. يبدو أنه كان قد نسي تصرّفه، وهو سكران؛ لأنه كان ودوداً للغاية، كما قالت الأرملة. كان معه حقيبة جلدية صفراء جميلة، كبيرة بعض الشيء، الحجم الحقيقي المناسب لبيتكا، شخص آخر سوف لن يمكنه حملها. نشر محتواها أمام الأرملة، وأومأ لها بأن عليها أن تختار فقط، يمكنها أن تأخذ ما تريد. لكنه قال لها: لا شيء، لا شيء، لا شيء «لها»، ويقصدني أنا، بالطبع. كان هذا - بالتأكيد - مجرّد كلام؛ لأن الأرملة لن تمنعني من أخذ أي شيء، أريده من هداياها. كان يحاول - في الواقع، بطريقة غير مباشرة - المباهاة بهداياه؛ ليحصل على فرصة أخرى لما يسمّيه هو حباً، فرصة أخيرة، وسريعة، لأنه قال للأرملة - بالفعل - «دَسيدانيه» (مع السلامة)، جماعته كلهم لاذوا بالفرار...

مع انتصار واضح على الذات، رفضت الأرملة الهدية، وأبعدت بيتكا مع حقيبته. وبالمناسبة، ليس من أجل اعتبارات أخلاقية "لماذا فكرت بهذه الطريقة!" لاحظت الأرملة أن الأغراض لعائلة ألمانية راقية. «لِمَ لا» قالت، «هم سرقوا حقيبتي أيضاً». اعتراضها كان ذا طابع عملي بحت. «لا يمكنني ارتداء تلك الأشياء» قالت، «تلك الحقيبة جاء بها من إحدى البيوت في الحي. عندما أظهر بهذه الملابس، هناك خطر أن أواجه المالك الفعلي». أخذتْ - فقط - زوجَيْن من الأحذية؛ لأنها لم تستطع مقاومتها، كانت الأحذية مقاسها، بالضبط. أحذية مشي بنّيّة، نوع يرتديه الجميع. علاوة على ذلك،

قالت الأرملة، يمكن - بسهولة - صبغها باللون الأسود، وبهذا لن يُلاحظ أحد أي شيء. عرضتْ عليّ زوجاً من الأحذية، ويمكنني استخدامه؛ لأني لا أملك سوى الحذاء الذي أرتديه. مع الأسف، الحذاء صغير جداً، بالنسبة لقَدَمي.

ما بعد الظهر، كان هادئاً، لم نعد نرَ أيّ أحد من معارفنا، لا أناتول، ولا پيتكا، گريشا، ڤانيا، ياشا أو أندريه المتعلم. لكنْ؛ في المساء، وصل الرائد في الموعد المحدّد. كان يرافقه الأوزباكستاني المرهق، وشخص آخر، والحمد لله، لم يأتِ معهم الملازم مع عصاه. لا، كان شاباً صغيراً مع خدَّيْن حمراوَيْن، ويرتدي زيّ البَحْرِيّة الأزرق، جندي في سلاح البَحْرِيّة السوڤييتية في الثامنة عشرة من عمره. شيء غريب أن برلين - الآن - أصبحت - بالفعل - مُحتلَّة من المياه! البحيرات - هنا - كثيرة، على أي حال. البحّار يبدو وكأنه طالب مدرسة، ويبتسم ببراءة ابتسامة عريضة عندما يسألني إن كان يمكنه أن يطلب منّي شيئاً.

«بالتأكيد» قلتُ له، وأومأتُ له أن يأتي بقرب النافذة التي لا تزال تنفذ من خلالها رائحة حريق إلى الداخل. بعد ذلك، سأل البحّار - بلطف وطريقة طفولية - إن كان بإمكاني إيجاد فتاة له، لكنْ؛ يجب أن تكون نظيفة ومرتّبة، بالإضافة إلى ذلك، يجب أن تكون صالحة ولطيفة. وسوف يقدّم الطعام لهذه الفتاة.

حدّقتُ في الشاب، وبصعوبة كبحتُ ضحكتي. هذا مثير للسخرية حقاً! الآن يطلبون بأنفسهم أن تكون ضحية متعتهم نظيفة ولطيفة، أن يكون لديها صفات نبيلة. قريباً سيطلبون - أيضاً - بياناً من الشرطة لحُسن السلوك قبل أن تستلقي الضحية على ظهرها. لكن البحّار الشاب كان ينظر بتفاؤل، ولا تزال ملامحه صبيانية؛ بحيث لا يمكنني أن أغضب منه. لذا؛ هززتُ رأسي، وقلتُ له إني أسكن هنا منذ فترة قصيرة، وأعرف القليل جداً من الناس. لهذا من المؤسف أني لا أستطيع أن أخبره أين يمكن أن يجد فتاة صالحة ومرتّبة. استمع لي، وكان يبدو القلق على وجهه. أصابعي كانت تحكّني،

كانت لديّ رغبة شديدة في معرفة إن كان خلف أذنه لا يزلل رطباً؛ (إي إن كان عديم التجربة، ربمّا لا يعرفون هذا التعبير في روسيا). على أي حال، لديّ خبرة كافية لأعرف أن حتّى هذا الرجل اللطيف يمكن أن يتحوّل إلى وحش مفترس، إذا حاول أحدهم الإساءة لقيمته الذاتية. لكنْ؛ ما أريد أن أعرفه هو لماذا يتمّ اختياري - دائماً - على أني خاطبة. من المحتمل؛ لأني الوحيدة في الجوار التي تفهم احتياجاتهم.

بحّاري الشاب اختفى من جديد بعد أن شكرني، وصافحني بيده الصغيرة. لماذا يرغب هذا الشاب بالنساء؟! أعرف جيداً أنهم في روسيا ينتظرون لفترة أطول قبل الزواج رغم أنهم يرغبون في الزواج المبكّر أكثر من الرجال الألمان. أتصوّر أن هذه السراويل الداخلية للجنود، كما هو الحال مع ڤانيا ذي السادسة عشرة، مغتصب النساء في بيت الدرج، يريدون أن يثبتوا إلى رفاقهم الأكبر سنّاً أنهم رجال حقيقيون.

نعم، الخروقات الجنونية الوحشية للأيام الأولى انتهت الآن. الضحايا أصبحوا نادرين. والنساء الأخريات أيضاً، كما سمعتُ، هنّ - الآن - في أيد قوية، ومُحرّمات. سَمِعت الأرملة - أيضاً - تفاصيل أكثر عن الأختَيْن المرحتَيْن في الشقّة المهجورة. هناك يُسمَح للضباط - فقط - بالدخول، غير المسموح لهم أو الجنود العاديون سيُلقى عليهم اللوم عندما ينتهكون منطقة سريرهنّ المحرمة. عموماً يحاول كل شخص لم يتلقّ أوامر الزحف بعد إقامة علاقة عاطفية ثابتة، وهو على استعداد لدفع الثمن. معنا أُقيمت العلاقة ببؤس عن طريق الأكل، وهم فهموا ذلك. لغة الخبز، لحم الخنزير المقدّد والسمك المملّح - هداياهم المهمّة - لغة مفهومة دولياً.

الرائد جلب لي كل ما هو ممكن، ليس هناك ما أشكو منه. كان لديه تحت سترته علبة من الشموع. وبعض السجائر لهير پاولي. الأوزباكستاني كان محمّلاً بالكثير من الأشياء، حمل - تباعاً - علبة حليب، علبة لحوم، ولحم خنزير مملّحاً. وأيضاً قطعة من الزبد ملفوفة بقماش، تزن حوالي ثلاثة

أرطال، متشبّثاً بها بعض الزغب الذي كشطته الأرملة فوراً. وعندما كنا نظن أن هذا كل شيء، جاء مرّة أخرى مع غطاء وسادة مليء بالسّكّر، حوالي خمسة أرطال. هذه هدايا ملكية بعد ليلة عرسنا. هير پاولي والأرملة وقفا صامتَيْن.

الأرملة خزنت الغنيمة كلها في خزانة المطبخ. هير پاولي والرائد جلسا يدخّنان ينفثان دخان السجائر بود، وأنا جلستُ معهما، وأفكر. هذه حالة جديدة. لا أستطيع القول إن الرائد قد اغتصبني. أنا أعرف أن كلمة واحدة منّي كافية لجعله يخرج، ولا يعود - أبداً - مرّة أخرى. لهذا أنا مستعدّة لخدمته طواعية. هل أفعل ذلك بدافع العاطفة، الحاجة إلى الحب؟ لا سمح الله! في لحظة، لم أستطع تحمّل هؤلاء الرجال كلهم مع رغباتهم الذكورية كلها، وبالكاد يمكنني تصوّر أني أرغب بهذه الأشياء. هل أفعل هذا - إذنْ - من أجل لحم الخنزير، الزبد، السّكّر، الشموع، علب اللحوم؟ نعم، إلى حدٍّ ما. أجد من المزعج أن آكل من خزين الأرملة. أنا سعيدة الآن؛ لأني أستطيع أن أساهم - أيضاً - بشيء عن طريق الرائد. أشعر أني أكثر حُرّيّة، أستطيع تناول الطعام دون شعور بتأنيب الضمير. من ناحية أخرى، أجد الرائد رجلاً لطيفاً، ويزداد إعجابي به، كلّما قل ما يريده مني كرجل. وهو لا يريد أكثر من ذلك، هذا ما لاحظتُه. وجهه شاحب. يعاني من جرحُ في ركبته. ربّما هو بحاجة إلى عاطفة إنسانية، أنثوية، أكثر من حاجته إلى متعة جنسية. وهذه العاطفة أُعطيها له عن طيب خاطر، نعم، وبكل سرور. بالمقارنة مع الرجال المتوحّشين في الأيام الأخيرة، هذا الرجل من الممكن تحمّله، كرجل، وكإنسان. علاوة على ذلك، يمكنني قيادته. لم أجرؤ على فعل هذا مع أناتول رغم أنه كان لطيفاً للغاية معي. كان شرهاً، مثل ثور، وقوياً جداً. بشكل لا إرادي، سوف يضربني، لو اعترضتُ، سوف أبصق أسناني من فمي، ليس من الغضب، لكنْ؛ كفائض من قوّته؛ لأنه كان مثل محارب هائج. من ناحية أخرى، هناك حديث مع الرائد.

السؤال الذي لم يسبق لي أن أجبتُ عنه هو: هل عليّ أن أرى نفسي

عاهرة؟ أو باغية؟ لأني - عملياً - أعيش على جسمي، وأحصل على المواد الغذائية؛ لأني زوج متاح. بينما أنا أكتب هذا، أسأل نفسي لماذا اتّخذتُ هذا الموقف الأخلاقي، وتصرّفتُ، كما لو أن مهنة العاهرة أقلّ بكثير من قيمتي. إنها مهنة قديمة أيضاً، ووصلتْ إلى أعلى المستويات الاجتماعية. حتّى الآن أتذكّر أني تحدّثتُ مع امرأة، مارست المهنة، بشكل رسمي. كان ذلك على سفينة في البحر الأبيض المتوسط، في مكان ما قريب من الساحل الأفريقي. نهضتُ مبكّرة، وتمشّيتُ قليلاً على سطح السفينة، بينما كان البحّارة يفركونه. كان هناك امرأة أخرى على سطح السفينة، لم أرها - أبداً - من قبل، كانت سمينة، ترتدي ملابس محتشمة، وتدخّن سيجارة. اقتربتُ منها، وقفتُ إلى جانب الدرابزين، وبدأنا في الحديث. تعرف القليل من الكلمات الإنكليزية، كانت تدعوني بالآنسة، وعرضتْ عليّ سيجارة. بعد لحظات، أوقفني المضيف، وقال لي هامساً بنبرة دراماتيكية بأنها امرأة ذات سمعة سيئة، كانوا مرغمين على أخذها معهم، ويُسمَح لها بالظهور على سطح السفينة - فقط - في الصباح الباكر، عندما لا يكون أي أحد من المسافرين مستيقظاً. لم أرها مرّة أخرى أبداً، لكني أستطيع تذكّر وجهها السمين اللطيف. «سمعة سيئة» قد يكون هذا! لكنْ؛ بصرف النظر عن الجانب الأخلاقي، هل سأدخل في هذه المهنة، وأكون سعيدة؟ لا، على الإطلاق. إنها ضدّ طبيعتي، تُقلّل من احترامي لنفسي، تدمّر اعتزازي بنفسي، وتحطّمني جسدياً. وهذا ليس خطيراً. سوف أترك هذه المهنة - لو يمكنني تسمية نشاطي الحالي هكذا - بأسرع ما يمكن، بمجرّد أن أجد طريقة أخرى مناسبة أكثر لي في الحصول على الطعام والشراب.

في الساعة العاشرة، أرسل الرائدُ الأوزباكستانيَّ إلى الغرفة خلف المطبخ. ومن جديد، اهتزّت حمّالة السلاح على سريري، تدلّى مسدس منها، وتوّجت قبّعة الضابط الكرة في اللوح الرأسي من السرير. لكن الشمعة لا تزال مشتعلة، وتحدّثنا مع بعضنا عن كل شيء. أريد القول إن الرائد هو مَن يتحدّث. تحدّث عن عائلته، وأخرج من محفظته صوراً صغيرة. صورة والدته، شعرها أشيب،

وعيناها سوداوان واسعتان. والدته من الجنوب؛ حيث استعمره التتار لفترة طويلة، وتزوّجت من سيبيري أشقر. الرائد يشبه والدته في ملامحه. شخصيته أصبحت - الآن - أكثر وضوحاً، بالنسبة لي؛ لأني سمعتُ عن هذا المزيج من الدم الشمالي والجنوبي. تقلّباته المفاجئة من النشاط إلى البلادة، من الحماس إلى الكآبة، وتصاعد انفعالاته العاطفية ومزاجه السيئ المفاجئ. كان متزوّجاً، لكنه طلّق زوجته منذ مدّة طويلة، من الواضح أنه زوج صعب، كما قال هو عن نفسه. ليس لديه أولاد، وهذا أمر نادر جداً عند الروس. لاحظتُ ذلك؛ لأنهم كانوا يسألون إن كان لديّ أطفال، ويهزّون رؤوسهم دلالة على تعجّبهم عندما أقول لهم إن لدينا القليل من الأطفال، والكثير من النساء بلا أطفال. وأيضاً لن يصدّقوا أن الأرملة ليس لها أولاد.

الرائد سمح لي برؤية صورة أخرى. صورة فتاة ذات وجه جميل مع شعر مفروق بدقة، بنت أستاذ بولندي، قضى الشتاء الأخير معها.

عندما سألني الرائد عن علاقاتي العائلية، أعطيتُه إجابات مراوغة. بعد ذلك، كان يريد أن يعرف ما هو تعليمي المدرسي. بكل احترام، أنصتَ إلى ما قلتُه عن المدرسة الثانوية، أكاديمية الفنون، دراستي للغات، وسفري في البلاد الأوروبية كلها. قال ممتدحاً بأني تمتّعتُ بتعليم جيد. فجأة أعرب عن استغرابه من أن الفتيات الألمانيات جميعهنّ رشيقات دون دهون زائدة. هل كنا نأكل القليل من الطعام؟! ثمّ صوّر كيف سيكون الأمر لو أخذني معه إلى روسيا، لو كنتُ زوجته، سوف يعرّفني على والدَيْه... وعدني بأنه سوف يغذّيني بالدجاج المشوي والكريما؛ لأصبح سمينة؛ لأنهم قبل الحرب كانوا يقضون وقتاً طيباً هناك... تركتُه يحلم.

شيء واحد مؤكّد، أن «ثقافتي» - التي قاسها - بالطبع - بالمقياس الروسي المتواضع - زادتْ احترامه لي، ورفعتْ من قدري عنده. هناك فرق مهم مع رجالنا الألمان، الذين أحكم عليهم، من خلال خبرتي معهم، بالنسبة لهم، الثقافة الواسعة لا تزيد من جاذبية المرأة، بأي حال من الأحوال،

على العكس تماماً، كنتُ أفتعل الغباء، وعدم المعرفة دائماً حتّى أتعرّف على الشخص المَعني بشكل أفضل. الرجل الألماني يريد - دائماً - التظاهر بالذكاء، وتوضيح الأمور «زوجته الصغيرة». الرجل الروسي لا يعرف شيء عن "الزوجة الصغيرة" التي تعتني ببيتها الدافئ. التعليم يحظى بتقدير كبير عندهم، هو مادة مطلوبة، وحاجة ملحّة، حتّى إنهم - رسمياً - يحيطونه بهالة عظيمة. لهذا يُدفعون جيداً للمعرفة في روسيا، قال الرائد بأني سوف أكون مؤهّلة هناك - دائماً - لوظيفة. شكراً لكَ، أنت تقصد الخير، لكني اكتفيتُ من هذه الوظيفة إلى الأبد. لقد منحتُموني الكثير من الدورات المسائية. لا أرغب بدورات مسائية بعد الآن. أُحبّ أن أحتفظ بأمسياتي لنفسي.

بدأ بالغناء مرّة أخرى بنعومة وحزن. يمكنني الاستماع له. الرائد رجل عاقل، عادل وصريح. لكنه غريب جداً، وساذج جداً. ما نحن الغربيون إلا قدامى وخبراء، ومع هذا، نحن - الآن - لسنا سوى قمامة تحت جزماتهم.

بالإضافة إلى ما أتذكّره كله عن هذه الليلة أني نمتُ جيداً، وحلمتُ أحلاماً رائعة. في الصباح، حاولتُ معرفة كلمة حُلم باللغة الروسية من الرائد، من خلال وصف مصطلحات مثل «فيلم في رأسك»، «صور بينما عينَيْك مغلقتَيْن، أشياء غير واقعية في نومكَ». وأخيراً نجحتُ في ذلك. كلمة أخرى غير موجودة في قاموس الجنود.

حوالي الساعة السادسة صباحاً، توّجه الرائد إلى الغرفة الجانبية؛ ليستدعي حارسه الأوزبكستاني، لكنْ؛ ظل كل شيء ساكناً في الداخل. بخوف وانفعال، جاء؛ ليأخذني معه، ظَنّ أن هناك شيئاً، قد حدث لحارسه، ربمّا فقد وعيه، أو قتل نفسه! حرّكنا قبضة الباب، ضربنا بأيدينا على باب الغرفة الخشبي. لا صوت. لكنْ؛ يمكننا أن نرى أن المفتاح في الباب من الداخل. لا أحد، حتّى الآسيوي نفسه لا يمكنه النوم عميقاً على هذا النحو. ركضتُ إلى غرفة الجلوس، وأيقظتُ الأرملة من نومها، همستُ في أذنها عن ما يقلقنا.

«هراء» قالت الأرملة، وهي تتثاءب. «هو يريد - فقط - التأخّر؛ ليجرّب حظه معك في ما بعد».

رغم أن هير پاولي يتحدّث - دائماً - عن «مكر النساء» لدى الأرملة لا يمكنني أن أصدّقها الآن، وضحكتُ لها.

اختفى الرائد - أيضاً - بعد أن نظر إلى ساعته مرّات عديدة. (ساعة روسية، أثبت لي ذلك في بداية صداقتنا من خلال العلامة التجارية للشركة المصنّعة).

سرعان ما ذهب، ومَن ظهر هناك في المدخل، نائماً، وبكامل ملابسه؟! السيد أوزباك!!

جاء لي، ينظر لي بعينَيْه المنتفختَيْن والمستاءَتَيْن، بشكل غريب الآن، أخرج من جيب سترته زوج جوارب حريري، ودفعها لي تحت أنفي، وهو يقول بروسية مكسّرة: «هل تريدين؟ أقدّمه لكِ. هل فهمتِ؟».

لقد فهمتُكَ جيداً، أيها السمين! فتحتُ الباب الأمامي على مصراعَيْه، وأشرتُ له نحو الدرج. «اخرج!» قلتُ له بالألمانية. فهمني، وذهب يتهادى بعيداً. نظر لي لمرّة واحدة بعينَيْن لامعتَيْن معاتبتَيْن، وحشر الجوارب في جيبه من جديد.

(واحد - صفر) لصالح مكر النساء!

ليلة الخميس ٣ مايو إلى الجمعة ٤ مايو ١٩٤٥.

نحن الثلاثة والظلام. أنا أجلس وحدي على فراشي، وأكتب على ضوء الشمعة. يمكن أن أسمح لنفسي بهذا الترف؛ لأن الرائد أثرانا، بما قدّمه لنا من شموع.

طوال يوم الخميس، عانينا - مرّة أخرى - من الضيوف. ظهر ثلاثة من رفاق أناتول، بشكل غير متوقّع، جلسوا حول المائدة، يتحدّثون، يدخّنون، يبصقون على الأرض، وواصل الفونوغراف تدوير قرص الأغنية الشائعة لمصنع الملابس. رداً على سؤالي عن أناتول، وهو سؤال مخيف تماماً، رفعوا أكتافهم، لكنهم أشاروا - على أي حال - إلى أن عودته ليست مستحيلة. بالإضافة إلى ذلك، ظهر - مرّة أخرى - خبّاز الجنود بردائه الأبيض، وكرّر أسطوانته، إن كنتُ أعرف فتاة له، في مقابل الكثير من الطحين.

لا، لا أعرف فتاة للخبّاز. الأختان المرحتان في أيدي الضباط. ستينشن ذات الثامنة عشرة عاماً، أُخفيَتْ جيداً في مخزن المؤن تحت السقف. في الأيام الأخيرة، لم أسمع أي شيء عن بنتيّ البوّاب، أفترض أنهما قد تمّ إخفاؤهما في مكان ما. البائعتان في المخبز، هربتْ إحداهما، يجب أن تكون قد اختبأت في قبو آخر. الثانية أُخفيَتْ، حسب قول الأرملة، في غرفة النوم. حرّكوا خزانة كبيرة، ووضعوها أمام باب مشترك بين غرفتَيْن، والنافذة أغلقوها بستارة حاجبة للضوء. سوف يكون المكان كئيباً لتلك الفتاة. بقيتْ - فقط من الناحية النظرية - الفتاة الشابة التي تبدو كرجل شاب، مِثْلِيّة، عمرها أربعة

وعشرون عاماً. سمعنا أن الروس لم يتمكّنوا منها حتّى الآن. تتجوّل أمامهم، وهي ترتدي بدلة رمادية مع قميص وربطة عنق، قبّعة رجالية، تغوص حتّى عينَيْها. شعرها قصّته قصيراً. استطاعت أن تتجاوز الروس، الذين يظنون أنها رجل، هم لا يعرفون مثل هذه القضايا الخلافية، هي تمشي كرجل، تجلب بنفسها الماء، وتقف، وهي تدخّن السيجارة عند المضخّة.

هير پاولي كان يُطلق النكات على هذه الفتاة. يتمنّى لها إعادة تدريب مناسبة، ويقسم أن هذا سوف يكون عملاً جيداً، إن أرسلنا لها عدداً من الرجال، پيتكا - على سبيل المثال وذراعاه القويان - بدأنا - تدريجياً - نتحدّث بفكاهة عن مغتصبي النساء، على الرغم من أنها لا تزال فكاهة سوداء.

لدينا سبب كافٍ لذلك! على سبيل المثال ما بعد الظهر، أكّدت السيدة ذات الخدّ المُتقرّح نبوءتي، ومن ثمّ؛ يجب أن نؤمن بها. عندما كانت تريد الذهاب إلى الجيران، قبض عليها شابان في طريقها على الدرج، وأدخلاها إلى إحدى الشقق الفارغة. هناك كان عليها أن تكون تحت وطأتهما لمرَّتَيْن، أو بالأحرى مرّة ونصف، كما عبّرت عن ذلك بحيرة. أحدهما أشار إلى الالتهاب الجلدي على وجهها،وسأل: «زُهري؟» عندئذ هزّت رأسها مرتعبة، وصرختْ «لا». بعد ذلك بوقت قصير، جاءت، وهي تتعثّر إلينا، استغرق الأمر عدّة دقائق قبل أن تتمكّن من نطق كلمة واحدة. ساعدناها بكأس من البورغونيه لتجاوز الأمر، وبعد ذلك، قالت بمرارة: «وهذا ما انتظرتُه سبع سنوات» (المدّة التي ابتعدتْ فيها عن زوجها). وعندها قالت لنا كيف كان الحال في الشقّة التي اقتيدتْ إليها. «رائحة نتنة، كانت هناك!» قالت، وهي ترجف، «قضوا حاجتهم في كل مكان!».

بفضل ذلك، تَعلّمت اللغة الروسية، بجدّيّة. أخذتْ قاموساً، ونسختْ منه بعض الكلمات. الآن تريد أن تعرف منّي النطقَ السليم. الالتهاب الجلدي يظهر تحت عينَي، أدهنه بالمرهم؛ ليبدو مثل قطعة من القرنبيط الفاسد.

لكني - بشكل آخر - قد تعلّمتُ - في الآونة الأخيرة - التعامل بشكل أقل تحفّظاً ممّا اعتدتُ عليه.

عَدَدْنَا الشقق المهجورة - أيضاً - مستباحة، وأخرجنا منها ما نحتاجه. وبهذا أخذتُ من الشقّة المجاورة لنا (حيث من بين أمور أخرى، يستخدمون حوض الغسيل فيها كمرحاض) حفنة من الفحم الحجري، مطرقة، وجرَّتَيْن من الكرز المخلّل. نحن نعيش بشكل جيد، وحرصنا على تغذية العالة پاولي بشكل جيد على فراش مرضه. لقد حصل على خدَّيْن سمينَيْن، وهو يرقد على سرير مرضه.

في المساء، وعلى حين غرّة، دخل الغرفة أناتول. بشكل غير متوقّع، لقد نسيتُه تقريباً. شعرتُ بالخوف، وقلبي بدأ يخفق بشدّة. لكن أناتول ضحك، ولفّ ذراعه حول عنقي، يبدو أنه لا يعرف أي شيء عن الرائد. اتّضح أن ما قيل صحيح، وأنه قد انتقل - بالفعل - إلى الشؤون الإدارية؛ لأنه - بالدرجة الأولى - تمّ تزويدهم، بأغراض جديدة. قال إن مركز المدينة قد دُمّر. وإن العَلَم السوڤييتي يرفرف على أنقاض مبنى الرايخستاك وبوّابة براندنبورك. ذهب إلى كل مكان. عن أدولف، لا يمكنه أن يقول أي شيء، لكنه أكد انتحار گبلز مع زوجته وأولاده. توجّه أناتول نحو الفونوغراف، وما إن وضع يده على غطائه، تكسّر في يده إلى خمسة أجزاء. ظل ينظر بحيرة إلى الأجزاء المتكسّرة.

صور مشوّشة، صور ممزّقة، اختلط كل شيء مع بعضه في رأسي، لا يمكنني فصل الأشياء عن بعضها. مساء آخر مع الكثير من الڤودكا. ليلة أخرى. أنصتُ برعب إلى كل صوت يأتي من الخارج، أجفل مع كل وقع قَدَم. كنتُ خائفة من أن الرائد سوف يأتي، لكنه لم يأتِ. ربمّا الملازم الأشقر، الذي يعرف أناتول وجماعته قد بلّغ الرائد بعودة أناتول. أناتول من جانبه قد سمع شيئاً عن الرائد، وكان يريد أن يعرف إن كنتُ أنا وهو... أنكرتُ ذلك، وقلتُ إننا كنا نتحدّث - فقط - عن السياسة. بالنسبة له، أكّد لي أنه لم يلمس أيّ فتاة أخرى غيري في برلين. وأظهر - بعد ذلك - الرسائل التي وصلتْه من

الوطن: أربع عشرة رسالة، ثلاث عشرة منها مُرسَلَة من قِبَل نساء. ابتسم بخجل، لكنه كما هو واضح: «نعم، جميعهنّ يحببنني».

لأن أناتول قال بلا مبالاة إنه يجب أن يغادر في حوالي الساعة الثالثة ليلاً إلى مقرّه الجديد في مركز المدينة، ومن المحتمل أنه سوف لن يعود مرة أخرى، حاولتُ - قدر استطاعتي كسب الوقت. سمحتُ لنفسي بقراءة الرسائل كلها، طرحتُ أسئلة لا حصر لها، وأقنعتُه أن يريني مسار الجبهة على الخريطة. شجّعتُ رفاقه على الاستمرار في الشرب، وتشغيل الأقراص، وطلبتُ منهم أن يُغنّوا لي، ونفّذوا طلبي بحماس. حتّى طردهم أناتول أخيراً. في الفراش، بقيتُ أحاول كسب الوقت، وأخبرتُه - أخيراً بعد أن أشبع رغبته لمرّة واحدة - أن عليه أن يتوقّف - الآن - لأني متعبة، مرهقة، وأني بحاجة جداً إلى الراحة. وبعد ذلك، ألقيتُ خطبة صغيرة، واقترحتُ عليه أن لا يكون واحداً من هؤلاء الـ «الهمجيين» بل؛ إنسان حسّاس، يقظ ومهذّب. باختصار، مختلف عن الباقين، أنبل وأفضل منهم. تقبّل هذا كله، وإن كان على مضض، وبين الحين والآخر، يعود إلى رغبته الذكورية في التزاوج، شيء كنتُ أستطيع التغلّب عليه في الوقت المناسب لحسن الحظّ. النتيجة كانت - بالطبع - أني لم أستطع النوم، ولو لدقيقة واحدة. لكنْ؛ أخيراً، أصبحت الساعة حوالي الثالثة، وكان على أناتول أن يغادر. بلطف، ودّعتُ سريع الانفعال أناتول، لكني تنفّستُ براحة أخيراً، وكان يمكنني مَدّ أطرافي بهدوء من جديد. بقيتُ مستيقظة لفترة طويلة؛ لأن شعوراً أبلهاً قد لازمني، أن كل ما فعلتُه قد أصبح مكشوفاً، ولهذا يمكن أن يظهر الرائد فجأة أيضاً. لكنْ؛ لم يأتِ أحد إلى الآن. صاح الديك في الخارج. والآن، أريد النوم.

عودة إلى يوم الجمعة ٤ مايو،
كُتب يوم السبت ٥ مايو ١٩٤٥.

في حوالي الساعة ١١:٠٠ من صباح يوم الجمعة، ظهر الرائد، كان قد سمع أن أناتول كان هنا، وكان يريد أن يعرف إن كنتُ أنا وهو... قلتُ لا، مجرّد أنه احتفل، وشرب مع رفاقه، وكان يجب أن يغادر في الوقت المناسب. صَدّق ما قلتُ. شعرتُ بأني قذرة. إن عاجلاً أم آجلاً سوف يلتقيان بعضهما، بشكل غير متوقّع. ماذا يجب أن أفعل؟ لستُ سوى غنيمة، ويجب أن يُترَك للصيادين حُرّيّة التصرّف بالغنيمة ومَن يستولي عليها. لكني أتمنى من قلبي كله أن لا يعود أناتول مرّة أخرى.

هذه المرّة، حمل الرائد معه حلويات مختلفة من مخازن القوّة الجوّيّة، غذاء القوّة. أكلناها كوجبة خفيفة، نحن الثلاثة؛ لأن الرائد كان عليه المغادرة سريعاً. كان يجب على الرائد أن يغادر بسرعة. عندما أخبرتُه عن عرض الجوارب من قِبَل حارسه، لم يكن يعرف إن كان عليه أن يضحك أم يغضب. أخيراً قرّر أن يضحك. بنبرة قاسية قال إنه سوف يعود مساءً، ونظر لي بحدّة. الآن أنا لستُ متأكدة من أني أستطيع السيطرة عليه، يجب أن أكون حذرة، وأحفظ جيداً أنهم «السادة» الآن.

ما يزعج الأرملة في الوقت الحاضر هو شراهتنا أنا وهير پاولي في تناول الطعام، نمسح الزبدة بسمك الأصبع على الخبز، نسكب السّكّر، ونريد أن تُقلى البطاطا بالدهن. لكن الأرملة تحسب كل بطاطا نأكلها. لديها الحق،

إلى حدّ ما. مخزوننا قَلّ بشكل ملحوظ. صحيح أن هناك كيساً من البطاطا لا يزال في القبو، لكنْ: لا يمكننا الوصول إليه. سكّان بنايتنا حظروا الوصول إلى القبوْ بكومة من النفايات، حطام أشياء متكسّرة، كراسي، أفرشة مرنة، خزانات، وأعمدة خشبية. هذا كله مربوط بقوّة بأسلاك وحبل. يتطلّب الأمر ساعات لفكّ هذه الفوضى عن بعضها. ليس هناك ناهب، لديه الصبر على ذلك، وهذا هو المقصود من هذا الحاجز. «لاحقاً» سوف نُعيد كل شيء إلى حالته الطبيعية، متى يأتي هذا الـ «لاحقاً»، لا أحد يعرف بالطبع.

اليوم يوم مجنون. ما بعد الظهر، ظَهَر أناتول فجأة، هذه المرّة على الجزء الخلفي من درّاجة نارية. أشار من خلال النافذة إلى الدرّاجة النارية مع السائق الذي ينتظره. يمكن أن يبقى لوقت قصير، إذنْ: لحسن الحظ. وهذه المرّة، أَقسم لي أن هذه هي زيارته الأخيرة. سوف ينتقل إلى مكان خارج برلين، إلى أين؟ لم يرغب في القول. في مدينة ألمانية؟ رفع كتفَيْه، وابتسم. وماذا يهمّني؟! أردتُ أن أعرف - َفقط - إن كان - حقاً - سيذهب بعيداً الآن. الأرملة سلّمتْ عليه، بلطف، لكنْ: بتحفّظ. ترى الأشياء من خزانة مطبخها؛ ومنحت الأفضلية إلى الرائد الذي ترك على الرفوف رواسب مختلفة جداً عن ما تركه أناتول.

جلستُ إلى جانب أناتول على حافة السرير، وتركتُه يتحدّث عن درّاجته النارية التي يعتزّ بها كثيراً. عندئذ فُتح الباب بفضل الكرسي الذي ينزلق - دائماً - على نحو معاكس. بجنون وبانزعاج، نظر أناتول. الأرملة مع وجه أحمر، وشعر منكوش. خلفها روسِي زاحم؛ ليدخل الغرفة. عرفتُه: كان الشاب البولندي الوسيم من ليمبرك الذي أُصيب بجرح في رأسه في معركة ستالينگراد، ولديه موهبة خاصة في نوبات الغضب. يبدو أن نوبة غضب، انتابته من جديد. بدأ بالصراخ - فوراً - عليّ، وعلى أناتول، ودعانا إلى أن نكون حَكَمَيْن: هو رجل شاب، ولديه الحقوق نفسها، ليس لديه زوجة منذ فترة طويلة وزوج الأرملة (ويقصد هير پاولي الذي ينام في الغرفة المجاورة)، لا

حاجة إلى أن يلاحظ أي شيء. هذا ما حدث بالفعل! حرّك عينَيْه بسخرية، لوّح بقبضتَيْه، وهزّ شعره. يبدو أكثر فأكثر أنه على قناعة تامّة بحقّه في الأرملة. الآن حاول التحدّث بالبولندية، ألقتْ عليه كلماتها البولندية، حدث كل شيء، بانفعال كبير. في غضون ذلك، حاولت الأرملة تجفيف دموعها.

أناتول نظر لي أولاً، ثمّ للأرملة، من الواضح أنه لا يريد التورّط في الأمر. ليس هناك شيء مهم، قال لي، وكان عليّ أن أُهدّئ من روع الأرملة، انتهى الأمر بلمح البصر، ويجب أن لا تنفعل بهذه الطريقة. بعد ذلك، قال للبولندي إنه لا يستطيع التدخّل، وإنه مستعجل؛ لأن عليه المغادرة فوراً. ودفع الكرسي على الباب مرّة أخرى. بسرعة همستُ للأرملة ببضع كلمات. أخبرتُها عن الجرح في رأس البولندي، ونوبات الغضب، وذكّرتُها بذلك الآن. إنه يصبح خطِراً للغاية، إذا لم ينل رغبته. وأناتول سوف يغادر، ولا يستطيع مساعدتنا. أو ربّما من الأفضل أن توقظ الأرملة هير پاولي، وهو مَن يطرد البولندي؟ هزّت رأسها: «ما فائدة ذلك؟» وبدأت بالبكاء. البولندي هدأ في غضون ذلك، مسح على رأسها، وغادرا الغرفة معاً.

بعد ربع ساعة، سمعنا ضجّة في الأسفل، وسارت الدرّاجة النارية بعيداً. أناتول جلس على المقعد الخلفي، نظر - مرّة أخرى - إلى أعلى، رآني، وأنا أقف أمام النافذة، وألوّح بيدي. بعد ذلك، اختفت الدرّاجة النارية عند الزاوية.

طوال ما بعد الظهر، تجنّبت الأرملة أن تقول لي شيئاً. كانت غاضبة. وفي المساء، قالت لي ما حدث. الشاب الشيطان كان هادئاً وودوداً، أو بالأحرى كان مملاً حتّى ذلك الوقت. وبعد ذلك، تركها وشأنها. وأثنى عليها قبل مغادرته، في البداية، لم ترغب في الحديث عن هذا، ولكنْ: في النهاية، منحت سرّها: «الأوكرانيات هكذا. أنتِ هكذا»؛ حيث الـ «هكذا» الأولى دائرة، شكّلتها من إبهامَيْن وسبابتين، والـ «هكذا» الثانية دائرة، شكّلتها من إبهام واحد وسبابة واحدة.

ماذا حدث بعد؟ أوه، نعم، ضحية جديدة عند بيت الدرج، عجوز - مرّة أخرى - في الستين من عمرها. الشابات لا يجرؤن على نزول الدرج في النهار. هذه المرّة كانت واحدة من الأخوات - البودنغ الأسود الثلاث. سمعنّ أن رجال أناتول تركوا شقّتهم، عندها دخلنَ - الثلاثة - معاً تحت حماية الهارب من الخدمة العسكرية، الغرف المهجورة، وأخرجنَ ماكينة الخياطة الخاصة بهنّ من تحت النفايات، وأخذنَها إلى فوق. إحدى العمّات نزلت وحدها لالتقاط بعض الخيوط، وكان يمشي شاب مسلّح في ذلك الوقت. الأرملة تحدّثتُ إليها مساءً، وكانت لا تزال مستلقية على الأريكة، وتنتحب في شقّة الكُتُبي، وحولها مجموعة كبيرة من النساء تبكي معها. هذه السيدة - أيضاً - كانت لا تزال ممتلئة. مع السمينات، السنّ غير مهم.

في غضون ذلك، تمكّنوا - أيضاً - من بنت البوّاب، قالت لي والدتها عند المضخّة. في الأيام الأولى، اختبأت العائلة، الأم، البنتان والحفيد ذا الثلاث سنوات، جيداً في أحد الأقبية، قبو مغلق في الجوار. لكنْ؛ عندما سمعوا أن الإيڤان قد هدؤوا بعض الشيء، كانت الفتاتان تذهبان في النهار إلى شقّتهم في الطابق الأرضي؛ ليطبخنَ، ويغسلنَ. حتّى فاجأهنّ هناك شابان ثملان، كانا يغنيان. البنت الكبرى لم يقتربا منها. لقد رأيتُهما فيما بعد، ويمكنني أن أعرف السبب: كانت نحيفة جداً، وجهها كان ذابلاً، ويمكن للمرء أن يرى الجمجمة من خلال الجلد. البنت الصغرى، همستْ والدتها لي؛ لأنها سمعت أن الروس لا يحبّون النساء الحائضات، حصّنت نفسها بالقطن. لكن هذا لم ينفع. الأشرار رموا القطن، وهم يهدرون من الضحك في أنحاء الغرفة جميعها، والفتاة ذات السادسة عشرة عاماً، وضعوها على الأريكة الطويلة في المطبخ. «هي أفضل الآن» قالت الأم التي كانتُ مذهولة تماماً. ومع ذلك، صعدت البنت - بالفعل - ثلاث درجات أخرى إلى شقّة الكُتُبي وزوجته. وهناك تباهت الفتاة أمام الجميع بأن الروس جاؤوا لها - مباشرة - دون أن ينظروا إلى أختها.

شخص آخر جاء لتوديعي: أندريه، المتعلّم ذو العينَيْن الزرقاوَيْن

الصافية. جاء، وجلس - لبعض الوقت - معي إلى الطاولة، تحدّث عن السياسة، وبصوته الناعم المتمكّن ألقى محاضرة؛ حيث ذُكرت كلمات مثل: «سّوزالستيچسكي، كابيتلستيچسكي، إكيناميچسكي» (اشتراكي، رأسمالي، اقتصادي)، وأمثالها من المصطلحات. في غضون ذلك، كنتُ أُخفي منشفتي بهدوء، وأُصلّح حمّالة الجوارب التي تلفتْ عند الاغتصاب. تدريجياً، عاد لنا الشعور بالنظام.

في المساء، جلسنا، الأرملة، وزوجة الهارب من الخدمة العسكرية، وأنا، نحن الثلاثة على ضوء الشمعة، إلى جانب سرير هير پاولي. أعطينا للسيدة شمعة مقابل علبة ثقاب. الرائد وظلّه البدين ظهرا في الوقت المعتاد. عزف بعض الألحان الحماسية العنيفة على الهارمونيكا الصغيرة خاصته - هارمونيكا هونر الألمانية، من غنائم الحرب. أخيراً ترك حارسه يساعده في خلع جزمته، ورقص بجواربه كراكوڤياك. خصره يتمايل، كان واعياً لحركاته الرشيقة. وبعد ذلك، رقص التانغو مع الأرملة، بينما نحن نغنّي، وعزف - مرّة أخرى - على الهارمونيكا، هذه المرّة ريگولَيتو. من المدهش تمكّنه عزف الكثير من الموسيقى من أداته الصغيرة تلك. الأوزباكستاني لم تطرف عيناه شديدتا السواد لحظة واحدة إعجاباً به، وكان يُثني عليه بلغة روسية طفولية غير مفهومة: «أوه، إنه بارع. أوه، كما لو أن ليس له مثيل». وأيضاً شجّع الرائد على غناء أغنية أوزباكستانية لنا. بصوته الأنفي، رائعة جداً. وبعد إلحاح طويل، حاول الرقص بقدَمَيْه القصيرَتَيْن السمينَتَيْن.

ضيفتنا، البرلينية القوية، شربتْ معنا من نبيذ الرائد، وكانت راضية بمجاملته الاحتفالية. بينما كان يرقص مع الأرملة، همستْ لي: «من أجله، سوف أنسى كل شيء».

بقي الرائد معنا. كانت ليلة صعبة. نتيجة ذلك الرقص كله، تورّمت ركبته من جديد، وسبّبت له الكثير من الألم. يتأوّه عندما يحرّكها. تجرّأتُ - بالكاد - على التزحزح قليلاً. لكنه تركني، وشأني. ونمتُ نوماً عميقاً.

السبت ٥ مايو ١٩٤٥.

سماء مايو الكئيبة اليوم. البرد لا يريد أن يحيد. أجلس على كرسي أمام نار الموقد التي حاولنا إبقاءها مشتعلة بأنواع الأدب النازي جميعها. عندما يفعل هذا الجميع - وهم يفعلون هذا - سوف يصبح كتاب أدولف «Mein Kampf» (كفاحي) نادراً للمولعين بالكُتُب.

استهلكتُ - بشهية للتوّ - قدراً كاملاً، دهنتُ خبزتي بطبقة سميكة من الزبدة، بينما الأرملة تصبّ فوق رأسي نبوءات سوداوية. لم أستمع لها. لا قلق من أجل يوم غد. الآن أريد أن أعيش بشكل جيد قدر استطاعتي، وإلا أنحسر في مسار حياتي هذا مثل ممسحة رطبة. وجهي يبدو لي مدوّراً في المرآة من جديد. اليوم تحدّثنا نحن الثلاثة عن المستقبل. هير پاولي ذهب في أفكاره مرّة أخرى، يجلس خلف مكتبه في مصنع المعادن، يسعى لانتعاش اقتصادي واسع النطاق بمساعدة المنتصرين. طلبت الأرملة إن كان من الممكن أن لا تطهي الطعام في مقصف المصنع نفسه؛ لأنها متشائمة من احتمال تغطية نفقاتها من الفائدة الضئيلة، من تأمين زوجها المرحوم على الحياة، وتخاف من أنها سوف تضطر إلى البحث عن العمل. وأنا؟ درستُ أشياء مختلفة، على أي حال، سوف أجد عملاً في مكان ما. لن أقلق. بثقة عمياء، أُبحر في سفينتي بين المَدّ والجزر، إلى الآن، تحملني - دائماً - إلى الضفة الخضراء للنهر.

لكنْ؛ بالنسبة لبلدنا، شعبنا، نحن نخشى الأسوأ. لقد قادنا مجرمون

ومغامرون، ونحن سمحنا بذلك، مثل غنم، يقودونه إلى الذَّبْح. الآن اضطرمت حرائق الكراهية عالياً في القوّات البائسة، وسوف تقضي علينا. «لا شجرة عالية بما يكفي، بالنسبة له» قال أحدهم البارحة عند المضخّة عن أدولف.

بعد الظهر، ظهر رجال مختلفون أمام بابنا، أريد القول، رجال ألمان من بنايتنا. كان إحساساً غريباً أن نتعامل مع رجالنا من جديد، الرجال الذين على الأقل لا نخاف منهم، الرجال الذين لا حاجة لمراقبتهم. جاؤوا بأسطورة الكُتُبي التي عمّت أصداؤها البناية كلها. الكُتُبي، الباڤاري، رجل قصير وسمين، صاح في وجه الروسي، بشكل عملي وحقيقي. حدث هذا عندما عادت زوجته من المضخّة مع دلوَيْن من الماء، قبض عليها إيڤان عند باب المنزل. (لا تسمح لزوجها الذهاب إلى المضخّة؛ لأنه كان عضواً في الحزب) عندما بدأت المرأة بالصراخ، خرج هو راكضاً من الشقّة، وقف بوجه الإيڤان مباشرة، وصرخ: «أنت كلب ملعون، خنزير قذر!» والأسطورة تقول أيضاً، إن الروسي أصبح صغيراً جداً بعد ذلك حرفياً، تذلّل، ولاذ بالفرار... إذنْ؛ هذا ممكن. بغريزته الحيوانية البدائية، عرف الروسي - بوضوح - أن الرجل قد رأى خرقة حمراء، وأنه في هذه اللحظة لن يخيفه شيء أبداً، ولهذا ترك غنيمته وشأنها.

هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها أن أحد رجالنا قد فقد السيطرة على نفسه. الغالبية عقلاء للغاية، يتخذون مواقفهم بحكمة، يحاولون الفرار بجلودهم، ونساءهم تدعمهم بقوّة في تحقيق هذا الأمر. ليس هناك رجل يفقد هيبته، لمجرّد أنه ترك امرأته أو جارته للمنتصرين. بل على العكس تماماً: الناس يلومونه عندما يُزعج «السادة» بمقاومتهم. ومع ذلك، لا يزال هناك بقية غامضة. أنا على قناعة من أن زوجة الكُتُبي لن تنسى لزوجها نوبة الشجاعة تلك، نوبة الحب، إذا صح التعبير. والرجال الآخرون الذين نقلوا هذه القصّة كانت نبرة الاحترام واضحة جداً في أصواتهم.

الرجال لم يأتوا لنا للتسلية، بل ليقدموا مساعدتهم لنا. حملوا معهم ألواحاً خشبية ومسامير، وبعد أن نشروا الخشب على طاولة المطبخ حسب

القياس، ثبّتوها، بشكل عَرضي على الباب الخلفي. يجب أن يحدث هذا بسرعة، ينبغي أن لا يدخل أيّ روسي. وكمكافأة، أعطينا الرجال سجائر من الصندوق المليء بالسجائر، الذي حمله معه الرائد البارحة. نعم، نحن أثرياء.

عندما وُضعت الألواح الخشبية على الباب كله، صعد روسي الدرج الخلفي. حاول بركلات قوية تدمير العمل الذي انتهى للتوّ، لكنه لم ينجح. تنفّسنا براحة، من جديد، وشعرنا بارتياح كبير. الآن لم يعد هناك رجال غرباء يتدفّقون إلى شقّتنا في الليل والنهار. رغم أنهم يأتون إلى الباب الأمامي، لكن ميزته أن قفله جيد، ومصنوع من خشب صلب. مَن نعرفه غالباً ما ينادي من الخارج، بكل طمأنينة: «زدَچس أندريه!» أو أي شخص آخر. واتفقتُ مع الرائد على إشارة معينة في قرع الباب.

حدث شيء مؤثّر: في ما بعد الظهر، جاءت فرولاين بين، فرسنا القيادي الحازم من أيام القبو. انتقلْت للسَّكَن - الآن - عند فراو ليمان الشابة التي فقدت زوجها عند الحدود الشمالية، و تساعدها مع طفلَيْها الصغيرَيْن. لا المرأة الشابة، ولا فرولاين بين اغتُصبنَ إلى حد الآن رغم أنهما - في الواقع - جذّابتان. حاجزهما ودرعهما: الطفلان الصغيران. منذ الليلة الأولى التي جاء فيها الروس، كان بإمكانهنّ أن يلاحظنَ كيف يتصرفون مع الأطفال. ليلتها كان هناك رجلان فظّان، اقتحما الشقّة، بتهديد السلاح والصراخ، تدبّرا دخولهما، ضربا فرولاين بين التي فتحت لهما الباب. توجّها إلى الغرفة، وتوقّفا عند سرير طفل نقّال؛ حيث على ضوء الشمعة، ينام كل من الطفل الرضيع والطفلة ذات الأربع سنوات لوتس معاً. قال أحدهما بالألمانية، وهو متفاجئ، بشكل واضح: «طفل صغير؟» وقفا كلاهما يحدّقان بالطفلَيْن لفترة، ثمّ غادرا الشقّة على أطراف أصابعهما.

الآن سألتْني فرولاين بين إن كنتُ أريد الذهاب إلى أعلى لبضع دقائق، لديهما ضيفان روسيان، شاب ورجل بالغ، وهما اللذان ظهرا بالفعل لمرّة

واحدة من قبل، واليوم حملا معهما الشوكولاتة للطفلَيْن. تريدان الحديث معهما، وطلبتا منّي أن ألعب دور المترجمة.

جلسنا هناك متقابلَيْن، الجنديان، فرولاين بين، فراو ليمان، لوتس ذات الأربع سنوات في حجرها، وأنا. أمامنا في العربة، يجلس الطفل الرضيع. ترجمتُ ما طلبه منّي الرجل الأكبر سناً من الروسيَّيْن: «كم هي طفلة حلوة! جميلة حقاً». ولفّ حول أصبعه خصلة من الشعر المجعّد الأشقر للطفل الرضيع. ثمّ طلب منّي أن أترجم للسيدَتَيْن أن لديه طفلَيْن أيضاً، وَلَدَيْن، يسكنان عند جدّتهما في البلدة. وأخرج صورة من محفظته الكارتونية الممزّقة: رأسَيْن بشعر خشن، على ورق صور بنيّ باهت. لم يرهما منذ ١٩٤١. غالبية الروس لم يسمعوا - بعد - عن شيء من قبيل الإجازة. كلّهم - تقريباً - منذ بداية الحرب؛ أي منذ حوالي أربع سنوات، انفصلوا عن عوائلهم؛ لأن بلادهم - بلا أدنى شكّ - كانت مسرحاً كبيراً للحرب طوال الوقت، والمواطنين انتشروا في كل مكان، لهذا لا أحد يعرف - بالضبط - أين يمكن أن يجد عائلته. بالإضافة إلى المسافات الشاسعة في بلادهم، والمواصلات البدائية. ومن الممكن - أيضاً - أن أصحاب السلطة كانوا خائفين، على الأقل، في السنوات الأولى للمسيرة الألمانية، من أن رجالهم سوف يهربون، أو يُدبِرون. على كل حال، الجندي الروسي ليس لديه حقّ في إجازة مثل جنودنا. شرحتُ للسيدتَيْن ما قاله، وفراو ليمان قالت بتفهّم: «نعم، هذا يفسّر الكثير».

الضيف الروسي الآخر رجل شاب، عمره سبعة عشر عاماً، كان من البارتيزان(*) وغادر غرباً مع القوّات العسكرية. كان ينظر لي، وجبهته عابسة، وطلب منّي أن أترجم أن الجنود الألمان قَتَلوا الأطفال في قريته طعناً، وأطفالاً آخرين، أمسكوهم من أقدامهم، وضربوا رؤوسهم بالحائط. قبل أن أترجم ما

*) البارتيزان (partisan) حركات المقاومة التي نشأت في الدول المحتلّة، واشتركتْ في ميادين القتال ضدّ الاحتلال النازي خلال الحرب العالمية الثانية.

قاله، سألتُه إن كان قد سمع بهذا أم رآه بنفسه. بتجهّم قال لهم: «رأيتُ ذلك بنفسي مرَّتَيْن» وترجمتُ كلامه.

«لا أصدّق هذا» قالت فراو ليمان. «جنودنا؟ زوجي؟ أبداً!» وفرولاين بين قالت، ينبغي عليّ أن أسأل الروس إن كان الجنود المَعنيون «طائر هنا» (على الذراع) أم «طائر هناك» (على القبّعة) تريد أن تقول، إن كانوا من الفيرماخت أم من الـ إس إس. الروسيان فهما القصد، بوضوح، بلا شكّ أنهما قد تعلّما في قريتهما معرفة الفرق بين الاثنَيْن. لكنْ؛ حتّى لو كان الـ إس إس هم مَن فعلوا ذلك، في مثل هذه الحالة وحالات أخرى، سوف يُحمِّل المنتصرون شعبَنا ذنوبَ أفعالهم، ونحن جميعاً مَن سيدفع الثمن. جرى الحديث عن هذا لعدّة مرّات عند المضخّة، وتردّدت الجملة التالية: «أفعال جنودنا هناك، لا تختلف كثيراً عن ما فعله الروس هنا».

صمت. حَدّقنا حولنا. هبط شبح الحزن على هذه الغرفة. الطفل الرضيع لا يعرف أي شيء. يعضّ سبابة رجل غريب، يصيح ويصرخ بانفعال. شعرتُ بغصّة في حلقي. الطفل بدا لي مثل معجزة، وردي وأبيض مع شعر نحاسي - أشقر، ينمو - هنا - في هذه الغرفة العارية، نصف الفارغة، بين شعبنا الشرير. فجأة عرفتُ لماذا انجذب المحارب للطفل.

الأحد، ٦ مايو ١٩٤٥.

في البداية، عودة إلى بقية يوم السبت. ظهر الرائد من جديد في الساعة الثامنة مع حارسه الغبي. هذه المرّة، حمل معه - من أكياسه التي لا تنضب - سمكتَيْن من سمك الترس، ليستا كبيرتَيْن، لكنهما طازجتَان. الأرملة رشّت السمك بفتات الخبز، وقَلَتْه. أكلنا معاً، الأوزباكستاني - أيضاً - أخذ معه قطعة، وذهب - مباشرة - إلى زاويته عند النافذة؛ حيث يجلس هناك - دائماً - مثل كلب مخلص . كانت وليمة احتفالية.

هل سيقضي الرائد الليلة هنا؟ عندما أكون وحدي، لا أجرؤ على خلع ملابسي، ولا أجرؤ على النوم وحدي في الغرفة، أعرف ذلك. رغم أن الباب الخلفي مُغلق الآن، رغم أن الحرب في الخارج لم تعد مُحتدمة، ظل هناك خوف شديد فينا جميعاً. خوف من سكران، أو جندي نصف مجنون، يمكنه أن يقتحم المنزل. الرائد يحمينا من هذا كله. اليوم كان يعرج. ركبته لا تزال متورّمة. الأرملة المفيدة في مثل هذه الأشياء، صنعتْ كمّاداتٍ له قبل أن يستلقي على السرير إلى جانبي. ذلك المساء - أيضاً - كشف لي الكنية المضحكة التي اختارتها والدته له. وترجم اسمي إلى اللغة الروسية، حصلتُ على اسم دَلَعٍ مصغّرٍ. الآن نحن صديقان حقيقيان. ومع ذلك، بقيتُ أقول لنفسي إن عليّ أن أظل حذرة، وأتحدّث بأقل قدر ممكن.

في الصباح، كنا وحدنا مرّة أخرى، نجلس على سرير هير پاولي، نتناول الفطور، ونُنصت إلى الأصوات في الخارج. بعد ذلك بقليل، غامرت الأرملة

عند بسطة الدرج وركضتْ إلى الأعلى، إلى شقّة الكُتُبي؛ حيث هناك - دائماً - دزّينة من الجيران يتجمّعون مع بعضهم. عادتْ بعد لحظات. «بسرعة، أعطيني ما تبقّى من الفازلين. شخص...» تنهّدت، وعيناها مليئتان بالدموع.

سمعت الأرملة أن صانع الخمور عاد إلى زوجته الليلة الماضية. عبر الحدود والقوّات الروسية. عاد متسلّلاً، ويجرّ معه إلفيرا ذات الشعر الأحمر التي كانت تعمل معه في المصنع. لماذا، لا أعرف. هل كانا يريدان الدفاع عن المقطرة؟ يجب أن تكون هذه هي الغرائز البشرية البدائية. عندما يصبح الإنسان مهدّداً، يتشبّث - دائماً - بممتلكاته.

ذهبنا معاً إلى الطابق الرابع، الأرملة وأنا. اتّضح أن زوجة صانع الخمور ذات الصدر الممتلئ هي الأولى من بيننا التي تمّ تكريمها بالـ «التودّد» الروسي، منذ ذلك الوقت - منذ أكثر من أسبوع - ظلّت تعذّب نفسها في شقّتها. ملأت حوض الاستحمام في شقّتها بالماء، لا يزال لديها بعض الخزين، وتعيش هناك وحدها تماماً. أتفهّم ذلك. إنها حقيقة (لاحظناها في وقت متأخّر إلى حدّ ما) أن الروس لا يحبّون صعود ونزول الدرج. الجزء الأكبر منهم كانوا أبناء فلاحين، نشؤوا قرب الأرض، لم يتدرّبوا على صعود الدرج. ربّما - أيضاً - كان لديهم شعور بأنهم سوف يُقطَعون إذا ارتفعوا عالياً جداً عن الأرض، وأن رحلة نزول أربعة أدراج تستغرق وقتاً طويلاً ... باختصار، لم يغامروا بهذا الارتفاع من قبل تقريباً.

دخلنا الشقّة على أطراف أصابعنا، كما لو أننا ذهبنا لزيارة شخص مريض جداً. المرأة ذات الشعر الأحمر تجلس على كرسي المطبخ، وتحدّق أمامها. تضع قدَمَيْها في دلو من الماء. تبلّل قدمَيْها اللتَيْن - كما قال صانع الخمور - واصلتا السير دون توقّف، ونزفتا. قدماه هو - أيضاً - تبدوان بأسوأ حال. لقد مشيا، وهما يرتديان الجوارب - فقط - عبر الخطوط الأمامية، بين الرّكام، حُفر القنابل والأنقاض. الروس أخذوا أحذيتهما.

بينما كانت إلفيرا ترتدي ثوبها الداخلي، وقميصاً واسعاً جداً عليها، ربّما استعارتْه من صاحبة البيت. كانت تحرّك أصابعها، وتتألم، قال الرجل، إن المقطرة ظلّت في مكانها طوال يومَيْن في وسط المعركة، كلّ من الألمان في البداية، ثمّ القوّات الروسية أحسنوا العمل مع خزين الكحول. الروس - أيضاً - في بحثهم عن الخمر خلف الخشب، فصلوا إلفيرا عن مديرها، بالإضافة إلى امرأة أخرى، موظّفة في المصنع كانت تبحث عن ملجأ لها هناك. ثمّ رفع كتفَيْه، ولم يرغب في المزيد من الحديث، وخرج من المطبخ.

«كانوا يقفون في صفّ» همست لنا زوجته، بينما إلفيرا ذات الشعر الأحمر لا تزال صامتة. «واحد ينتظر حتّى ينتهي الآخر. قالت، كانوا عشرين على الأقلّ، لكنها لا تعرف، بالضبط. كان عليها التعامل مع كل شيء وحدها تقريباً. السيدة الأخرى كانت ليست على مايرام».

حدّقتُ في إلفيرا. فمها المتورّم يتدلّى في وجهها الشاحب مثل برقوقة زرقاء. «دعيهم يرونه» قالت الزوجة. دون أن تقول كلمة، فتحت إلفيرا أزرار قميصها، وسمحتْ لنا برؤية صدرها، ملوّن، وأزرق من العضّ...

لا يمكنني وصف حالتها. مجرّد التفكير بما حدث يشعرني بالغثيان. تركنا لها بقية الفازلين. في مثل تلك اللحظات، لا تستطيع أن تقول شيئاً. ونحن - أيضاً - لم نقل شيئاً. لكنها تحدّثت من نفسها. كان من الصعب فَهْمها بسبب كانت شفتاها متورّمتَيْن. «كنتُ أصلّي، وأنا في تلك الحالة» قالت، «أصلّي دائماً! يا ربّ، أشكركَ، أني كنتُ سكرانة»؛ لأن الرجال قبل أن يُشكّلوا صفاً، سكبوا عليها الكثير من الكحول التي وجدوها هناك، وبين الحين والآخر يسقونها بعض منه. هذا كله حدث لنا بسبب الفوهرر (القادة).

هناك الكثير لفعله اليوم، في وقت ما بعد الظهر، الكثير من التنظيف والغسيل، الوقت يمضي بسرعة. كنتُ مندهشة عندما ظهر الرائد - فجأة - في الغرفة. الأرملة سمحتْ له بالدخول. هذه المرّة، حمل معه لعبة ورق

جديدة تماماً، نشرها على بطّانية هير پاولي. من الواضح أن الرجلَيْن قد اكتشفا لعبة، يعرفها كلاهما. لم أفهم منها شيئاً، وذهبتُ إلى الأرملة في المطبخ؛ حيث كتبتُ هذه الأسطر بسرعة. الرائد حمل معه - أيضاً - نقوداً للعب، قطع من ثلاثة وخمسة مارك، التي تمّ سحبها من التداول منذ وقت طويل. كيف حصل على هذه النقود؟ لا أجرؤ على سؤاله. اليوم لم يجلب معه أيّ شيء للشرب، واعتذر لنا جميعاً عن ذلك. غير مهمّ، اليوم هو ضيفنا، لقد حصلنا على زجاجة خمر من مصنع الخمور.

الاثنَيْن، ٧ مايو ١٩٤٥.

لا يزال الطقس بارداً، لكنْ: هناك شعاع واهن من أشعّة الشمس. ليلة مضطربة أخرى، الرائد استيقظ عدّة مرّات، وأيقظني مع تأوّهه. من المفترض أن ركبته قد تحسّنت، فقط عندما يحرّكها تُؤلمه. ومع ذلك، لم يتركني أنام إلا قليلاً. حدّثني الرائد عن الأختَيْن المرحتَيْن اللتَيْن تقضيان أوقات ممتعة في شقّة الحزبي الهارب. يعرفهما بـ «آنيا وليزا»، اسميهما، ويبدو أنهما مشهورتان لدى الضباط الروس. رأيتُ إحداهما مؤخّراً على الدرج، لا أعرف أي واحدة منهما كانت. كانت جميلة، ذات شعر غامق، بشرة بيضاء، طويلة ولطيفة. الرائد تحدّث عن النشاطات المرحة للأختَيْن، وهو يرفع كتفَيْه، ومحرج بعض الشيء: تلقّى دعوة اليوم في وضح النهار، في الشقّة؛ حيث الفتاتان مع رجلَيْن مستلقيَيْن على السرير، وسألوه - وهم يضحكون - إن كان يريد الانضمام إليهم، الأمر الذي صدم الرائد المهذب الوقور لمجرّد الحديث عنه. وهناك عامل جذب آخر لطيف للروس: ابن أحد الأختَيْن ذو الثلاثة أعوام. قال الرائد إن الطفل يتمتم ببعض الكلمات الروسية، وإن الضيوف الذكور يبذلون قصارى جهدهم في تدليله.

عدا ذلك، يوم جديد. من الغريب العيش دون صحف، دون تقويم، دون ساعات وحدود زمنية. زمن أبدي يتسرّب مثل الماء، والرجال في زيهم الغريب هم المؤشّر الوحيد للزمن، بالنسبة لنا. يرتديها - فقط - رجال، في زي عسكري غريب.

أحياناً أقف مندهشة من قدرتي على التحمّل، والتي بها أحاول أن أسجّل وقائع وحوادث هذا الزمن الأبدي. هذه هي محاولتي الثانية لمحادثة كتابية مع نفسي. المحاولة الأولى قمتُ بها كطالبة في المدرسة. كنا فتيات في الخامسة عشرة، والسادسة عشرة، نرتدي قبّعات المدرسة الحمراء الخمرية، ونُجري نقاشات عن الرب والعالم (وأحياناً عن الشباب، ولكنْ؛ بتعالٍ كبير). عندما أُصيب مدرّس التاريخ في منتصف الفصل الدراسي بأزمة قلبية، حلّ محلّه في مادّته مُدرّسة مبتدئة، مساعدة بأنف قصير، تظهر في صفّنا مثل القنبلة. بطريقة واثقة، تحدّثنا عن تاريخنا الوطني. فريدريك الكبير، أسمتْه المغامر. من ناحية أخرى، تُثني على رئيس الدولة الديمقراطي الاشتراكي فريدريش إيبرت الذي أطلق عليه مدرّسنا السابق اسم «صبي صانع السروج». بعد هذه التصريحات الشجاعة، كانت تنظر لنا بعينَيْن سوداوَيْن لامعتَيْن، وتصرخ مع إيماءة توسّل: «يا بنات، غيّرنَ العالم؛ لأن هذا ضروري جداً!».

كان هذا يمكن التعامل معه. نحن لم نحب - أيضاً - العالم، كما كان يبدو في عام ١٩٣٠. رفضناه بشدّة. العالم كان مضطرباً للغاية، وكان منغلقاً جداً، بالنسبة لشبابنا. كان هناك ملايين العاطلين عن العمل. كنا نسمع كل يوم أن غالبية المهن التي كنا نطمح لها، بلا مستقبل، وأن العالم لا يفتح ذراعيه لنا، على أي حال.

عن طريق الصدفة، أصبح هناك انتخابات للبرلمان الألماني الرايستاك في ذلك الوقت. في كل مساء، تنعقد اجتماعات لعشرة إلى خمسة عشر حزباً من أكبر الأحزاب الألمانية. كنا نذهب إلى هناك في مجموعة صغيرة، وبطلب من أساتذتنا. عملنا على كل الأحزاب من النازيين عن طريق الحزب المركزي والديمقراطيين إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي والشيوعيين. مع النازيين، رفعنا أيدينا لتحية هتلر، ومع الشيوعيين كانوا يدعوننا بـ«الرفاق». في ذلك الوقت، بدأتُ بكتابة يومياتي لأول مرّة؛ لأني أردتُ صياغة وجهة

نظري الخاصة. على مدى تسعة أيام، حسب ما أذكر، كتبتُ شعارات خطباء الانتخابات، بالإضافة إلى نقدي كفتاة شابة. في اليوم العاشر، اكتفيتُ، رغم أن هناك الكثير من الأوراق البيضاء في دفتري. كنتُ قد أضعتُ الطريق في غابة السياسة. وهذا تماماً ما حدث مع صديقاتي في المدرسة. في نظرنا، كل حزب يملك جزءاً من الحقيقة. لكن كل حزب يمارس - بوعي - ما نسمّيه بالمساومات: طرق غير مشروعة، إصرار، مشاحنات من أجل السلطة. لم يكن هناك حزب نقي واحد دون اعتراضات. كما أفكر الآن في الوقت الحاضر في أننا - ربّما - كان علينا تشكيل حزب من الشباب ذوي الستة عشر عاماً لإشباع مُثُلنا الأخلاقية. ببساطة، كلّما كبرنا، نزداد قذارة.

في ما بعد ظهر يوم الثلاثاء، زارنا ضيوف، ليس من بنايتنا، أو من البنايات المجاورة، لكنْ؛ من ڤيلمرزدورف، الجزء الغربي من المدينة التي تقع على بعد ساعتَيْن من المشي. فتاة اسمها فريدا، والأرملة تعرفها.

لدى فريدا هذه قصّة كاملة، تبدأ عند ابن أخ الأرملة، طالب شاب يدرس الطب. في ليلة، كان الطالب في مهمة حَرَس حماية أجواء الدولة(*) في بناية جامعته. طالبة شابة، كانت تشاركه مهمة الحراسة. الحمل كان نتيجة لساعات الحراسة المشتركة تلك، ولأن أهل الفتاة تدخّلوا، عجّلوا بزواجهما. كان عمرها تسعة عشر عاماً، والشاب كان في العشرين.

في ذلك الوقت، أُرسل الشاب إلى الجبهة من قِبَل أحد أتباع الجنرال هيلدنكلاو، أو غيره، من أجل الحرب. لا أحد يعرف - بالضبط - أين هو. زوجته الشابة - وهي في الشهر الثامن من الحمل الآن - ذهبت للسَّكَن مع صديقتها. هذه الصديقة هي فريدا نفسها، والتي تجلس - الآن - على كرسي المطبخ؛ وتلعب دور المراسلة.

(*) Reichsluftschutzbund: فيلق حماية أجواء الدولة، وهي منظّمة شبه عسكرية لألمانيا النازية تأسّست في ١٩٣٣ كفرع من وزارة الطيران الألمانية. مهمّتها الرئيسة هي الخدمة كطواقم للدفاع الجوّيّ خلال فترة منع سلاح الجو الألماني من الطيران، بموجب معاهدة فرساي.

أول سؤال من الأرملة: «هل حدث - أيضاً - معكنّ؟» لا، فريدا لا تزال سليمة، أريد القول إن الإيڤان دفعها قليلاً على الجدار، في مدخل القبو، لكنْ؛ كان عليه المغادرة فوراً «لشنّ الحرب»، وهكذا لم يكن بإمكانه اكمال متعته حتّى النهاية. علاوة على ذلك، داهمت القوّات العسكرية البنايات التي تسكن فيها الفتاتان بعجلة كبيرة قبل الاستسلام دون الحاجة إلى الاستقرار في مكان ما. الأم المستقبلية الشابة أشارت لهم إلى بطنها، وقالت: «بيبي» ولهذا لم يلمسوها.

هذا ما قالته الفتاة، بينما كانت تجلس، وتنظر لنا بعينَيْن كبيرتَيْن، تلمعان، بشكل غير طبيعي. أعرف تلك العينَيْن، هكذا كانت تبدو عيناي - أيضاً - عندما نظرتُ لهما في المرآة في الوقت الذي كنتُ أعيش فيه على شاي القرّيص والحبوب. هذا - بالتأكيد - ما حدث مع الفتاتَيْن، وهذا هو السبب - أيضاً - الذي دفع فريدا للبدء في رحلة، استغرقت ساعتَيْن سيراً على الأقدام، وكما قالت، سارت خلالها في شوارع مهجورة وهادئة تماماً. طلبت الطعام من الأرملة إلى نسيبتها، وطفلها الذي ينمو. قالت إن الشابة تستلقي طوال اليوم على ظهرها، وتشعر بالدوار مع أقل محاولة للوقوف. هناك ممرّضة تأتي بين الحين والآخر؛ لتفحّصها، قالت إن الطفل في رحم الأم يأخذ كل حاجته من جسمها، بسرعة، لدرجة أن الأم لا يمكنها تغذية نفسها، بشكل كافٍ، ولهذا يتطفّل على الكالسيوم، الدم وعضلات جسم الأم.

أنا والأرملة بحثنا معاً عن ما يمكن أن نعطيه: بعض الزبدة والسّكّر من الرائد، علبة حليب، خبزاً وقطعة من لحم الخنزير المقدّد.

فرحتْ فريدا كثيراً. كانت تبدو بائسة. ساقاها تبدوان مثل عصاتَيْن، مع ركبتَيْن مثل عقدَتَيْن. لكنها تحمّست جداً الآن، ولا تبدو كما كانت منذ ساعتَيْن. نحن سعداء جداً بهذه المراسلة من منطقة بعيدة من المدينة، والتي حدّثتنا بالتفصيل عن الطريق الذي اتّخذته، وماذا رأتْ في طريقها. لاطفناها، ونظرنا لها بفرح. المرحة، شبه الميتة من الجوع، ذات الثمانية

عشر عاماً، تريد - كما قالت - أن تصبح مدرّسة رياضة بدنية. حسناً، سوف لن نكون بحاجة إلى الرياضة البدنية مؤقّتاً. نحن سعداء بكل حركة، لسنا بحاجة للقيام بها. وهذا يصحّ على الآخرين الذي يتضوّرون جوعاً. أنا لم أصل إلى هذا الحدّ، أنا لا أزال بحالة جيدة. الأرملة أثارت نقطة حسّاسة عندما سألت فريدا: «ماذا عن ذلك، يا ابنتي؟ لماذا لم تستعيني بروسي لطيف حتّى يتدبّر لكما بعض الطعام؟!».

ابتسمتْ فريدا بحماقة نوعاً ما، وقالت إن في حيّهم لم يعد هناك روس تقريباً، وإلا... وأخذت هدايانا، حشرتْها في كيس التسوّق الذي حملتْه معها.

لقد سُعدنا - حقاً - بهذه الزيارة. نحن - إذنْ - لسنا مقطوعين عن هذا العالم، نستطيع أن نخاطر برحلة سيراً على الأقدام إلى الأصدقاء والمعارف في الجزء الآخر من المدينة. منذ ذلك الوقت، ونحن نخطّط، ونتشاور باستمرار حول إن كنا سوف نذهب أم لا. هير پاولي اعترض على ذلك. يرى أنهم قد قبضوا علينا بالفعل، ورحّلونا إلى سيبيريا إلى مخيم العمل القَسْري. استندنا على فريدا التي نجحت في ذلك، وواصلنا الإلحاح.

كتبتُ هذا في وقت متأخّر من بعد الظهر. لقد قمتُ برحلتي الكبيرة الأولى بالفعل. جاءت مفاجئة للغاية. كنتُ أجلس على الرفّ الخشبي عند حافة النافذة رغم أن المرء لا يرى أناساً في الشارع عدا مَن يجلبون الماء من المضخّة والروس. هناك جاء روسي، كان يقود درّاجته، وتوقف أمام باب بنايتنا. إنه الرائد.

ركضتُ بسرعة إلى أسفل. درّاجة هوائية رجالية ألمانية جديدة برّاقة. «هل يمكنني قيادتها؟ خمس دقائق فقط؟» توسّلتُ به. الرائد وقف على الرصيف، وهزّ رأسه. هو خائف من أن الدرّاجة سوف تُنتزع منّي في الطريق. اقنعته أخيراً.

الشمس ساطعة. فجأة أصبح الطقس حاراً الآن. ضغطتُ بقدمي على

الدوّاسات بأسرع ما أستطيع. الريح تُصفّر في أذني. أسرعتُ أكثر، إنه شعور رائع بعد ذلك الجلوس الطويل كله، وأيضاً خطر إيقافي وخسارة الدرّاجة الهوائية يصبح أقل. قدتُ الدرّاجة بمحاذاة أنقاض محترقة سوداء. الحرب هنا انتهت قبل يوم واحد من انتهائها عندنا. أرى المواطنين ينظّفون الرصيف. سيدتان تسحبان وتدفعان عربة عمليات كانت قد اسودّت، من الواضح أنها أُخرجَت من بين أكوام الأنقاض. تستلقي فوقها امرأة شعرها أشيب تحت بطّانية، ووجهها أبيض، بلا حيوية، لكنها لا تزال حيّة.

كلّما واصلتُ السير باتجاه الجنوب يتضح لي أكثر بأن الحرب قد انتهت منذ فترة طويلة. هنا يقف ألمانيون في مجموعات، ويتحدّثون مع بعضهم. الناس في حيّنا لا يجرؤون على ذلك إلى حدّ الآن. حتّى إن هناك أطفالاً يمشون، خدودهم جوفاء، وهادئين بشكل غريب. في الحدائق العامة، كان هناك رجال ونساء يقلعون الأشجار. رأيتُ بعض الروس هنا وهناك. المتراس الذي أنشأه الفولكسشتورم أمام النفق لا يزال موجوداً. نزلتُ من الدرّاجة الهوائية، ودفعتُها في المدخل، أسير معها على جانب من النفق.

خلف النفق، على العشب أمام محطّة سكّة حديد المدينة، تلّة بعلو الركبة مغطّاة بالعشب الأخضر. فوقها ثلاثة أعمدة خشبية مصبوغة بلون أحمر زاهٍ، وارتفاعها حوالي متر واحد. معلّق على كل عمود لوحة، ووَصْف مكتوب على ورقة تحت زجاج مؤطّر بشريط ورقي. قرأتُ ثلاثة أسماء روسية، وتاريخ وفاتهم، ٢٦ و٢٧ أبريل.

وقفتُ لفترة طويلة. حسب ما أذكر هذه هي المرّة الأولى التي أقترب فيها من قبر روسي بهذا القرب. عندما جبتُ أنحاء روسيا، رأيتُ في الطريق مقابر، بشكل سريع جداً، شواهد قبور مشوّهة، صلبان معلّقة، بشكل مائل، بؤس واندثار لقرى فقيرة. في صحفنا، كانوا يكتبون - دائماً - أن الروس يُخفون قتلاهم، كما لو أنهم عار، يجمعون القتلى في مقابر جماعية، ويُسوّون الأرض فوقهم حتّى لا يمكن التعرّف على المكان. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. مثل

هذه الأعمدة الخشبية واللوحات يجب أن تكون معهم. إنها عمل مصانع، مُصنّعة حسب مخطط، مع نجمة خشبية بيضاء على قمّتها. رديئة، رخيصة، بشعة تماماً، لكنها - بالفعل - نصب تذكاري، مضاء باللون الأحمر، مبهرج للغاية، ولافت، بشكل صارخ، ولا يمكن التغاضي عنه. يجب أن يكونوا قد وضعوا مثل هذه الشواهد في بلادهم أيضاً. عندها يمارسون عبادة القبور، نعم حتّى عبادة الأصنام، على الرغم من أن العقيدة الرسمية لا تريد أن تعرف أي شيء عن قيامة الجسد. عندما يتعلّق الأمر بتحديد المقابر بالعين المجردة، ونقل الجثث، في وقت لاحق، فإن درعاً بسيطاً مع اسم ورَقْم الجندي سوف يفيان بالغرض. في هذه الحالة، يمكنهم ادّخار الصبغ الأحمر والنجوم. لكنْ: لا، هم يحيطون موت جنودهم بهالة نورانية حمراء، يُضحّون بساعات العمل والخشب، من أجل هذه الهالة، مهما كانت تبدو بائسة.

قدتُ الدرّاجة من جديد، بأقصى سرعة أستطيعها. رأيتُ - من بعيد - المنزل الريفي الكبير الذي كان ملاذاً آمناً للناشر الذي كنتُ أعمل عنده في نهاية الحرب. سألتُ نفسي إن كان الطفل الرضيع في القبو استطاع أن ينجو في تلك الأيام دون حليب.

لم أرَ طفلاً، أو أماً شابة. لم يعد هناك أي أحد من الناس الذين انتقلوا إلى القبو. طرقتُ الباب، وصحتُ، وبعد فترة، ظهر رجل عجوز مع لحية خفيفة، ويرتدي قميصاً قذراً من نسيج محبوك. استغرقتُ بعض الوقت حتّى تعرّفتُ عليه. إنه المحاسب السابق لناشرنا السابق، كان أنيقاً في السابق، الآن هو قذر، ومُهمِل لنفسه. تَعرّف عليّ دون أيّ علامة تأثّر، وقال عابساً، إنه لجأ إلى هذا المكان مع زوجته؛ لأن بيته قُصف في آخر يوم من الحرب. بالإضافة إلى أن الڤيلا فارغة، والأثاث اختفى أيضاً. نُهِبَ المنزل قبل أن يسكنه المحاسب. لا يعرف إن كان الروس أم الألمان مَن فعلوا ذلك، ربّما كلاهما. المنزل كان قذراً، وتنبعث رائحة الفضلات والبول من كل مكان. في القبو، كان لا يزال هناك كومة من الفحم. وجدتُ صناديق

كارتونية فارغة، وملأتُها بقوالب الفحم، مع استياء كبير من نائب المدير. لكنه لا يملك الحقّ في هذا الفحم - تماماً - مثلي. لم يخطر له أن يساعدني. سحبتُ الصندوق - بصعوبة - إلى درّاجتي الهوائية، وربطتُه بحزامي، وبحبل عثرتُ عليه، على حاملة الأمتعة.

قدتُ الدرّاجة إلى المنزل، بأقصى سرعة أستطيعها. أسرعتُ أكثر في الشارع، هذه المرّة بمحاذاة صفوف، لا تنتهي من الجنود، يجلسون على الرصيف. مشاة نموذجيون، جنود الحدود، متعبون، قذرون، مُغبَّرون، على وجوههم القذرة لحى خفيفية. لم أرَ مثل هذه القوّات الروسية من قبل. فهمتُ - فوراً - أننا استضفنا قوّات النخبة، المدفعية، جهاز المخابرات، رجال يستحمّون، ويحلقون. مَن لدينا على الأقل رجال من الجنود، تفوح منهم رائحة الخيول، لكنهم لم يكونوا بحالة سيئة كهؤلاء الجنود. هؤلاء كانوا مستنفدين على أن يولوا أيّ انتباه لي، أو لدرّاجتي الهوائية. بالكاد ينظرون حولهم، من الواضح أنهم قد أتمّوا مسيرة قَسْرية.

اندفعتُ بسرعة، أرى - الآن - زاويتنا على أي حال. كان المكان بالقرب من ثكنة الشرطة السابقة يعجّ بالسيارات. الدرّاجات البخارية تُحدث صوت ضجيج شديداً، وتفوح منها رائحة البنزين. السيارات الألمانية لا تفوح منها هذه الرائحة.

كنتُ ألهث، ولكنْ؛ فخورة، وأنا أصعد الدرج، وأسحب معي الدرّاجة الهوائية مع قوالب الفحم. الرائد ركض نحوي، كان منفعلاً للغاية، وتصوّر أن الدرّاجة قد سُرقت، والرب وحده يعلم مكاني. الأوزباكستاني ظهر في غضون ذلك أيضاً. الأرملة أرسلته على الفور؛ ليجلب لنا دلوَيْن من الماء. لقد أصبح - بالفعل - فرداً من العائلة. ذهب مسروراً مع الدلوَيْن.

كنتُ ثملة من الشمس والقيادة السريعة، مثل هذا الشعور من السعادة والمرح لم أشعر به منذ أسابيع. علاوة على ذلك، جلب الرائد معه خمس

زجاجات من نبيذ التوكاي. شربنا النبيذ، وشعرتُ بأني راضية جداً. الرائد بقي حتّى الساعة الخامسة. عندما ذهب، شعرتُ أني بائسة مرّة أخرى. وبكيتُ.

(خربشتُ في الهامش بعد ثلاثة أسابيع، لفائدة الروائيّين: «على مدى ثلاث نبضات، ذاب جسدها مع الجسد الغريب فوقها. أظافرها خمشتْ في شعر الغريب. خرجتْ صرخات من حلقها، وسمعتْ صوت الغريب يهمس بكلمات غريبة غير مفهومة. بعد ربع ساعة، كانت وحدها. نفذت أشعّة الشمس في حزم واسعة من خلال النوافذ المكسورة. تمطّعت، واستمعت بثقل أطرافها. سوّت خصلات الشعر المجعّدة على جبينها. شعرتْ - فجأة، بشكل واضح ومخيف - كيف أن يداً أخرى، يداً لصديق بعيد، ربّما ميت منذ فترة طويلة، تُدَسّ في شعرها، شَعَرتْ أن شيئاً يتأجّج، يتحرّك بعنف، ينفجر في داخلها. انهمرت الدموع من عينيها. التفّتْ مضطجعة على جانبها الآخر، ضربت الوسائد بقبضتها. عضّتْ يديها وذراعيها حتّى ظهرتْ عليها حلقات زرقاء حمراء مسنّنة. بكتْ على الوسائد، وتمنّت الموت »).

الثلاثاء، ٨ مايو ١٩٤٥، مع بقية يوم الاثنَيْن.

في المساء، كنا وحدنا، هير پاولي، الأرملة وأنا. غابت الشمس بلونها الأحمر. وجه كئيب، ذكّرني بالحرائق التي شاهدتُها في السنوات الأخيرة. الأرملة وأنا ذهبنا معاً إلى النهر الصغير؛ لنجلب بعض الماء للغسيل (لتجلب الماء الصالح للشرب من المضخّة كألماني، عليكَ الوقوف لساعة كاملة دائماً).

ربّما كانت الساعة هي الثامنة مساءً. نحن نعيش، بلا ساعة، المنبّه الذي نلفّه بمنشفة، ونُخفيه في الخزانة، لا نعرف متى يعمل، ومتى لا يعمل، ويتوقّف متى يشاء. عند النهر، كان المكان هادئاً. في المياه المالحة، تطفو قطع من الخشب، خرق ومقاعد خضراء من الحديقة العامة. غَرَفْنَا السائلَ العكرَ في دلائنا، وعدنا إلى المنزل، الماء كان ينسكب من الدلو الثالث الذي نحمله بيننا. بالقرب من الدرجات الخشبية المتلاشية على منحدر، يغطّيه العشب، كان هناك شيء. إنسان، رجل، كان يستلقي على ظهره، ويثني ركبتَيْه.

هل هو نائم؟ نعم، نوم أبدي، إنه ميت. بقينا واقفتَيْن، ونحدّق به. فمه كان مفتوحاً، إلى حدّ، يمكنكَ غرز قبضتكَ فيه. شفتاه زرقاوتان، جانبا أنفه شاحبان، ومقبوضان. رجل في الخمسين تقريباً، حليق الذقن، وأصلع. يبدو مرتّباً، يرتدي بدلة رمادية، من نوعية جيدة، جوارب رمادية محبوكة باليد، في حذاء برباط لامع، ومن طراز قديم. تحسّستُ يدَيْه على جانبَيْه على العشب،

أصابعه كانت منحنية، باتجاه كفَّيْه. لم تكن يداه باردتَيْن، لكنْ: هذا ممكن، بسبب الشمس. لم يعد لديه نبض، إنه ميت. لكنه لم يتعرّض للسرقة. يضع في ربطة عنقه دبّوساً فضياً. تشاورنا إن كان علينا البحث في ملابسه عن أوراق لإبلاغ أقاربه بوفاته. لكنْ: لم يكن لدينا الشجاعة. نظرنا حولنا، لكنْ: لم نرَ أي أحد. مشيتُ لمسافة قصيرة إلى الشارع، ورأيتُ رجلاً وامرأة يقفان في أحد الأروقة، شاب وشابة، وطلبتُ منهما أن يأتيا معي، يوجد هناك... تبعاني بتردّد. وقفا لبعض الوقت عند الرجل الميت، لكنهما لم يلمساه، وكانا صامتَيْن، رفعا أكتافهما، وذهبا أخيراً. وقفنا قليلاً دون جدوى، وبعد ذلك، ذهبنا نحن - أيضاً - مع قلب مثقل. ورغم ذلك، رأتْ عيناي في طريق العودة - بشكل آلي - كل قطعة خشب، وحشرتْها يداي - بشكل آلي - في الحقيبة اليدوية التي أخذتُها معي.

أمام المنزل، التقينا العجوز شميت - الستائر، يقف مع الهارب من الخدمة العسكرية. ذُهلتُ، عندما رأيتُ هذَيْن الاثنَيْن يغامران، ويقفان في الشارع. تحدّثنا عن الرجل الميت، والأرملة وضّحت الكيفية التي كان بها فمه مفتوحاً. «سكتة قلبية» خمّن الجندي السابق، «هل نذهب معاً؟»، «ماذا؟» قال شميت - الستائر، «فيما بعد، سيكون هناك شيء مفقود من جيوبه، وعندها سنكون نحن مَن فعل ذلك!» وفي اللحظة التالية، نسينا نحن - أيضاً - الميت عندما قال شميت آخر الأخبار: « الروس كلهم قد غادروا». أخلوا بنايتنا، واختفوا من البنايات كلها في الحي. بينما كنا نجلب الماء، قادوا شاحناتهم بعيداً. قال شميت إنهم قد ملؤوا العربات جيداً بالأفرشة والوسائد من الشقق المهجورة.

ذهبوا! كلهم ذهبوا! بالكاد، نستطيع تصديق ذلك، وننظر إلى الشارع لا إرادياً، إن كانت الشاحنات قادمة بالفعل مع قوّات عسكرية جديدة. لكنْ: لم يحدث شيء، كل شيء هادئ، هادئ، بشكل غريب. لا خيول بعد الآن، لا صهيل، ولا صياح للديوك. فقط كان هناك بعض من سماد الخيول

الذي كنسَتْه بنت البوّاب الصغرى عن مدخل البناية. نظرتُ إلى الفتاة التي عمرها ستة عشر عاماً، هي الوحيدة التي فقدت عذريّتها من قِبَل الروس من اللواتي أعرفهنّ. و كعادتها، لديها ذلك المظهر من البلادة والرضا عن النفس. حاولتُ أن أتصوّر كيف كنتُ سأشعر لو أني عايشتُ هذا لأول مرّة، وبهذه الطريقة. كان لا بد لي أن أتخلّى عن الفكرة، مثل هذا الأمر لا يمكن تصوّره. لكنْ؛ هناك شيء واحد واضح: لو أن أحد المتشرّدين في وقت السلام اغتصب هذه الفتاة، وبعد ذلك تبع الهرج والمرج المعتاد للبلاغ القانوني، التقرير الرسمي، الاستجواب، نعم الاعتقال، المواجهة الحاسمة، التقارير الصحفية والنميمة، عندها سوف تكون ردّة فعل هذه الفتاة مختلفة، سوف تكون صدمتها العصبية أسوأ بكثير. المسألة هنا - على أي حال - تخصّ الخبرة الجماعية المتوقّعة، والمخيفة مقدّماً، تخصّ شيئاً، حدث لجميع النساء الأخريات، أن هناك مَن ينتمي لها، بمعنى من المعاني. ظاهرة الاغتصاب الجماعي علاجها جماعي أيضاً. كلّ امرأة تساعد الأخرى؛ لأنها بالحديث عن ما حصل معها تُنفّس عن مشاعرها، وتعطي الفرصة للأخرى، لبَثّ تجاربها، وهكذا تتخلّص من التفكير في الماضي. وهذا لا يعني - بطبيعة الحال - أن الأرواح الرقيقة الأكثر حساسية من روح تلك الفتاة البرلينية البليدة لن تنكسر، أو تعاني طوال حياتها.

لأول مرّة منذ ٢٧ أبريل، قمنا بإقفال الباب من جديد. وبذلك بدأ - بالنسبة لنا جميعاً - فصل جديد، ما لم يكن هناك قوّات جديدة تُعسكر في بنايتنا.

ومع ذلك، سمعتُ في الساعة التاسعة مساءً شخصاً، يصيح باسمي. كان هذا الأوزباكستاني الذي كرّر اسمي عدّة مرّات بصوته العالي. (أريد القول، النسخة الروسية لاسمي التي منحها لي الرائد). عندما نظرتُ إلى الخارج، بدأ يُؤنّبني، ويهدّدني، وأشار بسخط إلى الباب. لا، هذا لا ينفع، أيها السمين. سمحتُ له بالدخول، الرائد كان يمشي خلفه، ويعرج بشدّة.

يبدو أن قيادة الدرّاجة الهوائية قد أثّرت عليه، بشكل سيئ. الأرملة أعدّت الكمادات له مرّة أخرى. ركبتُه كانت تبدو بحالة خطرة، ضخمة، متورّمة وحمراء. لا أفهم كيف يستطيع قيادة الدرّاجة الهوائية، الرقص، صعود ونزول الدرج. هؤلاء الرجال أقوياء جداً، ولهذا لا نستطيع مواجهتهم. قضيتُ ليلة صعبة مع رجل محموم. كانت يداه ساخنتَيْن، وعيناه غائمتَيْن، لم يتمكّن من النوم، ولم يدعني أنام أيضاً. وأخيراً بزغ فجر يوم جديد.

اصطحبتُ الرائد وحارسه إلى الطابق الأرضي، فتحتُ لهما الباب الذي عاد لنا مرّة أخرى. بعد ذلك، كان عليّ القيام بعمل قذر. الأوزباكستاني كان لديه نوع من الزحار، ولوّث جدار وبلاط المرحاض. نظّفتُ الفوضى جيداً قدر استطاعتي ببعض النسخ من المجلات النازية المخصّصة للصيادلة، الأرملة لا تزال تحتفظ بها. وبهذه الطريقة، استخدمنا الماء كله الذي حملناه معنا البارحة من النهر. حبّذا لو علم بهذا هير پاولي، الدؤوب على تنعيم وتهذيب أظافره، الموسوس.

وبعد ذلك، يوم الثلاثاء. في حوالي الساعة التاسعة صباحاً، سمعتُ إشارة طرقة الباب السّرّيّة على الباب الأمامي، لا نزال نستخدمها رغم عدم وجود أيّ روسي في البناية. كانت فراو ڤينت، السيدة المصابة بالأكزيما، ذات الخدّ المتقرّح، كانت تريد القول إن السلام قد حلّ أخيراً. في الجنوب والشمال سوف يُقمَع ما تبقّى من المعارضة الألمانية غير النظامية. لقد استسلمنا.

أنا والأرملة تنفّسنا براحة. لحسن الحظ أن الأمر قد انتهى بهذه السرعة. هير پاولي لا يزال يَشتُم كعادته الفولكسشتورم على الخسائر البشرية التي لا معنى لها في الساعات الأخيرة، الشيوخ والمستنفدين، الرجال العاجزون الذين ظلوا ينزفون لعدم وجود حتّى خرقة، يربطون بها جروحهم. الأطراف المقطوعة البارزة من السراويل، حزم بيضاء على نقّالات؛ حيث يتسرّب الدم منها برتابة، برك الدم الدافئة اللزجة في كل مكان في الممرّات. يبدو أن

هير پاولي قد شهد أشياء فظيعة. ولهذا السبب - بالتحديد - أظن أن الألم العصبي الذي قيّده في السرير لأكثر من أسبوع، له سبب نفسي جزئياً، هو ذريعة، انسحاب من الحياة. الكثير من الرجال لديهم مثل هذه الذريعة. الكُتُبي لديه عضويّته للحزب، الهارب من الخدمة العسكرية لديه هروبه، وهكذا شخصيات مختلفة أخرى، لديها ماضيها النازي، ولهذا هم يخشون من الترحيل، ويختبئون خلف هذه الحجّة، إذا طُلب منهم جلب الماء، أو أي عمل آخر، ينبغي القيام به. النساء - أيضاً - كنّ يبذلنَ قصارى جهدنّ لإخفاء الرجال، وحمايتهم من العدوّ الشرير. في الواقع، ماذا يمكن للروس أن يفعلوا لنسائنا أكثر ممّا فعلوه؟ لقد فعلوا بنا كل شيء.

ولهذا نحن النساء مَن يقود العربة، هذا منطقي. ورغم ذلك هناك شيء يزعجني حول هذا الأمر. أفكر في الوقت الحاضر كثيراً بالضجة التي كنتُ أُحدثها للرجال الذين كانوا يأتون في إجازة، كيف كنتُ ألاطفهم، وأحترمهم، في حين أن غالبية هؤلاء الضيوف قادمون من باريس، أو أوسلو، مدن تقع على مسافة بعيدة جداً من الجبهة، عندما كان القصف متواصلاً على برلين. أحياناً يأتون حتّى من أكثر المدن أماناً مثل براغ ولوكسمبورغ. حتّى لو جاؤوا من الجبهة، كانوا يفتعلون انطباعاً صحياً، نظيفاً، وغذائياً جيداً (على الأقل حتّى عام ١٩٤٣) ما يمكن أن يقوله القليلون منا هنا. وكانوا يَروون قصصاً؛ حيث يُظهرون أنفسهم على أنهم شخصيات صالحة. نحن - بالمقابل - سوف نُغلق أفواهنا حول ما عشناه، سوف نتصرّف على أننا - نحن فقط - قد نجونا. وإلا سوف لن يرغب أي رجل بلَمْسنا بعد الآن. لو كان لديّ بعض الصابون! لديّ رغبة - في كثير من الأحيان - بفرك بشرتي بقوّة، وأؤمن - تماماً - أني - بعد ذلك - سوف أشعر بنظافة روحي أيضاً.

ما بعد الظهر، أجريتُ محادثة مدهشة، سوف أصفها حرفياً قدر استطاعتي، لا أزال أفكّر بها. فجأة ظهر الكيميائي الأحدب لمصنع عصير الليمون، من جديد، كنتُ على وشك نسيانه رغم أني تحدّثتُ معه سابقاً

في القبو. كان قد قضى فترة زمنية، لا بأس بها في قبو، في الحي؛ حيث لم يتمكّن أي روسي من اختراقه. سمع - بالطبع - كل شيء عن اغتصاب النساء من اللواتي يجلبنَ الماء فور حدوثه. إحداهنّ كان لديها قصر نظر، فقدتْ نظّارتها، وتتلمّس الآن ما حولها، بعجز تام.

اتّضح أن الكيميائي الأحدب «رفيق»، أريد القول، إنه حتّى عام ١٩٣٣ كان عضواً في الحزب الشيوعي. حتّى إنه قام بسفرة ذات مرّة لمدّة ثلاثة أسابيع مع مجموعة من وكالة السفر الروسية إينتوريست في الاتحاد السوڤييتي، ويفهم بعض الكلمات الروسية. احتفظ بهذه الحقائق كلها لنفسه، في ذلك الوقت في الملجأ، حتّى عندما أخبرتُه عن سفري ومعرفتي اللغوية. الرايخ الثالث شفانا من هذه الثقة المتسرّعة. في الواقع، كنتُ متفاجئة. «لماذا لم تقدّم نفسكَ للروسيين على أنكَ صديق للسوڤييت؟».

نظر لي بخجل. «كنتُ أريد أن أفعل ذلك أيضاً» قال، «كنتُ أريد - فقط - أن أنتظر حتّى تنتهي هذه الأيام الوحشية الأولى»، وأضاف: «سأذهب في هذه الأيام لتقديم بلاغ في البلدية. في أقرب فرصة، تعود فيها السلطة، سوف أضع نفسي تحت تصرّفهم».

(أظن، ولكني لم أقل له ذلك، إنه بسبب حدبته لا يملك الجرأة. بالنسبة لكثير من الحيوية الذكورية الساحقة، سوف يكون نقصه الذي يجعل منه في عيون هؤلاء البرابرة الأقوياء نصف رجل مادّة للسخرية، ويسبّب له ذلك شعور ألم مضاعفاً). رأسه كان يغوص بين كتفَيْه، حركاته تكلّفه الكثير من العناء. لكن عينَيْه صافيتان وذكيّتان، ويتحدّث بانسيابية.

«هل تشعر أنكَ قد أفقتَ الآن؟» سألتُه. «هل خاب أملكَ في رفاقكَ؟».

«لا، أبداً» قال. «يجب أن لا ننظر إلى ما حدث بنظرة ضيقة، أو شخصية. يجب أن يُطلقوا لانفعالاتهم وغرائزهم العنان. وهناك تعطّش للانتقام أيضاً. نحن - أيضاً - فعلنا بعض الأمور هناك في بلدهم. الآن حان وقت التغيير

والتفكير، بالنسبة لهم ولنا على حدّ سواء. غربنا القديم هو عالم الأمس. العالم الجديد قد وُلد، عالم الغد، وهذه ولادة مؤلمة، العِرْق السلافي الشاب والجديد يسيطر على تاريخ العالم. الدول الأوروبية سوف تكسر حدودها، وتصبح وحدات عظيمة. كما قام نابليون - ذات مرّة - بتسوية الممالك والإقطاعيات الصغيرة كلها، وبالطريقة نفسها، سوف تقوم القوى العظمى المنتصرة بالقضاء على سلطة الدولة الكبرى والنازية ».

«إذنْ؛ أنت تظن، بأن ألمانيا سوف تصبح جزءاً من الاتحاد السوڤييتي في المستقبل، جمهورية سوڤييتية؟».

«هذا ما أتمناه».

«لكنهم سوف يأخذوننا بعيداً عن وطننا، ويبعثروننا في كل مكان؛ ليدمّروا هوية شعبنا».

«هذا ممكن، أن نكون نحن ألمان اليوم مجرّد ضحايا، سماداً، وسيلة للتحوّل، وربمّا حتّى أساتذة متخصّصين. في الواقع، أظن - في ظل الظروف الجديدة - تقع علينا - أيضاً - مسؤولية خلق وجود ذي قيمة. الجميع يأخذ نفسه معه، أينما يذهب».

«حتّى لو ذهب إلى سيبيريا؟».

«أؤمن، أني - مع إرادة قوية - سوف أستطيع أن أبني لنفسي وجوداً ذا قيمة حتّى في سيبيريا».

يمكن الوثوق بالرجل الأحدب. هو اكتسب - هنا أيضاً - وضعاً جيداً، كان رئيس القسم الكيميائي في مصنع ضخم للمياه المعدنية. لكنْ؛ هل سيكون قادراً - من الناحية الجسدية - على تحمّل ما سوف يتطلّبه منا - ربمّا - المستقبل؟ هل الباقون منا مستعدّون لذلك؟ هل هذا ممكن؟!
رفع كتفَيْه فقط.

أظن - أحياناً - أني - من الآن فصاعداً - يمكنني تحمّل كل شيء على الأرض، طالما جاء ذلك من الخارج، وليس من فخّ قلبي. أشعر أني أشتعل، وأنطفئ، لا أستطيع أن أتخيّل ما سوف يستفزّني، أو يثيرني اليوم، أو غداً. إذا كان يجب أن تستمرّ الحياة، أظنّ أنها من الممكن أن تستمر في صحراء الجليد أيضاً. الكيميائي وأنا صافحنا بعضنا، وشعرنا بمساندة بعضنا.

رغم ما عشناه كله من ص، أعيش في الشقّة، في جوّ برجوازي محفوظ بعناية. الأرملة تشعر أنها سيدة المنزل من جديد. نظّفت، ودعكت أرضية الشقّة بأكملها، وضعتْ في يدي مشط بلا أسنان، لتمشيط هدب السجّادة، وإزالته. مشغولة في المطبخ بالرمل والصودا، بكتْ على تمثال مايسنر(*) الذي فقد أنفه ويده بعد النهب في القبو، تذمّرت حول دبّوس ربطة عنق زوجها الراحل، الدبّوس فيه لؤلؤة، لم تعد تتذكّر أين أخفتْهُ. أحياناً تجلس بعض الوقت تفكّر بهدوء، وتقول - بعد ذلك - فجأة: «ربمّا وضعتْه في صندوق الخياطة!» وبعدها تقلب الخيوط والأزرار القديمة رأساً على عقب، لكنها لا تجد الدبّوس. إلى جانب أنها إنسانة طيبة، ولا تخاف من أحد، تستطيع تقطيع الخشب بالفأس أفضل منّي، تقلّد البولندي من ليمبرك، الذي كان ينجح في ذلك - بشكل استثنائي - رغم نوبات الغضب. (علاوة على ذلك، عرف الجميع في المنزل الفرق: «المرأة الأوكرانية هكذا. أنتِ هكذا!»).

اليوم أشرقت الشمس. جلبنا الكثير من الماء، وغسلنا شراشف الأسِرّة، رتّبتُ سريري لديّ الآن - شراشف نظيفة، كان هذا ضرورياً - أيضاً - بعد أولئك الضيوف كلهم، بجزماتهم العسكرية.

عند الخبّاز، كان يقف الكثير من الناس، صراخهم يأتي إلى الداخل، من خلال نوافذنا الخالية من الزجاج. هذا كله، ولم يكن هناك أي خبز بعد،

---

*) مايسنر (Georg Meissner): عالم تشريح ألماني وفيزيولوجي، وُلد في هانوفر ١٨٢٩. توفي في ١٩٠٥.

مجرّد كوبونات الخبز ليوم الغد، وما بعد الغد. كل شيء يعتمد على الطحين والفحم اللذَيْن ينتظرهما الخبّاز. بقوالب الفحم التي لا تزال لديه، خَبَز لسكّان بناياتنا بعض الخبز؛ حيث حصلتُ - بكرم - على جزء منه. الخبّاز لم ينسَ أني دافعتُ عن زوجته عندما أراد الرجال سحبها بعيداً. إيرنا، البائعة، بنفسها، التي قضت فترة من الوقت بسلام خلف باب محصّن، هي مَن أحضرت الخبز لنا. على سكّان المنزل أن يفعلوا شيئاً مقابل هذا الخبز: عدد من الرجال بقيادة فرولاين بين قادوا عربة محمّلة بدلاء الماء، من أجل العجين. في غضون ذلك، عدد من النساء انشغلنَ بـ «جَرْفِ القَرَفِ»، كما تسمّيه فراو ڤينت بخشونة؛ لأن الروس «قصفوا» أريكة مُنجّدة كانت موجودة في الدكان، وحوّلوها إلى مرحاض. سحبوا الأريكة - ببساطة - إلى الحائط، كانوا يجلسون على ذراع الأريكة و... لذلك كان هناك جرف لبعض الأشياء بعيداً. الخبز - إذنْ - كان أجراً مُستحَقّاً.

الروس جلبوا معهم نوعاً غريباً من النقود. الخبّاز سمح لنا برؤية ورقة نقدية، بقيمة خمسين ماركاً، نقود خاصة بالجنود، طُبعت خصّيصاً لألمانيا، ونحن لا نعرف حتّى هذه اللحظة. الخبّاز استلم هذه الورقة النقدية من ضابط روسي مقابل أربع عشرة قطعة من الخبز. لم يكن يملك المال لتصريفها، لكن الروس لم يهتمّوا، كانت محفظته - كما قال الخبّاز - مليئة بهذه النقود. الخبّاز لا يعرف ماذا يجب أن يفعل مع هذه النقود، في الواقع، سوف يمنح الخبز - أيضاً - دون مقابل. لكن الروس كانوا مستعدّين للدفع. ربّما سيعود لنا نوع من العدالة من جديد. أفترض أن الرجال يريدون منحنا هذه النقود، ويبدلونها نقودنا حتّى ولو بنصف قيمتها الحقيقية.

على أي حال، الاحتمالات حول الخبز هي أول علامة على أن شخصاً ما سوف ينظر في أمرنا، ويهتم بنا. العلامة الثانية كانت معلّقة على الباب: ورقة مستنسخة، إعلان وقّعه رئيس بلدية المنطقة الدكتور فلان الفلاني. الإعلان يطلب إعادة المسروقات كلها من الدكاكين والدوائر الحكومية، وإلخ،

دون عقاب، بشكل مؤقّت. اكتشاف المسروقات - في وقت لاحق - سوف يؤدي إلى معاقبة الفاعل حسب قانون الحرب. وفي الورقة أيضاً: يجب أن تُسلَّم الأسلحة كلها. المنازل والمباني التي يُعثَر فيها على أسلحة سوف تخضع لعقوبة جماعية. أخيراً سكّان المنازل كلهم الذين تعرّضوا للروس بأي شيء سوف يعرّضون أنفسهم لعقوبة الإعدام. لا يمكنني تصوّر رجالنا مع الأسلحة، يتربّصون الروس في مكان ما . مثل هؤلاء الرجال لم ألتقهم في تلك الأيام. الألمان ليسوا شعباً من البارتيزانيين. هم بحاجة إلى قيادة وأوامر. فجأة تذكّرتُ ملاحظة ساخرة، قالها روسي لي، في واحدة من تلك الرحلات عبر روسيا في القطار. «الرفاق الألمان سوف يُفجّرون المحطّة مباشرة بعد شرائهم أول تذكرة قطار متوفّرة». أي - بكلمات أخرى، وبلا سخرية - لديهم رعب من أداء أي عمل غير قانوني. كذلك، هم خائفون الآن. عقولهم تقول لهم إنهم مهزومون، وكلّ تمرّد سيجلب المزيد من المتاعب، ولن يقدِّم أيّ تحسّن للوضع الراهن.

الرجال في بنايتنا بدؤوا البحث - بحماس - عن الأسلحة. ذهبوا إلى الشقق جميعها دون مرافقة النساء، وسألوا في كل مكان عن البنادق. كلّ ما عثروا عليه - حتّى الآن - بندقية قديمة جداً دون زند. لأول مرّة، أسمع رجالاً ألماناً يتحدّثون بصوتٍ عالٍ مرّة أخرى، وأراهم يتحرّكون بحيوية. خلقوا انطباعاً رجولياً، أو على الأقل، ما كنا نميل إلى تسميته هكذا في السابق. لذا؛ يجب أن نفكر - الآن - بكلمة أفضل، وجديدة، كلمة تحتفظ بقيمتها حتّى في الأجواء السيئة.

الأربعاء، ٩ مايو ١٩٤٥.

إلى الآن هناك - دائماً - شيء لكتابته عن الليلة الماضية. لكنْ؛ الآن لا يوجد شيء، وأعني - أيضاً - لا شيء أقوله عن الليلة الماضية سوى أني قضيتُها وحدي. لأول مرّة وحدي بين الشراشف من السابع والعشرين من أبريل. لم يظهر لا الرائد، ولا حارسه. بدأ قلق الأرملة فوراً حول وجودنا، تمتمتُ بشيء عن تناقص خزين الزبدة، وأن الأمر سيكون أفضل، لو حمل الرائد، ولو لمرّة واحدة أخرى شيئاً معه. ضحكتُ. سوف يعود. الليلة نمتُ براحة كبيرة بين الشراشف المغسولة للتوّ، نمتُ جيداً، واستيقظتُ بمزاج رائع. تحمّمتُ بماء ساخن، قدّمتْه الأرملة بحفاوة، ارتديتُ ملابس نظيفة، وأنا أُصفّر لحناً لنفسي.

كتبتُ هذا في الساعة التاسعة. الساعة الآن هي الحادية عشرة، وكل شيء يبدو مختلفاً.

نُودي في الخارج أن علينا النزول إلى أسفل مع مجارفنا. جرفنا كومة من الركام بعيداً عن الزاوية، جمعنا الأنقاض والسماد الحيواني في عربة يدوية، وحملنا هذا كله إلى خرابة مهجورة في الحي. كان يوجد هناك جبل من جير قديم وخردة من أيام القصف الجوّيّ. أنقاض جديدة لسلاح المدفعية فوقه، وخُرق وعلب وصناديق زجاجات فارغة. وجدتُ صورتَيْن، بطاقات بريدية، صناعة ألمانية، والكثير من بصمات الأصابع على صور متعانقين عُراة. ذكّرني هذا بتلك المرّة التي نسيت فيها عدداً من المجلات الأمريكية والألمانية في

لحظة غفلة في مكتب في موسكو. وجدتُها بعد ذلك، واكتشفتُ - لاحقاً عند قراءتها - أن بعض الصفحات مُزِّقَت على عجل. إعلانات عن ملابس داخلية نسائية، كورسيهات وحمّالات الصدر. الروس لا يعرفون مثل هذه الإعلانات. مجلاتهم تخلو - تماماً - من أي تلميحات جنسية. ربّما كانت هذه الإعلانات الغبية، والتي لا يعيرها أي رجل من أوروبا الغربية أيّ اهتمام، تبدو قمّة الجرأة والإباحية في عيون الروس.

لديهم مشاعر تجاه هذه الصور - وكل رجل أيضاً - لكن مثل هذه الأشياء لا تُعرَض في بلدهم. ربّما هذا خطأ. ربّما، عندما يُثرون خيالهم بمثل هذه الصور المترفة، سوف لن يهاجموا - بعد ذلك - كل امرأة عجوز وقبيحة. يجب أن أفكر في هذا الموضوع مرّة أخرى.

عندما صعدتُ في حوالي الساعة العاشرة إلى فوق لشرب قهوة الشعير، كان الرائد هناك، وحده. كان ينتظرني، جاء؛ ليودّعني؛ لأن حالة ركبته سيئة جداً، أخذ إجازة مَرَضية لمدّة شهرين، سوف يقضيها في سَكَن الجنود، بالقرب من مسقط رأسه لينينگراد. سوف يغادر اليوم، بالفعل.

هو جادّ جداً، قاسٍ إلى حدّ ما، ويسيطر على نفسه بإرادة حديدية. كتب عنواني باهتمام كبير على ورقة، يريد أن يُراسلني، ويظل على تواصل معي. طلب منّي صورة، ولكني لا أستطيع أن أقدّمها له؛ لأني لا أملكها. جمعتُ تاريخي المصوّر كله في ألبوم ومظروف سميك، قُصف، احترق. ومنذ ذلك الحين، لم أنجح في التقاط صورة جديدة. نظر لي طويلاً، كما لو أنه كان يريد تصويري بعينَيْه. قَبّلني - بعد ذلك - بطريقته الروسية على كلا خدَّيَّ، ومضى دون أن ينظر مرّة أخرى، وهو يعرج بعيداً. شعرتُ بالغثيان، شعور أجوف في داخلي. فكّرتُ بالقفازات الجلدية التي ارتداها لأول مرّة اليوم. كان يُمسكهما بأناقة في يده اليسرى. لمرّة واحدة، عندما سقطت القفّازات على الأرض، انحنى بسرعة؛ ليلتقطها، لكني رأيتُ - بالفعل - أن

القفّازَيْن مختلفَيْن، أحدهما ظهره مخيط، والثاني أملس. نظر إلى الجانب الآخر بخجل. في تلك اللحظة، أحببتُه.

خرجتُ إلى الشارع للاستمرار في الجَرف. ذهبنا - بعد ذلك - للبحث عن خشب للموقد، هذه الكمّيّة كلها من حساء البازلاء تَستهلك الكثير من الوقود. عندها تذكّرتُ أن من الآن فصاعداً سوف لن يأتي أي أحد؛ ليجلب معه الطعام، الشموع والسجائر. يجب أن أُبلغ الأرملة بحذر عندما تعود من المضخّة. لم أقل أي شيء لهير پاولي. يجب أن تُطلعه الأرملة على الوضع الجديد بنفسها.

في أثناء البحث عن الخشب، وصلتُ - لأول مرّة منذ أسبوعَيْن - إلى الحديقة أمام السينما؛ حيث دُفن فيها الموتى من حَيّنا. بين الحطام المتكسّر وحُفر القذائف، كان هناك ثلاثة قبور، ثلاثة أزواج، ثلاثة منتحرين. همهمتْ امرأة عجوز كانت تجلس على صخرة، وتبكي، قالت لي تفاصيل أكثر عن الموتى بتقبّل مرير، وهي جالسة، وتواصل الإيماء برأسها: في القبر الذي على اليمين، آرتسگروپنليتر(*) مع زوجته (مسدّس). في الوسط، تحت عدد من الأغصان الذابلة، ملازم أول مع زوجته (سُم). ولا تعرف المرأة العجوز أي شيء عن الزوجَيْن في القبر الثالث. أحدهم غرز لوحة خشبية في الرمل، وكتب عليها بقلم رصاص أحمر «Müllers 2» (الزوجان مولر). في إحدى المقابر الأخرى، ترقد امرأة، قفزتْ من النافذة من الطابق الثالث عندما طاردها الإيڤان. يوجد ما يشبه الصليب على القبر، مصنوع من قطع خشبية بيضاء لامعة من ألواح باب، مربوطة بأسلاك مع بعضها، بشكل منحرف. شعرتُ بغصّة في حلقي. هل شعرتُ بذلك؛ لأن هذا الشكل للصليب يعني لنا الكثير؟ حتّى لو لم نعد نُدعى مسيحيين؟ عاد هذا بي في الذاكرة إلى طفولتي. سمعتُ ورأيتُ كيف كانت تروي لنا فرولاين دراير، ونحن أطفال

---

*) آرتسغروبنليتر (Ortsgruppenleiter): وتعني زعيم مجموعة محلّيّة، وهي رُتبة سياسية، في الحزب النازي، استُخدمت بين عامَي ١٩٣٠ و١٩٤٥.

في سنّ السابعة مع تفاصيل، لا نهاية لها عن معاناة المسيح ... بالنسبة لنا نحن المسيحيين الغربيين الرب - دائماً - يُعلّق على الصليب، حتّى لو كان الصليب عبارة عن قطعتَيْن من ألواح الباب، وبعض الأسلاك.

في كل مكان حولي، هناك طين وسماد حيواني، هناك أطفال يلعبون، إذا كان يمكنكَ أن تسمّي هذا لعباً، على أي حال. كانوا يتسكّعون هنا وهناك، يحدّقون لنا، ويهمسون فيما بينهم. عندما يسمع المرء صوتاً عالياً، فهذا يعني أن هناك روسياً. كان يمشي في الجوار، وستائر على ذراعه. كان يصرخ علينا، بكلمات قذرة. يراهم المرء في الوقت الحاضر فُرادى، أو في مجموعات، في مسيرة. فظّ وقاسي دوّي أغانيهم في آذاننا.

أعطيتُ الخبّاز سبعين فنيكاً ثمن القطعتَيْن من الخبز التي أوصلها لنا للمنزل. بدا هذا تصرّفاً غريباً، بالنسبة لي، وكان لديّ شعور بأني وضعتُ في يده شيئاً بلا قيمة، على الإطلاق. لا يمكنني أن أصدّق بأن نقودنا الألمانية لا تزال نقوداً.

في بنايتنا، إيرنا التي تعمل مع الخبّاز طرقت أبواب بنايتنا كلها لجمع البيانات الشخصية، وسجّلتْ في قائمة أسماء وعدد السكّان. كان هناك - بالتأكيد - بطاقات تموين جديدة. ارتدتْ إيرنا ملابس خاصة لهذه المناسبة، جاءت، وهي ترتدي ثوباً صيفياً مزيّناً بالورد. مشهد غير عادي بعد أن كان النساء يغامرن بالخروج، كالفزّاعات طوال الأربعة عشر يوماً الماضية. أريد أن أرتدي من جديد ثوباً مرتّباً ذات مرّة. لم يتعوّد المرء بعد على أن ليس هناك روسياً، يدقّ على الباب، ليس هناك روسي يجلس متكاسلاً على أريكتنا وكراسينا. قمتُ بتنظيف وترتيب غرفتي بالكامل. تحت السرير عثرتُ على نجمة سوفييتية صغيرة، من زجاج أحمر، وواق ذَكَري في ورقة. مَن الأخير الذي أضاع هذا؟! في الواقع، لا أعرف. ليس لديّ فكرة حتّى بأنهم يعرفون هذه الأشياء. عموماً، هذه الأشياء ليست ذا قيمة للاستفادة منها، بالنسبة للنساء الألمانيات. .

الفونوغراف أخذوه معهم مع أسطوانة أغنية دعاية شركة الملابس. لكنهم تركوا لنا ٤٣ أسطوانة لموسيقى كلاسيكية، من باخ إلى فيتسنر، بما في ذلك جزء من أوبرا لونگرين. في ما يتعلّق بغطاء الفونوغراف الذي كسره أناتول، حرقناه - بامتنان - في الموقد.

إنه مساء الأربعاء ٩ مايو. أجلس على حافة النافذة، وأكتب. الجوّ صيفي في الخارج، القيقب أصبح لونه - بالفعل - أخضر غامقاً، والشارع نظيفاً وفارغاً. استغللتُ الساعات الأخيرة قبل الظلام، من الآن فصاعداً، يجب أن نقتصد بشموعنا. ليس هناك أي أحد يجلب لنا شموعاً جديدة بعد الآن.

أيام الشراب، السُّكَّر، الزبدة واللحم، قد مضت. يمكننا - فقط - أن نقترب من بطاطتنا! لكنْ؛ لا أحد يجرؤ على إزالة الحاجز أمام باب القبو المقفل. لا تعرف - في الواقع - إن كانوا سيعودون، أو تظهر قوّات أخرى. الأرملة بدأت بتقديم الوعظ، ليس عن زنابق الحقول، رغم أن أي مثال سوف يكون ملائماً لوضعنا، بشكل استثنائي، لكنها نسجت أفكاراً مستقبلية مخيفة، هي ترى بأننا جميعاً سوف نموت من الجوع، تبادلت النظرات مع هير پاولي عندما طلبت طبقاً آخر من حساء البازلاء.

هدرت المدفعية، بينما كنتُ أكتب. ربّما هم يتدرّبون قبل استعراض النصر العسكري الذي يشارك فيه الأمريكيون. هذا محتمل. فليحتفلوا، هذا لا يعنينا. لقد استسلمنا. ومع هذا أشعر برغبة في الحياة.

علاوة على ذلك، كتبتُ هذا في الليل على ضوء الشمعة، مع كمّادة على جبيني. في الساعة الثامنة، كانت قبضات أيدٍ، تضرب بابنا. «حريق! حريق!» ركضنا إلى الخارج. كل شيء كان يشتعل، ومضيئاً بشكل صارخ. لهب النيران يندفع من القبو الذي تعرّض للقصف على بُعد بنايتين منا، تضرب جدار واجهة المبنى المجاور، الذي لا يزال سليماً. دخان مشتعل اندفع من حفرة في الأنقاض، وانتشر في الشارع. المكان مكتظّ بالظلال والمواطنين. ودَويّ الصراخ.

ماذا يجب أن نفعل؟ لا يوجد ماء. الموقد يقع تحت في القبو. هواء ساخن متوهّج. والريح تزداد قوّتها. تخيّلتُ نفسي - مرّة أخرى - في الليلة التي تعرّض فيها منزلي للقصف. لم يُجرَح أيّ شخص، على أي حال. «خنق الحريق» قالوا. «تغطية الحريق، بالحجارة». في لحظة، شكّلوا سلسلتَيْن من الرجال. الحجارة المتكسّرة تنتقل من يد إلى يد. الرجل الأخير يرميها بقوّة في النار. شخص ما صاح قائلاً، إن علينا الإسراع، الساعة اقتربت من التاسعة، وفي العاشرة مساءً، يجب على المواطنين أن يختفوا من الشارع.

تدحرج برميل من مكان ما، غرفنا منه الماء المتعفّن بالدلاء. في أثناء نقل الدلاء، ضربتْني امرأة - من غير قصد - بحافة دلو الزنك على صدغي. شعرتُ بدوران في رأسي، مشيتُ وأنا أترنّح إلى صخرة كبيرة على العشب على الجانب الآخر؛ حيث الرقعة الدائرية المليئة بالمقابر، وجلستُ هناك. امرأة جلستْ إلى جانبي، وقالت لي بصوت رتيب، إن «هناك، تحت» الضابط وزوجته اللذَيْن انتحرا بتناولهما سيانيد البوتاسيوم، عرفتُ هذا من قبل، لكني تركتُها تستمر في الكلام، «بلا تابوت، لا شيء» قالت. «غُلّفا بورق التعتيم، وتمّ لفّهما - بعد ذلك - بحبل. لم يكن لديهما حتّى شراشف على الأسرّة، لمّا قُصف منزلهما، نقلوهما إلى هنا». لكن السمّ كان متاحاً لهما، وفي متناول اليد.

شعرتُ بدوار شديد، شعرتُ أن الورم يكبر على جبهتي. الحريق كان تحت السيطرة، وتمّت تغطيته تقريباً. انضممتُ إلى مجموعة الموبّخين، وعرفت سبب الحريق. صاحب محل لبيع الأغذية المحفوظة، في هذه البناية المدمّرة، وضع ما تبقّى لديه من خزين النبيذ في جزء آمن من القبو. اكتشفه الروس، أريد أن أقول، إنهم شمّوا رائحته بسرعة، وعلى ضوء الشمعة، أفرغوا القبو. كان هناك - بالصدفة - بعض القشّ الذي غُلِّفَت به الزجاجات، اشتعلتْ فيه النار، وتنامتْ، إلى حريق كبير. قال رجل: «السّكارى الأغبياء سقطوا في المزراب. رأيتُ بنفسي كيف أن أحدهم كان لايزال يستطيع

الوقوف على قدميه، مشى على طول صفّ رفاقه، وأخذ الساعات من معاصمهم». ضحك الجميع.

أنا مستلقية - الآن - على فراشي، وأكتب، وأُبقي على الورم بارداً. خطّطنا القيام برحلة كبيرة غداً من برلين إلى شونبيرك.

الخميس، ١٠ مايو ١٩٤٥.

أمضينا الصباح بالأعمال المنزلية، تقطيع الخشب، جلب الماء. الأرملة وضعت قدَمَيْها في مياه الصودا، وجرّبتْ تسريحات شعر مختلفة، على أمل إخفاء أكبر قَدْر من الشيب. في الساعة الثالثة من بعد الظهر، كنا - أخيراً - على استعداد للبدء في الرحلة. رحلتنا الأولى في المدينة المحتلّة.

لا توجد أي كلمات تصف ما رأيناه. تسلّقنا - بصعوبة - إلى المقبرة في هازنهايده مع قبور في صفوف طويلة متشابهة الشكل، في الرمال الصفراء، القبور مؤرّخة بتاريخ آخر غارة جوّيّة كبيرة في مارس. الشمس كانت حارقة. الحديقة العامة كانت تبدو مقفرة. الألمانيون قطعوا الأشجار في ذلك الوقت، للحصول على مجال واضح لإطلاق النار. خنادق في كل مكان، يتناثر فيها زجاجات، علب، أسلاك مقطوعة، وذخيرة. على مقعد، كان يجلس روسيّاَن مع فتاة. نادراً ما ترى روسياً وحده. من الواضح أنهم يشعرون بأمان أكبر عندما يكونان اثنَيْن. واصلنا السير إلى مناطق الطبقة العاملة والكثافة السكّانية العالية، سوف تظن أن عشرات الآلاف من الذين كانوا يسكنون - هنا - قد هاجروا، أو ماتوا، تبدو البيوت مغلقة، وخالية، لهذا السبب، كانت الشوارع هادئة جداً. لا صوت لأي إنسان، أو حيوان، سيارة، راديو، أو قطار. ليس سوى صمت قاتل، حتّى إننا نستطيع سماع صوت وقع خطواتنا. لو راقَبَنَا أحدٌ من سكّان تلك البيوت، فإنه سيفعل ذلك سرّاً. لم نرَ أيّ وجه عند النوافذ.

أبعد من ذلك، تبدأ شونبيرك. وعلى الفور، سوف نرى إن كنا نستطيع

المضي أم أن كان أحد الجسور فوق السّكّة الحديدية الذي يؤدي إلى الغرب لا يزال سليماً. في البداية، رأينا أعلاماً حمراء، أو من الأفضل القول أعلاماً صغيرة حمراء على المنازل. من الواضح أنها مقطوعة من أعلام الصليب المعقوف السابقة، أحياناً تستطيع أن ترى الدائرة السوداء؛ حيث القماش الأبيض مع الصليب المعقوف الأسود المعروف. الأعلام الصغيرة خيطت بأيدي النساء، ومَن يمكنه أن يفعل ذلك في بلدنا إلا النساء؟!

في كل مكان على طول الطريق، هناك بقايا من الجيش، سيارات منهوبة، مضادّات الدروع، ودبابات محروقة. هنا وهناك لوحة، نشرة باللغة الروسية، بمناسبة احتفال ١ مايو. ستالين المنتصر. وهنا - أيضاً - ثمّة القليل من الناس. من حين إلى آخر، يتعثّر مخلوق بائس بالقرب منا، رجل يرتدي قميصاً بأكمام طويلة، امرأة شعرها غير ممشّط. لم يولنا أي أحد أي اهتمام. «نعم، الجسر لا يزال موجوداً» أجابتْ امرأة قذرة حافية عن سؤالنا، ومضتْ - بعد ذلك - بسرعة. تمشي حافية؟! في برلين؟! لم أرَ ذلك من قبل. لا يزال على الجسر حاجز من أحجار متكسّرة. تسلّلنا من خلال ممرّ مشقوق من بين الحطام، قلبي كان يدقّ بقوّة عندما فعلتُ ذلك.

الشمس ساطعة. الجسر فارغ. وقفنا للحظة، ونظرنا إلى سكّة الحديد تحتنا. قضبان مصفرّة مشتبكة مع بعضها، وبينها حفر عميقة. أجزاء من القضبان كانت ملتوية عالياً فوق الأرض. أجزاء من الأفرشة والشراشف تتدلّى من مقصورات النوم ومقصورات المطعم التي تعرّضت للقصف. حرارة شديدة، تُخيّم رائحة احتراق على خطوط السّكّة الحديدية. وحشية وقسوة في كل مكان، ولا أثر للحياة. هذه هي جيفة برلين.

دخلنا شونبيرك. هنا وهناك، تقف فتاة، أو امرأة، في مدخل منزل. عيونهنّ، بلا تعبير، وجوههنّ متورّمة، ومنتفخة. أستطيع أن أرى في هذه الوجوه أن الحرب قد انتهت منذ بضعة أيام. لم يتمالكوا أنفسهم بعد، ولا يزالون مثلنا في حيرة من أمرهم منذ عدّة أيام.

واصلنا المشي في پوتسدامر شتراسه، بالقرب من بنايات دوائر حكومية محروقة، أبراج منازل شاغرة، خرائب.

مشهد مؤثّر في الزاوية: أمام كومة من الأنقاض، التي تعلو فوقهنّ، تظهر سيدتان عجوزتان ترتجفان، تجرفان شيئاً من الأنقاض، بمجرفة الفحم، وتضعانها في عربة صغيرة. إذا بقيتا على هذا المنوال، سوف تحتاجان إلى أسابيع لهذا الجبل. أيديهما مِليئة بالعُقد، لكنْ؛ ربّما ستنجحان في ذلك.

كلايستپارك كان موحشاً. تحت الأروقة المسقفة خُرق، أفرشة، وأغطية سيارات ممزّقة. أكوام من الفضلات في كل مكان؛ حيث الذباب يطنّ حولها. في الوسط، كان الملجأ الذي لم يكتمل بناؤه بعد محاطاً بأشواك حديدية، يبدو مثل قنفذ. كان الهدف منه أن نجد لنا مأوى من القنابل هناك في السنة السابعة من الحرب. سحب مواطنان عارضة خشبية من الكومة التي كانت مكدّسة أمام الملجأ. أحدهما نشر قطعاً منها. كل شيء مُلك للجميع. بحزن، خدشَ المنشارُ الصمتَ. بشكل لا إرادي، همسنا أنا والأرملة إلى بعضنا، كان حلقانا جافّين، المدينة الميتة أعاقت تنفّسنا. الهواء في الحديقة العامة كان ثقيلاً من الغبار. الأشجار كلها تبدو كما لو أنها رُشَّتْ بمسحوق أبيض، مليئة بثقوب الرصاص وجروحها بالغة. شبح ألماني مرّ مسرعاً، يجرّ خلفه بعض الشراشف. عند مخرج الحديقة العامة، كان هناك قبر روسي محاط بالأسلاك الشائكة. ومن جديد الأعمدة الخشبية الحمراء، وبينها لوحة مسطّحة من الغرانيت مكتوب عليها بالجير، أن هنا يرقد الأبطال الذين ماتوا في سبيل الوطن. «گيروي» في اللغة الروسية تعني البطل. گيروي، الأبطال. تبدو بروسية جداً.

بعد عشرين دقيقة، كنا نقف أمام منزل، يسكنه أصدقاء للأرملة. «صديق زوجي» - وضّحت الأرملة - معلّم لغات كلاسيكية، متزوّج. المنزل كان يبدو ميتاً تماماً. الباب الأمامي مسدود بالألواح الخشبية المُسمَّرة عليه. عندما مشينا حول المنزل للبحث عن مدخل خلفي، رأينا امرأة ترفع تنّورتها في

ركن من الحديقة لقضاء حاجتها، دون خجل أمام أعيننا. من جديد، شيء أراه لأول مرّة في برلين. أخيراً عثرنا على المدخل الخلفي، صعدنا درجتَيْن، طرقنا على الباب، نادينا باسم الأرملة كأنها كلمة السّرّ.

في الداخل، كان هناك همس، صوت خطوات مُدوّية، ظهر شخص، كان يعرف مَن نحن. فتح الباب بسرعة. حضنّا بعضنا، ضغطتُ خدّي على خدّ غريب عني تماماً. لأني لم أرى هؤلاء الناس من قبل. إنها زوجة المعلّم، ظهر - الآن - المعلم خلفها مع يدَيْن ممتدَّتَيْن، وطلب منا الدخول. تحدّثت الأرملة بسرعة محمومة، قالت ما حصل كله بارتباك، والسيدة الأخرى تحدّثت أيضاً، لكنْ؛ لا تسمع إحداهما الأخرى. استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن نجلس في الغرفة الوحيدة الصالحة للسَّكَن من المنزل المقصوف بشدّة. أخرجنا الخبز المدهون بالزبدة الذي حملناه معنا، وقدّمناه لهما. الزوجان نظرا لنا بذهول. الخبز لا يُوزَّع هنا، والروس - أيضاً - لم يتركوا شيئاً خلفهم. وعلى سؤال، لا مفرّ منه: «كم مرّة ... معكِ؟» قالت المرأة صاحبة المنزل بلهجتها البروسية الشمالية الواضحة: «أنا؟ مرّة واحدة فقط. في اليوم الأول. وبعد ذلك، حبسنا أنفسنا في الملجأ، ومعنا طشت مليء بالماء». المنتصرون جاؤوا - لاحقاً - إلى هنا، واختفوا في وقت سابق، في لحظات.

على ماذا يعيشان هنا؟ «أوه، لا يزال لدينا بعض الحبوب والبطاطا. آه، نعم، وحصاننا، بالتأكيد!».

حصان؟ ضحك الجميع، والمضيفة أخبرتنا بما حدث مع إيماءات توضيحية: عندما كانت القوّات الألمانية لا تزال متواجدة في الشارع، دخل رجل بسرعة إلى القبو، مع أخبار جيدة، مفادها أن هناك في الخارج حصاناً ميتاً. في لحظة، كان جميع شعب القبو في الخارج. كان الحيوان لا يزال مُلقَى على الأرض متشنّجاً، وعيناه كانتا تدوران عندما لأول مرة غُرزت سكاكين المطبخ والجيب في جسده كله - هذا كله حدث، بالطبع، بينما كان هناك إطلاق نار. الجميع قطّع ومزّق في المكان الذي كان أمامه بالصدفة. عندما

مدّت زوجة المعلم يدها إلى طبقة شحمية صفراء لامعة، تلقّت ضربة على أصابعها بالسكّين: «أنتِ هناك: ابقِ؛ حيث أنتِ!» قطعة من ستة أرطال، تمكّنت المرأة من قطعها. «الباقي احتفلنا به في عيد ميلادي» قالت. «طعمه رائع، تبّلت القطعة الأخيرة منه بالخلّ». أنا والأرملة قدّمنا لها التهاني الحارّة بعيد ميلادها. وُضع على المائدة زجاجة بوردو. شربنا بصحة السيدة صاحبة المنزل، الأرملة روت لها قصتها المفضّلة، وكيف قُورنت بالمرأة الأوكرانية. لم نعد نعرف الخجَل بعد الآن.

ودّعناهما مرة بعد أخرى. المعلّم فتّش في أنحاء الغرفة كلها عن شيء؛ ليعطيه لنا مقابل الخبز، لكنه لم يجد أي شيء.

وتوجّهنا - بعد ذلك - إلى حي بايرشه فيرتل؛ لأبحث عن صديقتي گيزلا. صفوف، لا نهاية لها، من سيارات شخصية ألمانية، هياكل سيارات، أُفرغت محتوياتها كلها تقريباً. على الجانب الآخر، فتح حلاق محلّه من جديد، مكتوب على قطعة من الورق، أنه يقصّ شعر الرجال والنساء، فقط إذا حملوا له ماءً دافئاً في المقابل. ورأينا - بالتأكيد - الزبون في المحل نصف المظلم، ورجل مع مقصّ في يده، يتحرّك حوله. العلامة الأولى على الحياة في هذه الجيفة، أو ما تسمّى برلين.

صعدنا الدرج إلى شقّة گيزلا. طرقتُ الباب، وناديتُ باسمها، كنتُ أرتجف من الانفعال. ومن جديد، عانقنا بعضنا، بينما في السابق، كنا نصافح بعضنا كحدّ أقصى.

گيزلا لم تكن وحدها. كانت تسكن معها فتاتان شابّتان، أحد معارفها أرسلهما لها. طالبتان نازحتان من ڤروتسواف. جلسنا صامتَيْن في غرفة فارغة تقريباً، خالية من النوافذ لكنْ؛ نظيفة. وبعد تبادل التحية والأشواق، حلّ الصمت. شعرتُ أن الحزن يسيطر على المكان. كلا الفتاتَيْن لديهما هالات سوداء تحت عيونهنّ. الكلمات القليلة التي تحدّثنَ بها كانت يائسة

ومريرة. كلتاهما، كما قالت گيزلا التي تحدّثت لي على انفراد في الشرفة، افتُضّت بَكَارتاهما من قِبل الروس، وبعد ذلك، كانتا الضحية لمرّات عديدة. الشقراء هيرتا، عمرها عشرون عاماً، منذ ذلك الوقت، ولديها آلام مستمرّة، ولا تعرف ما يجب القيام به. تبكي كثيراً، تقول گيزلا. لا تعرف هيرتا أيّ شيء عن عائلتها الذين خرجوا من سيليزيا، وتبعثروا في الجهات الأربعة كلها، هذا لو كانوا على قيد الحياة. تشبّثت الفتاة بگيزلا، بشكل هستيري، الرشيقة ذات التسعة عشر عاماً، بريگيتا التي تقاوم سخرية قذرة لروحها المجروحة. مليئة بالكراهية والحقد، تجد الحياة قذرة، والناس - وتعني الرجال بالتحديد - خنازير قذرة. تريد أن تذهب بعيداً، بعيداً جداً، في مكان ما؛ حيث لا يوجد أيّ زيّ عسكري، ما يجعل قلبها يتوقّف عن النبض، لمجرّد رؤيته.

گيزلا نفسها تخلّصت من الاغتصاب بسلام عن طريق خدعة، تأخّرتُ جداً في سماعها مع الأسف. قبل أن تصبح گيزلا محرّرة، كان لديها طموح في المسرح، وتعلّمت القليل من الرسم على الوجه. رسمتْ بالدهان قناعاً رائعاً لسيدة عجوز على وجهها، ولفّت شالاً حول شعرها. عندما جاء الروس - وبمساعدة المصباح اليدوي التقطوا كلتا الطالبتَيْن فوراً، وگيزلا مع تجاعيد الفحم، أعادوها على وسائدها: «أنتِ، نامي، يا بابوشكا» (أنتِ، نامي، يا جدّة). ضحكتُ لا إرادياً، لكني كَبَتُّ فرحي - فوراً - من جديد. الفتاتان كانتا تنظران أمامهما، بحزن ومرارة.

هاتان الفتاتان سُرق منهما ثمار الحبّ الأولى. ومَن تبدأ من النهاية، وبمثل هذه الطريقة الحيوانية، سوف لن تعرف - أبداً فيما بعد - ماذا يعني أن ترتعش مع أول لمسة من رجل. بالنسبة لي، كانت مع شاب، اسمه پاول، كان في السابعة عشرة، وأنا أيضاً، عندما دفعني في ظلّ أحد الأروقة في أولمنشتراسه. كنا عائدَيْن من حفل موسيقي للشباب، شوبرت كما أذكر، كنا لا نزال متحمّسَيْن من الموسيقى، لكنْ؛ لم نكن قادرَيْن على الحديث حول ذلك. كلانا كان بلا خبرة، الأسنان تضغط على الأسنان، بينما كنتُ أنتظر -

بكل ثقة - المعجزة التي تُحدِثُها القبلة الأولى. حتّى لاحظتُ أن شعري قد انسدل، والمشبك الذي كان يعقد شعري عند رقبتي قد اختفى.

فزعتُ. هزرتُ ثوبي وياقتي، پاول تلمّس الأحجار في الظلام بحثاً عنه. ساعدتُه في البحث، تلاقتْ أيدينا، لمسنا بعضنا، كل شيء بارد الآن. لم نعثر على مشبك الشعر. ربمّا ضاع منّي في الطريق. كان هذا فظيعاً. الأمّ - حتماً - سوف تلاحظ ذلك، سوف تسأل عنه، سوف تنظر لي بحدّة، وسوف يفضحني وجهي بما فعلته مع پاول في الرواق. ودّعْنَا بعضنا بسرعة، بخجل مفاجئ، ولم نقترب من بعضنا لاحقاً على الإطلاق. لكنْ؛ في الواقع، تلك النظرات الخجولة في الرواق لم تفقد بريقها.

بعد ساعة، جاء الوداع الطويل. من الصعب أن تفارق أصدقاءكَ في الوقت الحاضر، لأنك لن تعرف - أبداً - متى وكيف سوف تلتقيهم مرّة أخرى. يمكن أن تحدث أمور كثيرة. على أي حال، دعوتُ گيزلا لزيارتنا في اليوم التالي. الأرملة دعتْ أصدقاءها أيضاً. سوف نحاول توفير الخبز لهم.

عدنا في الطريق الطويل المغبرّ المهجور نفسه. كان هذا كثيراً على الأرملة. كانت تتألم من قدميها، وأحياناً كان علينا أن نستريح على حافة الرصيف. أجرّها معي، كما لو أني أحمل وزناً ثقيلاً، كان لديّ شعور أن برلين سوف لن تخرج من محنتها، أننا سوف نظل فئران الخرائب حتّى النهاية. لأول مرّة، جاءتني فكرة ترك هذه المدينة، والبحث عن مدينة أخرى، أجد فيها هواءً، ومساحات خضراء، خبزاً، ومأوى.

في الحديقة العامة، استرحنا قليلاً على مقعد هناك. كانت تجلس إلى جانبنا شابة مع صبيَّيْن صغيرَيْن، كانا يلعبان بالقرب منها. جاء روسي، أومأ - بشكل حتمي - إلى روسي آخر، وقال بالروسية: «تعال هنا، هنا طفلان، إنهما الوحيدان اللذان تستطيع الحديث معهما» الأم نظرت لنا، وهي ترفع كتفَيْها وخائفة. بالتأكيد، تبع ذلك حوار بين الرجلَيْن والطفلَيْن، وبعدها أجلسهما

بهدوء على ركبتَيْهما، مع أنشودة روسية: «هوب، يا حصان، هوب». أحد الجنديَّيْن استدار نحوي، وقال بنبرة لطيفة جداً بالروسية: «ماذا يهمّ - الآن - مع مَن تذهب إلى الفراش، القضيب هو القضيب» (هذه العبارة أعرفها من أناتول بوقاحته، وقاحة الفلاحين). كان لديّ صعوبة في أن أتصرّف، كما لو أني لم أفهم، للحفاظ على ما كان يظنه الرجلان. ابتسمتُ بغباء، عندها ضحك الرجلان، بصوتٍ عالٍ. بكل سرور!

عدنا إلى المنزل بأقدام متعبة. هير پاولي كان يجلس على الأريكة، ينظر من النافذة منتظراً قدومنا. لم يصدّق أننا طوال ثلاث ساعات من سيرنا مشياً على الأقدام، لم نرَ إلا عدداً قليلاً من الروس، بشكل عَرَضي. كان يتصوّر أن في مركز المدينة لا يزال هناك سرب من القوّات العسكرية. وجدنا ذلك غريباً، وسألنا أنفسنا أين مَكَثَ أولئك المنتصرون كلهم. تنفّسنا في شارعنا الهواء النظيف - بعُمق - وبرعب تذكّرنا غبار صحراء شونبيرك.

كان لديّ صعوبة في النوم. أفكار كئيبة. كان يوماً حزيناً.

الجمعة ١١ مايو ١٩٤٥.

الأعمال المنزلية. نقعْنَا الغسيل، وقشرْنَا آخر كمّيّة بطاطا، من خزين المطبخ. فرولاين بين جلبتْ إلينا بطاقات التموين الجديدة. طُبعت البطاقات على ورق الجرائد في ألمانيا وروسيا. هناك نوعان من البطاقات، للكبار وللأطفال تحت سنّ الرابعة عشرة. وضعتُ بطاقاتي إلى جانبي، وسجّلتُ الحصص اليومية: ٢٠٠ غرام خبز، ٤٠٠ غرام بطاطا، ١٠ غرام سكّر، ١٠ غرام ملح، ٢ غرام قهوة الشعير، ٢٥ غرام لحم. ليس هناك دهن. إذا حصلنا على هذا حقاً، فهو نافع إلى حدّ ما. بقيتُ مذهولة لوجود الكثير من النظام في هذه الفوضى.

رأيتُ عند البقّال صفّاً من الناس ينتظرون، وانضممتُ لهم. حصلتُ على بنجر وبطاطا مجفّفة على بطاقاتنا. الأحاديث - هنا - هي نفسها عند المضخّة: الجميع ضدّ أدولف، ولا أحد كان معه. أصبح الجميع مُطارَدُون، ولا أحد بَلّغ عن أحد، على الإطلاق.

هل كنتُ أنا نفسي مع هتلر؟ ضدّه؟ كنتُ على الحياد، على أي حال، واستنشقتُ الهواء الذي أحاطنا به، ولوّننا به - أيضاً - حتّى لو لم نرغب بذلك. باريس أكّدت لي ذلك، أو بالأحرى طالبٌ شابٌّ التقيتُه في السنة الثالثة من عصر هتلر في حدائق لوكسمبورغ. أسرعنا أنا وهو تحت شجرة، عندما بدأ المطر بالهطول فجأة. تحدّثنا بالفرنسية، وسمع كلانا - فوراً - أن الآخر أجنبي أيضاً. من أيّ بلد؟ حزرنا ذلك، مع كثير من المرح والمشاكسة.

لون شعري جعله يظن بأني سويدية، بينما أنا أصررتُ على تسميته موناكوي؛ لأن هذا الاسم لسكّان موناكو تعلّمتُه للتوّ، ووجدتُه جميلاً.

توقّف المطر فجأة، كما بدأ. واصلنا السير، وعملتُ تمريرة سريعة؛ لأضبط سرعة خطوتي على سرعته. ظل واقفاً، وصاح: «Ah, une fille du Führer» - آه، ابنة الفوهرر، إذنْ، ألمانية. عرفني بلحظة؛ لأني حاولتُ السير على خطى الرجل الذي بجانبي.

الآن انتهى وقت المرح والمشاكسة؛ لأن الشابّ قدّم نفسه الآن: لستُ موناكوي، لكنْ؛ هولندي، ويهودي أيضاً. عن ماذا يجب أن نتحدّث بعد؟ انفصلنا عند أول طريق جانبي. هذا الحادث كان وقعه مريراً في ذلك الوقت، كان عليّ أن أفكّر طويلاً في هذا الموضوع.

تذكّرتُ - فجأة - أني لم أسمع أي شيء عن هير وفراو گولس منذ أسبوع، جيراني في الطابق الذي كنتُ أسكن فيه في بنايتي السابقة التي احترقتْ تماماً، وأعضاء الحزب السابق. مشيتُ في جولة قصيرة، وسألتُ عبثاً عنهما. سألتُ الجيران الذين فتحوا الباب جزئياً، وأبقوا السلسلة بعد أن طرقتُ على الباب طويلاً، سمعتُ منهم أن هير وفراو گولس قد غادرا دون أن يتركا أيّ أثر خلفهما. هذا جيد أيضاً، أضافوا؛ لأن الروس جاؤوا للسؤال عن الرجل مؤخّراً. من الواضح أن أحداً ما قد بلّغ عنه.

في وقت متأخّر من ما بعد الظهر، طُرق على بابنا، ونُودي باسمي. ودُهشتُ عندما رأيتُ جسد رجل قد نسيتُه تقريباً من ماضي القبو: زيگزموند، الواثق من الانتصار الألماني، الذي سمع بأني «على علاقة بالروس». كان يريد أن يعرف منّي إن كان ما سمعه صحيحاً أم لا، وأن أعضاء الحزب السابقين كلهم يجب أن يبلّغوا عن أنفسهم طواعية، وإلا سوف يتم القبض عليهم. هناك العديد من الشائعات التي لا تستطيع الإلمام بها جميعاً. قلتُ له بأني لا أعرف أي شيء، ولا أصدّق بأنهم يخطّطون لمثل هذا

الأمر. عليه الانتظار فقط. بالكاد، تعرّفتُ على الرجل. بنطلونه كان واسعاً على جسمه النحيل، كان يبدو بحالة سيئة، ومحزنة. الأرملة ألقتْ عليه خطبة حول تبعيته الساذجة للنظام، والآن رأى بنفسه ماذا يأتي من ذلك ... ابتلع هذا كله بتواضع، وطلب قطعة من الخبز. وحصل عليها. أدّى هذا إلى مشاجرة عائلية بعد خروج زيگزموند - الذي لا أعرف اسمه الحقيقي بعد - هير پاولي كان غاضباً، ويصرخ بأن الأرملة لم تسمع كلامه، بل ودسّت لهذا الرجل بعض الخبز أيضاً. هو مذنب في هذه الفوضى العارمة كلّها، هذا كله ليس سيئاً، بما يكفي، بالنسبة له، كان علينا حبسه، والاستيلاء على بطاقته التموينية ... (ليس هناك شكٌ في أن هير پاولي كان - دائماً - ضدّ النظام؛ لأنه من الشخصيات «المضمرة للشّرّ» السلبية، «الروح التي ترفض دائماً[*]». (ومماّ لاحظتُه، ليس هناك أي شيء على وجه الأرض يتفق معه بشكل كامل وغير مشروط).

نعم، لا أحد يريد أن يعرف أي شيء عن زيگزموند. في البناية، عليه أن لا يفتح فمه، الجميع يقمعه، الجميع يتذمّر منه، لم يعد أحد يريد أن تكون له أيّ علاقة معه. والذين في ظروفه نفسها التزموا الصمت فقط. يجب أن يكون هناك غضب وحيرة في ذهن هذا الرجل. وأنا - أيضاً - كنتُ أنظر له على أنه رجل ناقص، وهذا يزعجني الآن. كيف أنضمّ - دائماً، وفي كل مرّة - إلى الجماهير، وأفعل ما يفعلونه؟ «يوشعنا - والى- صلبوه!»[**] يتكرّر هذا مرّة بعد أخرى.

منذ نصف ساعة، حلّ الظلام، وسمعنا إطلاق نار. من بعيد، صوت صراخ نساء: «ساعدونا! ساعدووووونا!» لم ننظر حتّى من النافذة، ولو لمرّة واحدة. ولماذا نفعل؟ لكنْ؛ من المفيد أن نتذكّر ماذا حدث. هذا يُبقينا يقظين.

---

*) عبارة من مسرحية فاوست لغوته (Geist, der stets verneint)

**) إنجيل متّى ٢٢:٢٧. و"يوشعنا" (hosanna): كلمة تُستخدم في الطقوس العبادية اليهودية والمسيحية. وتعني الحفظ، الإنقاذ والمنقذ.

السبت ١٢ مايو ١٩٤٥.

في الصباح، تجمّع «مجتمع البناية» كله - عدنا إلى التسمية الرسمية - في الحديقة الخلفية التي كنتُ أعدُّها في ذلك الوقت على أنها مقبرة، لحفر حفرة. فقط للقمامة التي أصبحت كالجبال في دلاء القمامة، وحولها. توق للعمل، وأحاديث مرحة، الجميع شعر بالراحة والسعادة؛ لأنه يقوم بشيء مفيد. يبدو غريباً جداً أنْ لا أحد بحاجة للذهاب إلى «عمله»، الجميع لديه إجازة، والأزواج يجلسون مع بعضهم طوال اليوم.

نظّفتُ غرفة الجلوس، فيما بعد، وفركتُ بُصاق الروسيين، دهان جزماتهم، وآخر فتات من سماد الخيول من على الأرضية. بعد هذا العمل، شعرتُ بشهية كبيرة للطعام. لا يزال لدينا بعض البازلاء والطحين. الأرملة دهنت القدر ببقايا الزبدة التي جلبها هير پاولي معه من الفولكسشتورم.

عندما جاء ضيوفنا من شونبيرك، كانت الشقّة تبرق. قاموا بالرحلة معاً رغم أن گيزلا لم تلتقِ - من قبلُ - بأصدقاء الأرملة. الثلاثة غسلوا أنفسهم جيداً، سرّحوا شعرهم، بشكل أنيق، وارتدوا ملابس لائقة. ساروا في الطريق نفسه الذي اتخذناه، ورأوا ما رأيناه. ليس هناك ناس تقريباً، روسي هنا وهناك، خراب وصمت. شربنا قهوة خفيفة، وتناول كل واحد منا ثلاث شرائح من الخبز مع دهن الطبخ. وجبة فاخرة.

أخذتُ گيزلا على جنب في غرفة الجلوس للحديث معها. أردتُ أن أعرف كيف تنظر إلى المستقبل؟ هي تراه مظلماً. ولديها قناعة بأن عالم الغرب،

عالم الفن والثقافة، العالم الوحيد الذي له قيمة، بالنسبة لها، محكوم عليه بالإفلاس. روحها متعبة جداً للبدء من جديد. لا تظن أن لدى المتعلّمين فرصة للبقاء على قيد الحياة، ناهيكَ عن أداء العمل الذهني. لكنها - في الواقع - لا تنوي البحث عن مهرب في الفيرونال(*) أو ما شابه من السموم. تريد الاستمرار حتّى النهاية، حتّى لو كانت لا تملك الشجاعة، أو الفرح. قالت إنها تريد البحث عن «الألوهية» في نفسها، تريد أن تتقبّل طبيعتها العميقة الخاصة، ومن خلال ذلك، تتأمّل الخلاص. هي تعاني من نقص التغذية، لديها ظلال عميقة تحت عينَيْها، وسوف تضطر أن تموت جوعاً مع الفتاتَيْن اللتَيْن تولّت رعايتهما، ويبدو أنها تقدّم لهما من طعامها الخاص. خزينها من الحبوب ورقائق الشوفان سُرق قبل قدوم الروس. Homo homini lupus(**) (الإنسان ذئب لأخيه الإنسان).

عند وداعها، قدّمتُ لها سيجارتَيْن، أخذتُهما خلسة من صندوق الرائد الذي دخّن نصفه هير پاولي. في النهاية، أنا مَن عملتُ لأجل هذا، وليس هو. حصّتي حصلتُ عليها بعدالة. گيزلا يمكن أن تُبدلها مقابل شيء للأكل.

في المساء، ذهبتُ لجلب الماء. المضخّة في حالة غريبة، الدعامة الخشبية قد كُسرت والمرفق الذي انفكّ عدّة مرّات تمّ ربطه بعدّة أمتار من الحبال والأسلاك جيداً قدر المستطاع. يجب أن يكون هناك - دائماً - ثلاثة رجال يمسكون الدعامة، بينما اثنان آخران يضخّان الماء. هذا التعاون تمّ بسلاسة، ولا أي كلمة قيلت في أثناء ذلك. في كلا الدلوَيْن اللذَيْن حملتُهما معي، تطفو شظايا وبرادة من المضخّة. يجب علينا - الآن - غربلة الماء. ومرّة أخرى، أنا مندهشة من «أنهم» بنوا حواجز، اتّضح أنها عديمة الفائدة، ولم يخطر في بالهم أننا لا نملك إلا عدداً قليلاً من مضخّات

---

*) فيرونال (Veronal): هو الاسم التجاري لـ الباريتال بشكل الحمض النقي، هو أول مركب تجاري، بشكل الباربيتورات، ويُستخدم كمنوّم منذ ١٩٠٢ حتّى منتصف الخمسينيات ١٩٥٠.

**) عبارة لاتينية، وتعني بالإنكليزية: A man is a wolf to another man.

المياه، بسبب حصار المدينة. هم مَن حاصروا المدن من قبل، لهذا هم يعرفون - أيضاً - ما يجب القيام به. لكنْ؛ من المحتمل أن كل شخص في موقع السلطة تحدّث عن إنشاء مضخّة نبذوه على أنه انهزامي ووغد المساء كان هادئاً اليوم. لأول مرّة منذ ثلاثة أسابيع، فتحتُ كتاب: جوزيف كونراد «Die Schattenlinie»(خطّ الظلّ). وجدتُ صعوبة في الدخول إلى عالمه؛ لأني كنتُ أنا نفسي مليئة بالصور.

الأحد، ١٣ مايو ١٩٤٥.

يوم صيفي رائع. منذ الصباح الباكر، ونحن نسمع أصواتاً متفائلة: نفض السجّاد، فرك الأرضية، ضرب بالمطرقة. ومع ذلك، لا يزال الخوف يحيط بنا، خوف من أننا يجب أن نخلي بنايتنا وشقّتنا للجنود. عند المضخّة، سمعتُ أن هناك إشاعة، مفادها أن القوّات العسكرية سوف تتمركز في حيّنا. لم يعد هناك شيء لنا في هذه البلاد سوى هذه اللحظة التي نعيشها الآن. ولهذا نشعر بالامتنان عندما نجلس نحن الثلاثة حول طاولة مفروشة بعناية، لتناول الفطور، هير پاولي لا يزال يرتدي روبه، لكنه تحسّن - الآن - قليلاً.

حول برلين تُدقّ أجراس نصر الحلفاء. في هذه اللحظة، في مكان ما، هناك الموكب الشهير الذي لا يعنينا. قيل إن الروس جعلوا اليوم يوم عطلة رسمية، وأن الجنود حصلوا على الڤودكا، من أجل الاحتفال بالنصر. عند المضخّة، قيل إن النساء يجب أن لا يغادرنَ بيوتهنّ قدر المستطاع. لا نعرف إن كان علينا تصديق ذلك أم لا. الأرملة هزّت رأسها بجدّيّة. هير پاولي دلّك فخذه من جديد، وقال، إنه يجب أن يضطجع مرّة أخرى. وأنا أنتظر.

في غضون ذلك، تحدّثنا حول موضوع الكحول. هير پاولي سمع ذات مرّة أن القوّات الألمانية كان لديهم أوامر بأن لا يدمّروا مخازن الكحول، بل يجب أن يتركوها للعدوّ المطارد؛ لأن التجربة قد علّمتهم أن الكحول يوقف العدوّ، ويقلّل من عزيمته في القتال. إنه حقاً كلام رجال، من قِبَل رجال، ومناسب للرجال. لو فكّروا لدقيقَتَيْن، سيكتشفون أن الكحول يُضعف الجسم، ويثير

الغريزة (ليس القدرة، كما لاحظتُ) بشكل كبير جداً. اقتنعتُ من هذا أن بدون الكثير من الكحول، الذي وجده الروس عندنا في كل مكان، لن تقع نصف حالات الاغتصاب التي حدثتْ. هؤلاء الرجال ليسوا كازانوفات. يجب أن يُحرِّضوا أنفسهم أولاً للقيام بهذه الأعمال المشينة، أن يتخلّصوا من موانعهم الداخلية بالشراب. هم يعرفون هذا أيضاً، أو يشعرون به على أي حال، وإلا لن يندفعوا بهذه الوحشية خلف الكحول. في الحرب القادمة التي ستندلع بين الأمهات والأطفال (لأن رجال المعركة اعتادوا أن يخوضوا معاركهم على أرض المعركة، بعيداً عن وطنهم) سوف يقذفون كل قطرة فائضة يعثرون عليها من المشروبات الروحية في البالوعة، قبل تراجع قوّاتهم الخاصة. يدمّرون مخازن الكحول، يفجّرون أقبية البيرة. أو بالنسبة لي، يوجّهونها نحو شعبهم بسرعة لإحياء ليلة سعيدة. لو أن الكحول كانت بعيدة، طالما هناك نساء في متناول يد العدوّ.

والآن حلّ المساء. الأحد المخيف قد انتهى. ولم يحدث أي شيء. كان الأحد الأكثر أماناً منذ الثالث من سبتمبر ١٩٣٩. استلقيتُ على الأريكة، الشمس مشرقة، والطيور تغرّد في الخارج. قضمتُ الكعك الذي خبزتْهُ الأرملة، باستخدام الكثير جداً من الخشب، وفكّرتُ في الحياة. والنتيجة وضعتُها على كفّتَي ميزان:

على الجانب الإيجابي، لا يبدو الأمر سيئاً جداً، بالنسبة لي. أنا حيوية، وبصحّة جيدة. لم يتضرّر جسدي. لديّ شعور بأني تسلّحتُ بشكل جيد للحياة، كأني اكتسبتُ غشاء سباحة؛ لأسبح في الطين، وأن عضلاتي أصبحت مرنة، وقوية. أنا منسجمة مع هذا العالم، بشكل جيد، ولستُ ضعيفة. جدّتي اعتادت على قيادة عربة السماد.

على الجانب السلبي، هناك نقاط سلبية فقط. لم أعد أعرف ماذا أفعل - بعد - في هذا العالم. لستُ شخصاً لا غنى عنه لأي إنسان. مجرّد أني متشبّثة بالحياة، وأنتظر، لا أرى في الوقت الحاضر هدفاً، أو مهمةً،

بالنسبة لي. كان يجب أن أفكر بقوّة في مناقشة، جرت ذات مرّة بيني وبين سيدة سويسرية ذكية جداً، تحدّثتُ فيها عن جميع الخطط الرامية لتحسين العالم، من خلال شعاري: «حصيلة الدموع تبقى ثابتة دائماً». لا يهمّ بأي ربّ يؤمن شعب ما، أو مقدارِ صافٍ دخلهم. كمّيّة الدموع، الألم والغضب، التي يدفعها كل إنسان للحياة، تظلّ ثابتة. الشعوب المرفّهة يتخبّطون في العصبية والملل. آخرون، يتعرّضون لتعذيب غير مسبوق، مثلنا نحن الآن، فيأتي التبلّد لإنقاذهم. إذا لم يكن الأمر بهذا الشكل، سوف أمضي الليل والنهار في البكاء، لكني أبكي قليلاً تماماً، كما يفعل الآخرون. هنا يجب أن يعمل قانون الطبيعة. لكنْ؛ من الواضح، أن مَن يؤمن بثبات المجموع المادي للدموع غير مناسب لتحسين العالم، أو لأعمال العنف عموماً.

الخلاصة: كنتُ في اثنتَي عشر دولة من دول أوروبا. سكنتُ في موسكو وباريس ولندن، ونظرتُ - عن قرب - إلى البلشفية والبرلمانية والنازية، كإنسانة عادية مع أناس عاديين. هل هناك اختلاف؟ نعم، حتّى إن هناك اختلافات كبيرة. وهذه الاختلافات - بالنسبة لوجهة نظري - تكمن في المظاهر، في قواعد اللعبة المناسبة في وقت معين، وليس في سعادة عامة الشعب، إن كانت أقلّ أو أكثر، مثلما كان هذا هو هم كانديد(*). الإنسان الضعيف، البليد، المنقاد، الذي لا يعرف عن الوجود سوى المكان الذي وُلد فيه، لن يكون سعيداً في موسكو، ولا باريس، ولا برلين. هو انسجم روحياً مع ظروف حياته.

بالنسبة لي، مزاجي وذوقي الشخصي هو المسيطر. لم أكن أريد العيش في موسكو. أكثر ما كان يزعجني هناك التدريب الأيديولوجي المستمرّ، علاوة على ذلك استحالة سفر المواطن الروسي بحُرّيّة حول العالم، وأخيراً الغياب الكامل لأيّ إثارة حسّيّة. النظام هناك لا يناسبني. من ناحية أخرى، أنا أحبّ السَّكَنَ في باريس ولندن. والأكثر إيلاماً في الواقع هو شعوري

---

*) كانديد (Candide): بطل رواية فولتير الشهير التي حملت الاسم نفسه.

الدائم أينما ذهبتُ بأني أقف في الخارج، أني غريبة، أجنبية. عدتُ طواعية إلى ألمانيا رغم أن أصدقائي نصحوني بالهجرة. وأنا كنتُ سعيدة بالعودة. في الخارج، ليس لديّ جذور في أي مكان. أشعر أني جزء من هذا الشعب، وأريد أن أشاركه مصيره، حتّى النهاية.

لكنْ؛ كيف؟ العَلَم الأحمر الذي جذبني في شبابي، لا يوصل إلى أي طريق بعد الآن. كمّيّة الدموع ظلّت في موسكو - أيضاً - ثابتة. وإيماني الطفولي في المسيح قد فقدتُه، الرب والآخرة ليسا سوى رموز، بالنسبة لي، منذ فترة طويلة، رموز مجرّدة. التقدّم؟ نعم، نحو قنابل أكبر. رفاهية الجماهير؟ نعم، من أجل بيتكا وأمثاله. حالة رومانسية في زاوية ما؟ نعم، من أجل الناس الذين يمشّطون هدب السجّاد. الممتلكات، راحة؟ يجب أن أمنع نفسي من الضحك! رحّالة متشرّدة متحضّرة، هذه هي أنا. الحبّ؟ سُحِق على أرض الواقع. وإذا حاول الوقوف من جديد، عندها سأكون - دائماً - خائفة منه، سوف لن ألجأ إليه بعد الآن، سوف لن أجرؤ على التمنّي، وهذا الاختيار ذو طبيعة دائمة.

ربمّا الفن، ربمّا الفن الذي يتفانى في خدمة الشكل؟ نعم، لأولئك الذي يمتلكون المهنة، لكنْ؛ أنا لا، أنا مجرّد عاملة عادية، وعليّ أن أكون راضية بذلك. كل ما أستطيع فعله هو أن أقوم بشيء نافع في مجموعة صغيرة، وأن أكون صديقة مخلصة، وأخيراً، الانتظار حتّى النهاية. رغم ذلك، تجذبني المغامرة الغامضة والغريبة للحياة. من باب الفضول فقط، أريد البقاء، ولأني أستمتع باللحظة التي أعيشها الآن وبأطرافي السليمة.

الاثنَيْن ١٤ مايو ١٩٤٥.

ليلة البارحة بعد أن نمتُ بفترة قصيرة، استيقظتُ فزعة على ضجيج المحرّكات. كان هناك صراخ وصوت آلة التنبيه المدوّي. مشيتُ، وأنا أتعثّر نحو النافذة. في الأسفل، كانت تقف شاحنات روسية مليئة بالطحين. الخبّاز حصل على الفحم مسبقاً، لهذا يمكنه أن يخبز، ويجهّزنا بالخبز على بطاقاتنا التموينية. سمعتُه يصرخ من السعادة، ورأيتُه كيف لفّ ذراعَيْه حول رقبة الروسي.

ابتسم الجندي الروسي مبتهجاً. إنهم يلعبون دور نيكولوس(*).

استيقظتُ قبل الفجر على ثرثرة طابور الخبز. الطابور كان يمتدّ حول نصف المباني في الحيّ تقريباً، الآن بعد ظهر هذا اليوم، لا يزال هناك أناس يقفون. الكثير من النساء أخذنَ معهنّ مقاعد صغيرة. يمكنني سماع هسهسة الشائعات.

لأول مرّة، جلبنا الماء من حنفية سليمة، ليست بعيدة عنا. هذا شيء جميل. مضخّة أوتوماتيكية مع ثلاث حنفيات؛ حيث الماء يندفع، بشدّة، بكمّيّات كبيرة جداً. في لحظة، امتلأ الدلو بالماء. يحتاج المرء إلى بضع دقائق للانتظار حتّى يأتي دور الآخر. غيّر هذا جدولنا اليومي بالكامل، وأصبحت الحياة أسهل بكثير.

---

*) نيكولوس (Nikolaus): يُطلَق عليه في ألمانيا أو Weihnachtsmann، وهو ما يُعرف بـ سانتا كلوز، أو بابا نويل.

في الطريق إلى الحنفية، مررتُ بالكثير من المقابر. كلّ حديقة أمامية - تقريباً - فيها مثل ذلك الإيواء الصامت. أحياناً يضعون فوقها خوذة الستالهيلم(*) الألمانية، وأحياناً علم الحزب السياسي الروسي الأوحد الأحمر مع النجمة السوڤييتية البيضاء. يجب أن يكونوا قد مَلَؤُوا العربات جميعها التي جرّوها معهم، بهذه النُّصُب التذكارية.

على طول الرصيف، تصطفّ لوحات خشبية مكتوب عليها باللغة الألمانية والروسية. إحداها يحمل شعار ستالين: «الهتلريون سوف ينتهون، لكنّ ألمانيا باقية». «لوزونك» (شعار) يُسمِّيها الروس، وهي كلمة مُشتقّة من اللغة الألمانية.

نشرة معنونة بـ «أخبار للألمانيين» أُلصقت على بابنا. الكلمات كانت تبدو في هذا الصدد غريبة على الأذن، مثل شتيمة تقريباً. النصّ في النشرة عن استسلام غير مشروط مُوقّع من قِبَل كايتل، شتومف وفريدنسبورك. بالإضافة إلى تقارير عن هدنة على الجبهات كلها، وأسر گورينغ. قالت سيدة، إنها سمعتْ عن طريق مذياعها البلوري إنه بكى مثل طفل عند أسره، وإنه قد حُكم عليه سابقاً من قِبَل هتلر بالسجن مدى الحياة. كان يخفي بمظهر القوّة ضعفه الحقيقي.

نشرة أخرى، كان يقف حولها حشد كبير من الناس، تسبّبت في الكثير من الجدل، تَذكُر أن الروس سوف يقدّمون حصصاً جديدة وكبيرة، تُقسم في خمس مجموعات: هم، الذين يؤدّون أعمال شاقة، العمّال العاديون، أصحاب العمل، الأطفال والأفراد الآخرون من السكّان. سوف نحصل على الخبز، البطاطا، الطحين، القهوة البديلة، قهوة حقيقية، سُكّر، ملح، نعم، وحتّى دهن. هذا كله مع بعضه ليس سيئاً، لو كان ما ذُكِر صحيحاً. حتّى إن الحصص زادتْ جزئياً عن ما كانت عليه في عهد هتلر. تأثير هذه الأخبار

---

*) خوذة ستولهلم (Stahlhelm): هي خوذة، صمّمها الجيش الإمبراطوري الألماني في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٦.

عظيم. سمعتُ أحدهم يقول: «وهكذا نرى - من جديد - أن نشر الأكاذيب يُبقينا أغبياء».

نعم، هذا صحيح، على المرء الذي تعرّض للجوع، الدمار الجسدي الكامل، بسبب العدوّ، أن يضع نصب عينَيْه بأن كل قطعة خبز، كل تعليمات سوف تُقدَّم لنا تجعلنا مذهولين بغباء. وفي هذا الصدد، مَهد گبلز الطريق للمنتصرين. كل قشرة خبز من المنتصرين تُقدَّم لنا على أنها هدية.

بعد الظهر، وقفتُ في طابور اللحم. ليس هناك شيء نافع مثل الوقوف لساعة في الطابور. سمعتُ أن هناك حركة للقطارات مرّة أخرى في اتجاه شتتين، كوسترين ومن فرانكفورت إلى أودر. من ناحية أخرى، حركة المرور في المدينة لا تزال هادئة تماماً.

أخبرتْني امرأة - بقناعة - كيف أن الروس تجنّبوا بنايتها بعد أن كانوا هناك لمرّة واحدة: في الطابق السفلي، عثروا على عائلة، انتحروا بالسّمّ، وجدوهم مضطجعين على الفراش، وفي الطابق الثاني، عائلة انتحرتْ بأن شنق أفرادها أنفسهم على عارضة نافذة المطبخ. خرج الإيڤان مرعوبين، ولم يعودوا أبداً. وللاحتمالات جميعها، تركوا الجثث المخيفة على حالها لفترة من الوقت، لتجنّب قدومهم مرة أخرى.... حصلتُ على حصّتي من اللحم بسرعة، لحم أحمر دون عظم، يُبقينا على قيد الحياة.

«في حوالي الساعة الخامسة من بعد الظهر، يجتمع سكّان البناية كلهم في القبو». مرّت هذه الدعوة من باب إلى باب. أخيراً سيتمّ التخلص من الحاجز أمام القبو. لحسن الحظ. عندها سيكون الطريق ممهّداً إلى خزين الأرملة من البطاطا. وقفنا في صفّ طويل في المدخل. شمعة أُلصقت على كرسي، تشع ضوءاً خافتاً. أحجار الرصيف، ألواح خشبية، كَرَاسٍ وقطع من الأفرشة تنتقل من يد إلى يد.

في القبو، كان هناك فوضى عارمة، ورائحة براز. كل شخص جمع فوضاه

مع بعضها. والأغراض التي ليس لها صاحب تُوضع في الفناء الداخلي. (حيث الأرملة دسّت زوج ملابس داخلية من الحرير، لم يكن لها، في حقيبتها. تذكّرتْ - لاحقاً - الوصايا العشر، وأعادت الطقم؛ لأنها «أخذتْه عن طريق الخطأ» إلى مالكه الحقيقي الذي قد طرّز حرفاً واحداً من اسمه عليه) مفاهيمنا عن الملكية مفكّكة تماماً، الجميع يسرق الجميع. لأن الجميع قد سُرق من قبل آخرين، وكل شيء يمكن استخدامه. والنتيجة أن كل شيء وُضع مباشرة في الفناء الداخلي كان عبارة عن أشياء مبعثرة، لا قيمة لها: أثواب داخلية، قبّعات، أحذية مفكّكة. الأرملة لا تزال تبحث - بشراسة - عن دبوس ربطة عنق زوجها الذي هي نفسها لا تعرف أين خبّأتْه، سحبتُ البطاطا إلى فوق، ووضعتُها إلى جانب سرير هير پاولي.

عندما جاءت الأرملة إلى فوق، تنبّأتْ مرّة أخرى مع صوت يشبه صوت كاسندرا[*] عن أزمة الجوع التي سوف تحدث بعد استهلاك هذه البطاطا. هير پاولي أيّدها، بقوّة. لديّ شعور بأنهما ينظران لي كعبء إضافي، شخص يشاركهم طعامهم في هذه الأسرة، يحسبان كل لقمة أضعها في فمي، ويستخسرون كل بطاطا آكلها. مع أن هير پاولي يأكل من السّكّر الذي حمله الرائد لي معه. سأحاول تلبية احتياجاتي الخاصة من جديد. لكن السؤال هو: كيف؟

لا ألومهما. لم أجرّب ذلك من قبل، لكنّ هذا ممكن جداً، أني في مثل هذه الظروف - أيضاً - سوف لن أشارك الآخرين بطعامي. وليس هناك رائد جديد في الأفق.

---

*) كاسندرا (Cassandra): هي ابنة بريام ملك طروادة وهيكوبا في الأساطير الإغريقية، وكانت محبوبة لأبولو، والذي وعدها بنعمة التبصّر، إن استجابت لرغباته، فوافقت على العرض، لكنْ؛ ما إن حصل ذلك حتّى سخرتْ من أبولو وطلبه، ورفضتْ تحقيقه. فانتقم أبولو بأن جعل تنبّؤاتها كلها تكذب

الثلاثاء، ١٥ مايو ١٩٤٥.

اليوم قمنا بالأعمال المنزلية العادية. إنها تُزعجني. فوق في غرفتي في العلّيّة، وهذه أول مرّة أدخلها منذ اجتياح الروس، كان هناك رجلان منشغلان بتصليح السقف. ندفع لهما أجورهما، على شكل خبز وسجائر. لم يصعد إلى غرفة العليّة أي روسي على الإطلاق. طبقة الجير الرقيقة على الأرضية، التي تكشف أثر كل قَدَم، كانت غير متأثّرة عندما سمحت للعمّال بالدخول. مع ماء كافٍ، وأطعمة للرحلة، هناك مثل أميرة نائمة، لم تُكتشَف بعد، سأكون قادرة على الصمود في العلّيّة. لكنْ؛ بعد ذلك، سأصبح مجنونة من الوحدة، بكل تأكيد.

قيل إن على الجميع التبليغ عن نفسه في مبنى البلدية. اليوم كان دور حرفي. في الوقت المحدّد للتسجيل، كان هناك عدد هائل من الناس ينتظرون دورهم. في قاعة مبنى البلدية، كان هناك رجل منشغل بتحطيم تمثال أدولف بالمطرقة والإزميل. رأيتُ أنفه يتحطّم. ما هو الحجر؟! ما هو النصب التذكاري؟! تحطيم التماثيل(*) استعر حالياً، بشكل، لا مثيل له في ألمانيا. أتساءل إن كان عظماء النازية سوف يبرزون مرّة أخرى بعد سقوط الآلهة(**) هذا. على أي حال، عندما لا يشغل بالي أشياء كثيرة، يجب أن

---

*) تحطيم التماثيل (Beeldenstorm في اللغة الهولندية أو Bildersturm في اللغة الألمانية): هو تدمير واسع النطاق للصور المقدّسة وغيرها من موضوعات الفنّ الديني، والأشياء المُستخدَمَة في الطقوس الدينية، ويُستخدَم هذا المصطلح كاسم جامع لسلسة من تخريب أماكن العبادة الكاثوليكية من قِبَل البروتستانت. ويشير المصطلح - أيضاً - إلى محاربة أي أفكار، أو معتقدات راسخة، ولكنها قديمة.

**) سقوط الآلهة (Götterdämmerung في اللغة الألمانية): الكلمة ترجمة إلى الألمانية من عبارة إسكندنافية قديمة Ragnarök، وهي تشير - في الإسكندنافية القديمة - إلى حرب بين مختلف الكائنات، والآلهة تنتهي إلى الحرق، والغمر في المياه، وتجديد العالم.

أستكشف - مرّة أخرى - حياة نابليون الذي نُفي ونُسي من قِبَل شعبه، في ذلك الوقت. ظهر في وقت لاحق، وعادوا إلى تبجيله مرة أخرى.

في الطابق الثالث من مبنى البلدية، يجب علينا - نحن النساء - أن نصطفّ في صفّ انتظار. المدخل كان مظلماً جداً، مليئاً بنساء، يتدافعنَ، يمكنكَ سماعهنّ فقط، لكنْ؛ لا يمكنكَ رؤيتهنّ أمامي، كان الحديث عن غرز الهليون، الكثير من النساء أُسندت لهنّ مهمة القيام بهذا العمل. هذا ليس بالأمر السيئ. خلفي تقف امرأتان، أو سيدتان، عرفتُ ذلك من طريقتهما في الكلام، قالت إحداهما: «أ تعرفين؟! لم يعد يهمّني. اقتربتُ جداً من غايتي، وزوجي حسب حسابه لهذا دائماً...» اتّضح أن هذه السيدة حاولت الانتحار بالسّمّ بعد أن تعرّضت للاغتصاب عدّة مرّات. لكنْ؛: «لم أعرف أن المعدة يجب أن تحمض قبل ذلك، وإلا لا يعمل السّمّ، هذا ما أخبروني به لاحقاً. لم أحتفظ بالمادة في معدتي».

«والآن؟» سألتْها السيدة الثانية بهدوء.

«الآن، أنا لا أزال على قيد الحياة. الجميل هو أن الأمر قد انتهى. أنا سعيدة فقط؛ لأن زوجي لم يشهد هذا كله».

ومن جديد، كان عليّ أن أفكر بمعنى أن تقف وحيداً في زمن الخوف والبؤس. يبدو لي هذا أسهل، أن لا تضطر لتحمّل عذاب معاناة شخص آخر.. بماذا تشعر أمّ الفتاة المغتصبة؟! أو شخص محبّ حقاً، لكنه لا يستطيع تقديم المساعدة، أو لا يجرؤ على المساعدة؟! الرجال المتزوّجون منذ فترة طويلة، يبدو أنهم الأفضل قدرة على مواجهة الأمر. إنهم لا ينظرون إلى الوراء. لكنْ؛ إن عاجلاً أم آجلاً، ستحاسبهم زوجاتهم على ما فعلوه. يجب أن تكون الحالة الأفظع هي حالة الآباء. أفهم جيداً أن العوائل جميعهم يحاولون - في الوقت الحاضر - أن يتشبّثوا معاً بالموت.

في الداخل عند التسجيل، كان كل شيء يحدث بسرعة. كل شخص

يجب أن يقول بأي لغة أجنبية يتحدّث. عندما أشرتُ إلى أني أعرف القليل من اللغة الروسية، حصلتُ على رسالة، وُضعتْ في يدي، كُتب فيها أني يجب أن أُسجّل في خدمة الترجمة عند القائد الروسي.

في المساء، كرّرتُ الكلمات الروسية، ولاحظتُ أني أعرف القليل منها. في نهاية المساء، قمتُ بزيارة الهامبورغية. ستينشن الطالبة ذات الثمانية عشرة عاماً نزلتْ - أخيراً - من مخزن المؤن. الجروح في جبهتها بسبب جذاذة من حجر البناء قد شُفِيَت. كانت تتصرّف كفتاة، تربّتْ تربية حسنة، من عائلة حسنة، تحمل إبريق الشاي مع شاي حقيقي من المطبخ، وتستمع إلى حديثنا. اتّضح أن فتاتنا الشابة التي كانت تبدو كرجل شابّ، قد خَلّصتْ نفسها أيضاً. قلتُ، إني التقيتُها البارحة على الدرج؛ حيث كانت قد بدأت للتوّ في مشادة مع فتاة أخرى. فتاة ذا بشرة مسفوعة وجميلة جداً، ترتدي كنزة صوفية بيضاء، لكنْها مبتذلة وجامحة في شتائمها، صرختُ على الأخرى، بشكل غير معقول. هنا مع الشاي، سمعتُ أن هناك غيرة في اللعبة: الشابة ذات البشرة المسفوعة عاشرتْ ضابطاً روسياً بطواعية، إلى حدّ ما، شربتْ معه، وأخذتْ طعاماً منه. ولهذا انفعلتْ المِثْلِيّة الشابة. هي تنتمي إلى نوع غير أناني في الحب، وعلى مرّ السنوات السابقة، ظلّت منشغلة ومفتونة بالسمراء دون توقّف. ذلك كله تمّ التعامل معه بشكل طبيعي وبهدوء، ونحن نشرب الشاي. لم يكن هناك إدانة، ولا تقدير. ولا نخاف بعد الآن من كلمات وأشياء معينة. تخرج من أفواهنا بشكل غير مقصود، كما لو أننا التقطناها من سيريوس(*).

---

*) سيريوس (Sirius): أو الشعرى اليمانية من ألمع النجوم في السماء ليلاً. وعُرف باسم سوبدت في الحضارة المصرية القديمة.

الأربعاء، ١٦ مايو ١٩٤٥.

استيقظتُ في حوالي الساعة السابعة مساءً بتوقيت موسكو. في الشارع المهجور، كان صمت الصباح يتلاشى تدريجياً. المحلات كانت لا تزال فارغة، والبطاقات التموينية الجديدة لم تُوزَّع بعد. عند سياج الـ «Kommandantur» (المقرّ) فتاة بزيّ عسكريّ، كانت تريد طردي في البداية، لكني أصررتُ، وأظهرتُ لها الرسالة.

أخيراً جلستُ في مكتب القائد الذي يسيطر على مئة ألف شخص على الأقل. رجل نحيل، ناصع البياض، أشقر، ويتحدّث بنعومة لافتة. هو يعرف الروسية فقط، لكنْ؛ كانت لديه مترجمة تتحدّث - ببساطة، وبشكل سريع - باللغتَيْن الروسية والألمانية - بلا أي لكنة مميزة. هي فتاة ترتدي ثوباً ذا مربّعات مختلفة الألوان ونظّارات، وليست عسكرية. بسرعة الريح، كانت منشغلة بترجمة ما قالتْه صاحبة المقهى ذات الأنف المدبّب. كانت تريد استئناف عملها من جديد؟ رائع، يجب أن تفعل ذلك! وماذا تحتاج لذلك؟ طحين، سكّر، دهن وسجق؟ أممم، أممم. وماذا تحتاج أيضاً؟ قهوة بديلة! جيد، يجب عليها أن تقدّمها مع بعض الموسيقى، بأن تضع فونوغراف، على سبيل المثال؛ لأن الحياة ستعود إلى وضعها الطبيعي في أقرب وقت ممكن. سوف تحصل على التيار الكهربائي غداً، وشارعها كله، وعدها القائد. المترجمة نادت على رجل من الغرفة المجاورة، من الواضح أنه مهندس كهربائي، وضح - على أساس مخططات زرقاء - عرضها على القائد نظام توفير التيار الكهربائي في منطقته. رفعتُ رقبتي. لكنّ حيّنا ليس في المخطط.

وتبع ذلك العديد من المتقدّمين: رجل يرتدي وزرة ميكانيكي زرقاء، سأل إن كان بإمكانه أن يأخذ معه إلى منزله حصاناً عاجزاً عن الحركة، وينزف في الحديقة العامة؛ ويعتني به؛ ليستعيد صحّته من جديد. بالطبع! لو عرف كيف يفعل ذلك! اندهشتُ - بصمت - من أن الحصان لم يُقطَّع - بعدُ - إلى قطع مناسبة لقدور الطبخ. أم أن زمن المجازر الوحشية قد انتهى؟ مذهل جداً، كيف أن كل شخص يحاول الحصول على رخصة رسمية لنشاطاته، ويحاول أن يجد له ظهراً، يحميه. كلمة «القائد» هي كلمة السّرّ في الوقت الحاضر.

مدير مصنع مع اثنَيْن من كتّاب الاختزال جاء يُعرّف بمصنعه، مصنع أنابيب للمواقد توقّف عن العمل في الوقت الحالي، بسبب نقص المواد. «بُدَتّ» قال القائد. «بُدَتّ» هي الصيغة السِّحْرية الروسية التي ترجمتْها المترجمة - بكلّ طمأنينة - إلى: «سيكون كل شيء على ما يرام». نعم، «بُدتّ» يمكنني - أيضاً - أن أترجمها إلى كلمة سِحْرية ثانية: «زاترا»، غداً.

وبعد ذلك، دخل رجلان، مديرا مصنع شوكولاته. جلبا معهما مترجمهما الخاص، المترجم بمهارتي نفسها في اللغة الروسية تقريباً، ربّما هو رجل، كان يعمل كعامل، أو جندي في روسيا. المصنع لم يصنع أي شيء بالشوكولاته، لهذا كان كلا الرجلَيْن يريدان جلب طحين الشيلم من مخازن خارج المدينة، وتصنيع كرات الطحين منه. فكرة رائعة! القائد وعدهما بشاحنة «زاترا» (غداً).

أجواء تجارية تخيّم على هذا المكان. ليس هناك أي ختم، ولا أوراق تقريباً. القائد يعمل مع وريقات صغيرة، يخربش عليها ملاحظاته. راقبتُ باهتمام الكيفية التي تعمل بها السلطات، ووجدتُ هذا مثيراً وممتعاً.

أخيراً جاء دوري. تحدَّثتُ بحُرّيّة، واعترفتُ بما قد سمعه القائد: أني لا أعرف الكثير من اللغة الروسية لترجمة معقّدة، وأني أتحدّث الروسية، بشكل، يمكن فَهْمه فقط. سألني بلطف أين تعلّمتُ الروسية؟ وأيّ نوع من العمل

قمتُ به؟ عندها قال إنهم بحاجة إلى أشخاص، يمكنهم استخدام الكاميرا وقلم التلوين في المستقبل القريب. كان يجب أن أنتظر. هذا أفضل.

في غضون ذلك، دخل روسيان، كلاهما يرتديان جزمة طويلة لامعة، وزياً عسكرياً جديداً تماماً مع الكثير من الزينة. النظافة والاهتمام بالمظهر - بالنسبة لهم - يدل على الثقافة (كولتورا)، علامة على طبيعة إنسانية رفيعة. لا أزال أتذكّر الملصقات التي كانت معلّقة في ذلك الوقت في دوائر موسكو والقطارات كلها مع شعار: «اغسل وجهكَ، ويديكَ كل يوم، وشعركَ على الأقل مرّة واحدة كل شهر». وضّحوا ذلك، بصور صغيرة، مع الكثير من الشطف ورشّ الماء في المغسلة. تلميع الأحذية ينتمي إلى هذه الثقافة أيضاً، وإلى عقيدة النظافة. لهذا لم يُفاجئني أنهما - مع أول وأفضل فرصة سانحة - تجوّلا مع هذا البريق.

الرجلان تحدّثا مع القائد بصوت خافت. أخيراً استدار القائد نحوي، وسأل إن كنتُ أستطيع مرافقة الملازم الثاني تش - تش - تش (هذه المرّة كان الاسم واضحاً، لكني نسيتُ الاسم فوراً مرّة أخرى) كمترجمة. تلقّى أمر تفتيش البنوك في هذه المنطقة. وجدتُ هذا مناسباً. يسعدني أي عمل بسيط، لا يتضمّن جلبَ الماء، وجمعَ الحطب.

إلى جانب الملازم الثاني الوسيم الداكن تجوّلتُ في برلينر شتراسه. شرح لي ببطء ووضوح مثلما يتحدّث المرء - عادة - مع أجنبي، لا يعرف اللغة جيداً، بأن علينا - أولاً - زيارة رئيس البلدية الألماني؛ لنطلب منه قائمة بفروع البنك.

"بورگمايستر" هكذا يُسمّى رئيس البلدية هذا باللغة الروسية. مبنى البلدية يعجّ بالناس، الجميع يركض في الممرّات المظلمة. الرجال يَعدُون بسرعة من غرفة إلى غرفة. الأبواب تُفتح وتُغلق باستمرار. في مكان ما نقرٌ على الآلة الكاتبة. على عدد من الركائز التي تلتقط بعض الضوء، ألصقوا

نشرات، كُتبت باليد، جميعها كُتب عليها النص نفسه: امرأة فقدت عقلها، وضاعت في ٢٧ أبريل، وعائلتها تبحث عنها. «المرأة المذكورة عمرها ٤٣ عاماً، لديها أسنان سيّئة، شعرها مصبوغ باللون الأسود، وترتدي خُفّاً».

غرفة رئيس البلدية كانت مزدحمة برجال يقفون حول المكتب. يتحدّثون، يُومِئون بعنف لبعضهم، ومترجم يُغرّد بينهم. في دقائق معدودة، طلب الملازم قائمة لفروع البنك. فتاة نقرت العناوين على الآلة الكاتبة. كان على رفّ النافذة باقة رائعة من أزهار الليلك.

ونحن في طريقنا. الملازم كان صموتاً ومهذّباً جداً. سأل إن كان يمشي سريعاً جداً أم لا، إن كنتُ على علم بالأمور المصرفية، وإن كانت مرافقتي له مزعجة.

في بنك درسدنر، عاد النظام للإجراءات المصرفية. الطاولات كانت نظيفة، وعلى الطاولة، كان هناك أقلام رصاص مَبريّة بدقّة، ووُضعت على حافة الطاولة. دفاتر ملاحظات مفتوحة، والخزائن كلها آمنة. الطريق إلى مدخل هذا البنك، يمرّ عبر مدخل أكبر، ربما تغاضوا عنه. عند كوميرز بانك كان الوضع مختلفاً: حظيرة خنازير، لم يسبق لها مثيل. الخزائن كلها كانت مفتوحة، أبواب الخزانات تمّ فتحها بالقوّة، والحقائب مُزّقَت، وديست بالأقدام. براز في كل مكان، ورائحة نتنة. هربنا من المكان بسرعة.

البنك الألماني كان يبدو نظيفاً. كان هناك رجلان ينظّفان المكان. الخزائن كانت فارغة تماماً، لكنْ؛ فُتِحت بهدوء بمفاتيح البنك الخاصة. أحد الرجلَيْن قال لي إنهما بحثا عن عنوان مدير البنك، وقادا شاحنتهما لجلبه، وعندما وصلا إليه، عثرا عليه منتحراً بالسّمّ مع زوجته وابنته. دون أن يُضيّعا المزيد من الوقت، ذهبا إلى نائب المدير، وطلبا منه فتح الخزائن. هذا البنك عاد للعمل من جديد. مكتوب على لوحة، أن شبابيك موظّفي البلدية مفتوحة من الساعة ١٣:٠٠ وحتّى الساعة ١٥:٠٠ لاستلام الودائع. الآن، أريد أن

أرى - لمرّة واحدة - الرجل الذي سوف يجرؤ على إيداع ماله هنا. أنا أجد أن الطريقة القديمة في إخفاء المال في الجوارب أو الفراش أكثر أماناً.

لا أفهم - حقاً - كيف نجح الروس - بوعي - من اختراق البنوك، بهذه الطريقة؛ لأن رسمياً لا يمكن أن يكون سرّاق الخزائن هؤلاء قد تلقّوا أوامر، من جهة عليا. خزانات البنك المنهوبة التي كنا عندها قبل قليل وكثرة البراز هناك تشير إلى عملية سطو على البنك. ربمّا لا يزالون يحفظون من دروس المدرسة أن البنوك في هذا البلد هي أسوار دفاعية للرأسماليين، أن نهب البنوك هو نوع من "مصادرة الملكية من مصادري الملكية"، كما ينصّ مبدؤهم، وهذا العمل يستحق المديح والتقدير بالنسبة لهم. شيء ما هنا غير صحيح. كل شيء يشير إلى أن هناك نهباً، قد تمّ بطريقة عشوائية؛ حيث كل شخص سحب لنفسه الكثير، في أثناء المراقبة. أريد أن أسأل الملازم عن هذه الأشياء، لكني لا أجرؤ على ذلك.

هناك عملية تنظيف واسعة في بنك شتيتشن شباركاسه. سيدتان مسنّتان تنظّفان الأرضية. لم يكن هناك خزائن في هذا البنك. الصناديق، على مَدّ النظر، كانت فارغة تماماً. الملازم وعد بأن غداً سوف يكون هناك حراسة لهذا المكان. لكنْ؛ ماذا يجب أن يُحرَسوا هنا؟

قضينا وقتاً طويلاً بلا فائدة في بحثنا عن بنك كريديت أوند بودنبانك.. أخيراً عثرنا عليه في ساحة منعزلة خلف سياج منخفض من قضبان حديدية، لم يُنتهَك، وساكن مثل نوم الأميرة النائمة. طلبتُ معلومات في الداخل، ووجدتُ - أخيراً - عنوان المدير، وقدّمتُهُ للملازم. لم يكتشف أيّ روسي هذا البنك. لوحة اسم البنك الزجاجية الكبيرة على جانب الشارع، والتي كانت تلفت الانتباه لهذا البنك سابقاً، لا يزال موجوداً منها بعضُ أجزاء مفكّكة، تتدلّى من المسامير.

الآن بقي لنا فرع آخر من البنك الألماني يقع على حافة القطاع. نحن في طريقنا إليه. تحت أشعّة الشمس الملتهبة. سئمتُ، أمشي بخطوات

متعثّرة من شدّة التعب. الملازم قلّل خطواته بانتباه. سألني بعض الأسئلة الشخصية، سأل عن تحصيلي الدراسي، ومعرفتي باللغات. وفجأة قال باللغة الفرنسية، بصوتٍ عالٍ، إلى حدّ ما، ودون أن ينظر لي: « Dites-moi est-ce qu'on vous a fait du mal?»(أخبريني، هل سبّبنا لك الأذى؟).

ذُهلتُ، وقلتُ متلعثمة: « Mais non, pas du tout» (لكنْ؛ لا، على الإطلاق)، وبعد ذلك صحّحتُ لنفسي: «Oui, monsieur, enfin, vous comprenez» (نعم، سيدي، أخيراً، فهمتكَ).

فوراً، تغيّرت الأجواء بيننا. كيف يمكنه التحدّث بالفرنسية، بهذه الطلاقة؟ عرفت دون أن يقول لي هو بنفسه؛ لأنه «بيڤشه»، «رجل من الماضي»، رجل من الطبقة الحاكمة السابقة في روسيا القديمة. وبعد ذلك، تحدّث عن أصله. جاء من موسكو. جدّه كان جرّاحاً وبروفيسوراً في الجامعة. أبوه كان طبيباً أيضاً، أتمّ دراسته في خارج البلاد، في باريس، وفي برلين. كانوا أثرياء، ولديهم مربّية فرنسية في المنزل. الملازم الذي وُلد في ١٩٠٧ لا يزال يحتفظ بشيء من نمط الحياة «السابقة». هذا واضح جداً.

بعد أول تبادل للجمل الفرنسية، ساد الصمت بيننا مجدّداً. من الواضح أن الملازم قد أصبح متردّداً أمامي. حدّق أمامه، وقال: «Oui, je comprends. Mais je vous prie, Mademoiselle, n'y pensez plus. Il faut oublier. Tout» (نعم، فهمتُ، لكنْ؛ أرجوك، يا آنسة، انسي، يجب أن تنسي، كل شيء). كان يبحث عن الكلمات المناسبة، تحدّث بسرعة وجدّيّة. أجبتُه: « C'est la guerre. N'en parlons plus»(إنها الحرب. دعنا لا نتحدّث أكثر عن ذلك). ولم نتحدّث بعد ذلك عن الموضوع.

بصمت، دخلنا في قاعة مُدمَّرة ومَنهوبة بالكامل من مبنى البنك الذي لم يكن مغلقاً. تعثّرنا، ونحن نمشي فوق العلب والأدوات المكتبية، اجترنا - بصعوبة - أكوام الورق، ومشينا - بحذر - بين أكوام البراز. الذباب يطير في

كل مكان، ذباب، ذباب ... لم أرَ أو أسمع عن مثل هذا التجمّع الضخم من الذباب في برلين. لم أتخيّل - قطّ - أن بإمكانه إحداث هذا الضجيج كله.

على طول درج حديدي، نزلنا إلى الخزنة. هنا يوجد الكثير من الأفرشة، وبينها زجاجات، وخُرق الأقدام، كما لو أنها كانت هنا منذ قرون، حقائب سفر ممزّقة ومحافظ ورقية. يخيّم على المكان، رائحة ثقيلة نتنة، وصمت رهيب. صعدنا بتثاقل إلى فوق مرّة أخرى، إلى الضوء. والملازم كتب ملاحظاته.

الشمس تسطع في الخارج. الملازم كان يريد أن يرتاح، ويشرب قدحاً من الماء. مشينا حتّى نهاية الشارع، الشارع الوحيد، المهجور الصامت، الذي كان من أجلنا فقط. جلسنا على جزء من جدار حديقة تحت أشجار الليلك. «Ah, c'est bien» (آه، هذا جيد) قال الروسي. لكنه لا يزال يُفضّل الحديث معي بالروسية. لغته الفرنسية، مع أنها واضحة وجيدة، تفتقد - في الواقع - إلى التمرين، وبعد الأسئلة والجمل الأولى، أُرهقت لغته أكثر فأكثر. هو يجد لغتي الروسية جيدة، لكنه يبتسم، بسبب لهجتي التي يجدها - Excusez, s'il vous plait (اعذرني، من فضلك) يهودية. هذا مفهوم؛ لأن اللغة الأم ليهود روسيا هي اليديشية، ومن ثمّ؛ هي لهجة ألمانية.

نظرتُ إلى وجه الملازم الأسمر، وفكّرتُ للحظة في ما لو كان الملازم يهودياً. هل أسأله؟ لكني رفضتُ الفكرة - بعد ذلك - بسرعة. من جانب آخر، تذكّرتُ أني مع كل اللوم والتشهير من جانب الروس لم ينتقدوا - أبداً - اضطهاد اليهود، وأن القوقازي مع أول جملة قالها لي بحيوية، قاوم - بطريقة أو بأخرى - أن يكون يهودياً، بالنسبة لي. في الكثير من استمارات البحث التي كان يجب على كل شخص في روسيا ملأها مرّة بعد أخرى في ذلك الوقت، كانت كلمة اليهود مكتوبة تحت الهوية الرئيسة، كما على سبيل المثال «التتار»، أو«الكالموك»، أو «الأرمن». وأتذكّر أن فتاة تعمل في مكتب، رفضتْ - مع الكثير من الصراخ - أن تسجّل نفسها كيهودية. أمها كانت روسية، قالت لي. ومع ذلك في المكاتب؛ حيث المرء يجب أن يُبلّغ عن

نفسه كأجنبي، كان هناك الكثير جداً من المواطنين اليهود بأسماء ألمانية نموذجية، منقمة، ونبرتها واضحة، مثل گولدشتاين، پيرلمان، روزنزڤايك. الجزء الأكبر من الناس الذين يتحدّثون بلغاتهم، ودرسوا في الخارج، آمنوا بعقيدة السوڤييت، بلا يَهْوَه، تابوت العهد، ويوم السبت.

جلسنا في الظل. كان خلفنا واحد من تلك الأعمدة الخشبية الحمراء، النائم الصامت الذي ينام تحتها اسمه الرقيب ماركوف. عندما فتح لنا باب الطابق السفلي، فتحة صغيرة جداً، ظهرت سيدة عجوز، عندها طلبتُ منها كوباً من الماء للروسي. جلبتْه لي، بلطف وابتسامة، قدّمتْ لي كوب ماء بارداً. وقف الملازم، وشكرها، وانحنى لها. ذكّرني هذا بالرائد، وسلوكه النبيل. النقيضان دائماً. إما: «يا امرأة، تعالي» وبراز في الغرفة، أو: دماثة وانحناءات. الملازم لن يستطيع أن يكون أكثر تهذيباً على أي حال، لم يعاملني إلا كسيدة. من الواضح أني أبدو في عينَيْه سيدة حقاً. لديّ في الواقع شعور بأننا - نحن السيدات الألمانيات - بقدر ما نحن نظيفات إلى حدّ ما، وأنيقات ومهذّبات إلى هذا اليوم، فنحن في عيون الروس مخلوقات مُشرّفة جداً، سيدات محترمات من ثقافة رفيعة. حتّى ييتكا نفسه، الحطّاب، كان يجب أن يلاحظ شيئاً من هذا. ربمّا يلعب إطار الصورة التي وجدونا فيها - أيضاً - دوراً مهماً: القليل المتبقّي من الأثاث المصقول، البيانو، الأسطوانات والسجاد، هذه الفوضى البرجوازية كلها التي تركت مثل هذا الانطباع لديهم. يتبادر إلى ذهني الآن، كيف أن أناتول - ذات مرّة - أعرب عن دهشته، من ثروة فِلاحينا الذين التقاهم في القرى، في أثناء الحرب: «كانوا يملؤون الأدراج جميعها بالأغراض!» نعم، هذه الأغراض كلها! هذا شيء جديد، بالنسبة لهم. في بلادهم، الناس يجب أن يمتلكوا أشياء قليلة وفقاً للقانون. وما يملكونه، يمكنهم أن يضعوه بسهولة في غرفة واحدة. وبدلاً من خزانات الملابس هناك بعض الخُطافات على الحائط في بيوت الكثير من العوائل. وإذا حصلوا على بعض الأشياء، يحرصون على التخلّص منها بسرعة. النساء الروسيات ليس لديهنّ رغبة في تلك التصليحات والتعديلات

كلها التي تقوم بها ربّات البيوت الألمانيات، بلا نهاية. شهدتُ هذا بنفسي ذات مرّة عند عائلة مهندس، كيف أن سيدة المنزل تنظّف الأوساخ، لكنها تجمعها - أخيراً - تحت الخزانة؛ حيث يوجد المزيد منها، بلا شكّ. وخلف باب الغرفة، عُلّقت منشفة، يمخط الأطفال الثلاثة كلهم أنوفهم فيها، الصغير في الجزء الأسفل من المنشفة، والأكبر سناً في الجزء الأعلى. . تماماً كما كان يحدث قديماً في القرى. الفتيات الصغيرات عندنا أجسادهنّ نظيفة دائماً، حتّى الآن مع عدم توفّر الماء أو الصابون، وهذا وحده - بالنسبة للمنتصرين - جزء من الثقافة.

جلسنا وقتاً طويلاً على الجدار، نتحدّث، ونستريح. الملازم الثاني كان يريد أن يعرف أين أسكن، وكيف أعيش. يريد أن يعرفني أكثر، كما قال، ويحمي نفسه ضدّ أيّ شبهة كاذبة: «Pas ça, vous comprenez؟»(ليس هذا، فهمتِ؟) قال ونظر لي بعينَيْن ضبابيَّتَيْن. نعم، فهمتُ. تحدّثنا حتّى المساء. سوف ينادي عليّ من الشارع. سوف أجلس عند النافذة في الوقت المتّفق عليه؛ لأسمع نداءه. اسمه نيكولاي. اسم أمه كوليا. لم أسأل عن زوجته. لديه زوجة وأطفال، بكل تأكيد. وما أهمّيّة ذلك، بالنسبة لي؟ ودّعتُهُ، قلتُ له: «Au revoir» (إلى اللقاء).

ذهبتُ إلى المنزل؛ لأخبر الأرملة بكل شيء، على الفور. ابتهجت الأرملة، وقالت: «يجب أن تحتفظي به. أخيراً رجل متعلّم من عائلة محترمة، يمكنكِ الحديث معه». (پاولي والأرملة يعرفان - أيضاً - بعض الفرنسية). علاوة على ذلك، الأرملة رأتْ في ذهنها السلع تتدحرج أمامها من جديد، هي واثقة من أن نيكولاي يستطيع الحصول على المواد الغذائية، وأنه سوف يعطيني شيئاً منها - وبالتالي لنا نحن الثلاثة - حتّى الآن، لا أعرف بالضبط. من جانب، لا أستطيع أن أنكر بأنه رجل متعاطف. هو الأكثر غربية من بين الروس المنتصرين كلهم الذين التقيتُهم حتّى الآن. ومن جانب آخر، ليس لديّ رغبة برجل آخر، لا أزال أحلم - دائماً - في أن أكون وحدي بين الشراشف النظيفة. وأريد - في

النهاية - مغادرة الطابق الأول والأرملة، وقبل كل شيء هير پاولي الذي يستكثر عليّ كل حبة بطاطا. أريد أن أنتقل إلى غرفتي في العلّيّة، وأنظّفها حتّى أتمكّن من السَّكَن فيها، من جديد. لماذا أنام مع شخصٍ ما مقابل طعام أعطيه للكسول پاولي من أجل تلك الأيام القليلة؟ (النوم مقابل الطعام. واحدة من مصطلحاتنا الجديدة. في هذه الأيام، طوّرنا لغة غريبة، وتحدّثنا عن سُكْر الرائد والأحذية التالفة، عن النبيذ المنهوب، ونقص الفحم).

في وقت لاحق من المساء. في حوالي الساعة الثامنة مساءً، كنتُ أجلس منتظرة عند النافذة، لكنْ؛ مَن جاء، ليس نيكولاي. هير پاولي، سخر بنكت خبيثة من عشيقي الجديد. الأرملة لم تيأس، ظلّت تنظر إلى الساعة، بكل تفاؤل. عندها، سمعنا - بشكل مشوّش - نداءً من الخارج: « C'st moi!»(هذا أنا!) ذهبتُ؛ لأفتح الباب، متحمّسة جداً، واصطحبتُه إلى شقّتنا. جاء لربع ساعة فقط؛ ليقول، إنه لن يأتي؛ لأنه لا يستطيع البقاء. الأرملة وهير پاولي سلّما عليه بلغة فرنسية رسمية، وودّعنا مرّة أخرى بـ « Au revoir»(إلى اللقاء). في المدخل، قال لي باللغة الروسية، بينما هو يمسك يديّ بقوّة: «إلى اللقاء حتّى مساء الأحد في الساعة الثامنة». وبالفرنسية من جديد: «Vous permettez?» (هل تسمحين؟) ؟). منذ متى، ونحن في موقف أن نسمح أو لا نسمح؟ لكنْ؛ ربّما تهبّ علينا - الآن - رياح أخرى. ونيكولاي - أيضاً - لا يظن بأن هناك تضخّماً، أو أموالاً جديدة سوف تأتي، سألتُه اليوم صباحاً عن ذلك. يظن أن أموالنا المستخدَمَة الحالية سوف تظل متداولة، لكنْ؛ سيتم تبسيط النظام المصرفي، إلى حدّ كبير. «أها» قلتُ، »سيصبح اجتماعياً ربّما؟»، «لا، ليس هذا، سيكون هناك تعاملات مختلفة جداً». وانتقل - بسرعة - إلى موضوع آخر.

الخميس، ١٧ مايو ١٩٤٥.

استيقظتُ مبكّراً، وجلبتُ الماء من الحنفية الجديدة. عُلِّقت في نافذة متجر صحيفة جديدة، اسمها «Tägliche Rundschau»(*) (تكلشه روندشاو). صحيفة الجيش الأحمر لـ «سكّان برلين». لم نعد شعباً بعد الآن، نحن سكّان فقط، ولم نطلب شيئاً أكثر من ذلك. لغات أخرى - أيضاً - تعرف هذا التمييز النوعي: population - peuple بالفرنسية، people – population بالإنكليزية. (شعب. سكّان). شعرتُ بمرارة عندما قرأتُ عن احتفالات النصر في موسكو، بلگراد ووارسو. گراف شڤيرين - كوسيغك ظهر؛ ليخاطب الألمان، وشجّعهم على مواجهة الحقائق، كما هي. نحن النساء نفعل ذلك منذ وقت طويل. لكنْ؛ ماذا يحدث لو أن حاملي وسام الصليب الحديدي والجنرالات والگاولايتر(**) فعلوا الشيء نفسه؟ أريد أن أعرف كم ارتفعت أعداد حالات الانتحار في ألمانيا في الوقت الحاضر.

مؤخّراً، أصبح هير پاولي متفائلاً . يتحدّث عن انتعاش اقتصادي سريع، عن عودة ألمانيا إلى التجارة العالمية، عن الديموقراطية الحقيقية، وعن علاج في باد أونهاوزن؛ حيث وعد نفسه بالذهاب إلى هناك في المستقبل القريب. وعندما تسلّحتُ بمعلومات نيكولاي، وقلّلتُ من حدّة طموحه،

---

*) تكلشه روندشاو (Tägliche Rundschau): صحيفة روندشاو اليومية، ظهرت في برلين في ٥ مايو ١٩٤٥ وحتّى نهاية يونيو ١٩٥٥ نُشرت من قِبَل الجيش الأحمر في المناطق التي سيطرت عليها القوّات السوفييتية.

**) الگاولايتر (Gauleiter): اسم يُطلق على زعيم الحزب لفرع إقليمي من الحزب النازي، وهي ثاني أهم رتبة شبه عسكرية في الحزب النازي.

غضب جداً، وطلب منّي - بإلحاح - أن لا أتدخّل - مرّة أخرى - في أمور، لا أفهم منها أي شيء. لاحظتُ أن غضبه ذهب إلى أبعد من هذا السبب السخيف، كان منزعجاً منّي، ببساطة. في السابق، كانت الأرملة له وحده فقط، وتحيطه بالعناية من الصباح حتّى المساء. أنا متطفّلة، بالنسبة له.

بعد تناول الطعام - كان لدينا شوربة بازلاء، وأنا تناولتُ الكثير منها للبدء بخزين آخر. هدأ هير پاولي من جديد. الأرملة دعتْني بنفسها؛ لتسكب لي من الشوربة مرّة أخرى. لاحظتُ أن أسهمي قد ارتفعت من جديد في هذه الأسرة. وهذه الطفرة تعود أسبابها إلى نيكولاي. يجب أن أكون متحمّسة بهذا الشأن، يجب أن أقيس مَن يشاركني في السَّكَن وفقاً للمعايير الأخلاقية؟ لن أفعل ذلك. الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، هذه المقولة صحيحة في كل مكان وزمان. صحيحة حتّى بين الأقارب في الوقت الحاضر. يمكنني أن أتصوّر - في أحسن الأحوال - أن الأمهات لا يأكلنَ؛ ليمنحنَ أطفالهنّ كفايتهم من الطعام، بل ربّما لأنهنّ ينظرنَ إلى أطفالهنّ، على أنهم من لحمهنّ ودمهنّ. لكنْ؛ هناك الكثير من النساء فعلنَ ذلك في السنوات الأخيرة؛ لأنهنّ بعنَ كوبونات الحليب، أو استبدلنها بالسجائر؛ لأن المستذئب يتأمّل - بعمق - مَن يتضوّرون جوعاً. وأنا أنتظر اللحظة التي استُولي فيها على قطعة خبز من بين يدَي مَن هو أضعف منّي. أظن - أحياناً - أن تلك اللحظة سوف لن تأتي أبداً. يمكنني أن أتصوّر بأني سوف أضعف تدريجياً، سوف أنهار، أنكمش، ولن يكون لديّ أي طاقة للسلب والنهب. أفكار غريبة مع معدة متخمة بالطعام، ومع مورد الطعام الروسي الجديد في الخلفية!

على الدرج، سمعتُ - اليوم - خبراً، يقول: إن أحدهم كشف عن زعيم في الحزب السابق يسكن في بنايتنا، Reichsamtsleiter (زعيم تنفيذي في الحزب)، أو شيء من هذا القبيل، معرفتي بالرّتب النازية ليست جيدة. رأيتُه كثيراً في القبو، ولا أزال أذكر الشقراء التي جاءت؛ لتسكن هنا، ولا يعرفها أحد، وكان المستأجر من الباطن غير المعروف معها، يضع يده في يدها

دائماً، كانا مثل حمامتَيْن. كان ذكر الحمام هذا مسؤولاً كبيراً، إذنْ. لا يبدو عليه ذلك، كان يتجوّل، وهو يرتدي ملابس رثّة، كلامه قليل، وتافه أيضاً. هذا ما يُطلَق عليه تمويه جيد.

أريد أن أعرف - فقط - كيف توصّلوا إلى ذلك. حبيبته لم تُبلّغ عنه. هي تبكي الآن، كما قالت لي زوجة الكُتُبي، في شقّتها في الطابق الثالث؛ حيث ما عدا أن اثنَيْن من الإيقان اقتحما الشقّة في الليلة الأولى، لم يحدث أي شيء آخر. لم تعد تجرؤ على الخروج من شقّتها، وخائفة من أن يُلقَى القبض عليها، هي أيضاً.

تحدّثنا عن ذلك بمشاعر مختلطة. الشماتة لا يمكن إنكارها. النازيون فعلوا ذلك بدهاء شديد، كانوا يزعجون الناس كثيراً، وخاصة في السنوات الأخيرة، بمغالطات صغيرة، والآن يجب عليهم - أيضاً - دفع ثمن الهزيمة العامة. وفي الواقع، لا أود أن أكون أحد الذين يسلّمون المشاكسين السابقين للعدوّ. ربّما سيكون الأمر مختلفاً في حال تعرّضوا لي شخصياً، أو قتلوا شخصاً عزيزاً عليّ. غالباً، لا يطلق العنان لمشاعر الانتقام الغاضب، لكن لأحقاد صغيرة من مثل: هذا احتقرني، زوجته حيَّت زوجتي بالتحية النازية «Heil Hitler !»، وهو - أيضاً - يستحقّ أكثر منّي، ويُدخّن سجائر أسمك من سجائري. لهذا سوف ألقّنه درساً لن ينساه، سوف أُخرسه هو وزوجته العجوز... وسمعتُ - أيضاً - على الدرج، أن الأحد القادم هو عيد العنصرة.

الجمعة، ١٨ مايو ١٩٤٥.

استيقظتُ باكراً، جلبتُ الماء، وبحثتُ عن الخشب. تدريجياً، أصبحتْ عيناي تلتقطان الخشب، بشكل أفضل، لا يفلتُ منّي، ولا غُصَينْ بعد الآن. لا أزال أكتشف - دائماً - أماكن جديدة، لم يجدها أحد قبلي في الأقبية، الأنقاض والثكنات العسكرية المهجورة. بعد الظهر، حملت لنا فرولاين بين البطاقات التموينية الجديدة. الأرملة، پاولي وأنا ننتمي - حالياً - للفئة الخامسة والأدنى من «باقي السكّان». سجّلتُ وفقاً لبطاقتي الكمّيّة ليوم واحد: ٣٠٠ غرام خبز، ٤٠٠ غرام بطاطا، ٢٠ غرام لحم، ٧ غرام دهن، ٣٠ غرام مواد غذائية (ويقصدون: برغل، جريش، رقائق الشوفان)، ١٥ غرام سُكّر. بالإضافة إلى ١٠٠ غرام بديل القهوة، ٤٠٠ غرام ملح، ٢٠ غرام شاي حقيقي، و٢٥ غرام حبوب القهوة كل شهر. بالمقارنة مع بعض الأرقام في بطاقة العاملين في الأعمال الشاقة من الفئة I، ومن بينهم - أيضاً - «الفنانون المعروفون» والفنيون، المديرون، الدّعاة، مديرو المدارس، الأطبّاء والممرضات للأمراض المُعدية يحصلون على: ٦٠٠ غرام من الخبز كل يوم، ١٠٠ غرام لحم، ٣٠ غرام دهن و٦٠ غرام مواد غذائية و١٠٠ غرام من حبوب القهوة كل شهر. وبينها هناك بطاقات العمّال (الفئة II) والموظّفين (الفئة III) مع ٥٠٠ و٤٠٠ غرام من الخبز كل يوم على التوالي. ما عدا البطاطا، فهي تُوزَّع بديموقراطية على جميع المِعد بعدالة. الأعمال الذهنية ذات الأهمّيّة الثانوية تنتمي إلى البطاقة من الفئة II، ربّما أستطيع أن أنزلق فيها، بمجرّد أن أفعل أي شيء في حدود معرفتي.

يمكن ملاحظة أن الناس أصبحوا أكثر هدوءاً. كل فرد يجلس هادئاً؛ ليدرس بطاقته التموينية. أصبح لدينا حكومة من جديد، أصبح هناك مَن يهتم بنا من الجهات العليا. استغرب من حصولنا على هذه الكمّيّة، وأشكّ في إمكانية التوزيع المنتظم. الأرملة كانت سعيدة بحبوب القهوة، ووعدتْ أن تشرب أول كوب بصحة ستالين.

بعد الظهر، تمشّيتُ مع الأرملة، الهامبورغية وابنتها ستينشن إلى مبنى البلدية للتسجيل. من أجل ستينشن، طلبتْني الهامبورغية للذهاب معها. اتّضح بأنها كانت مشرفة في اتحاد فتيات الفوهرر، أو شيء من هذا القبيل، ولذلك هي تخشى من الانتقام، الذي من المفترض أني سأمنعه من خلال التحدّث بالروسية. الأرملة جاءت معنا، على أي حال.

كان الطريق إلى هناك مزدحماً، ويكتظّ بالناس أمام مبنى البلدية. كان هناك - أيضاً - الكثير من الرجال، إلى حدّ ما، لكنْ: لايزال هناك حضور طاغٍ للنساء في الشارع. حتّى إني رأيتُ امرأة تضع قبّعة على رأسها، لأول مرّة منذ وقت طويل.

بالنسبة للبنوك المختلفة التي فتّشتُها مع الملازم الثاني، وُضع فيها جميعاً نقاط مراقبة: لكل بنك هناك جنديان مسلّحان، يحرسانه. وبالتأكيد؛ أرعب هذا زبائن البنك.

كان يبدو مبنى البلدية مثل خلية النحل. وقفنا ننتظر في ممرّ مظلم جداً. وهناك مَن يتحدّث حولنا في الظلام. والموضوع كان هذه المرّة: الإجهاض.

نعم، هذا موضوع مهم جداً، بالنسبة لنا، على الأقل، بالنسبة لنا، نحن المغتصبات.

«من كلّ امرأتَيْن، هناك امرأة قامت بذلك» أقسم أحد الأصوات.

صوت آخر قال على نحو مبتذل: « حتّىٰ لو كان هذا صحيحاً. سيكون الأمر سهلاً جداً في الوقت الحاضر».

«سمعتُ أن ستالين أصدر مرسوماً يقضي بأن كل امرأة مع طفل من رجل روسي تحصل على بطاقة فئة I» قال صوت ثالث.

ضحك الجميع: «ولهذا سوف ...؟».

«لا، أُفضّل أن لا أفعل هذا بنفسي» الأرملة ضربتْني في الظلام، في محاولة لجذب انتباهي. وتصرّفتُ، كما لو لم يحدث أي شيء. لا أريد أن أفكّر في ذلك. في الأسبوع القادم في هذا الوقت نفسه سوف أعرف أكثر.

«هل كنتِ في المستشفى؟» مرّ عندها هذا السؤال في صفّ النساء.

«لا، كيف؟».

«خصّصوا غرفة لفحص النساء المغتصبات. يجب أن يذهب الجميع إلى هناك، تحسّباً للأمراض الجنسية». ومرّة أخرى، ضربتْني الأرملة. لا أعرف هذا، أشعر أني سليمة، سوف أنتظر لبغض الوقت.

مع ستينشن، سار كل شيء على ما يرام، بطبيعة الحال، لم يسألها أحد عن ماضيها المعروف. سيكون هذا حماقة أيضاً، لو أن القُصّر سوف يعاقبون، من أجل أشياء، شاركوا فيها بإيماءة استحسان من ذويهم، معلّميهم، وقادتهم. عندما أحرق أسلافنا، مثلما عرفتُ من مصادر مختلفة، الساحرات(*) وأطفالهنّ، كان السبب - دائماً - أن أطفال الساحرات ممسوسين ومسكونين بشياطين بالغين. من الصعب أن تحدّد في أي عمر يتحمّل الفرد مسؤولية أفعاله وفقاً لمعاييرنا الغربية في طريق عودتنا، رافقتنا سيدة من البناية المجاورة لبنايتنا. قالت لنا إن جارتها في الطابق نفسه، بعد أن سَكِرَتْ،

---

*) بعد عام ١٥٩٠م، وُجِّه اتّهام للساحرات من قِبَل الطبقات الأرستقراطية بالجماع الطوعي مع الشيطان خلال طقوس سبت الساحرات السنوي، أُجبر السَّحَرة على إعطاء أسماء المشاركين الآخرين بهذا السبت، وأُديرت محاكمة واسعة، ومحاكمات جماعية، للرجال والأطفال أيضاً، رجال الدِّين والوجهاء - أيضاً - نُفِّذَت بهم عقوبة الحَرْق حتّى الموت. ومن الجدير بالذِّكر أن الساحرات وأتباعهنّ تعرّضوا للاضطهاد في الفترة بين ١٤٥٠ – ١٧٥٠م بشكل كبير في أوروبا، قُتل خلالها عشرات الآلاف من الناس، ٨٠٪ منهم من النساء، غالبيتهنّ من كبار السّنّ، الوحيدات والعاجزات.

ونامت عدّة مرّات مع جندي روسي، أطلق زوجها على ظهرها النار، بينما هي تقف أمام الموقد. القاتل كان ضابط في الفيرماخت (القوّات المسلّحة) أُقيل من عمله، لإصابته بمرض القلب، ثمّ قتل نفسه برصاصة، أطلقها في فمه. طفلهما الوحيد، بنت في السابعة من العمر، ظلّت وحدها. «أعتني بها طوال اليوم، إلى جانب ولدي» قالت السيدة. «أريد أن أبقيها معي أيضاً. زوجي سوف يجد هذا حسناً عند عودته. كان يرغب - دائماً - ببنت» الأم والأب تمّ لفّهما ببطّانيات من الصوف، ودفنوهما بسرعة في الحديقة. والمسدّس دُفن معهما أيضاً. «لكنْ؛ لحسن الحظ، لم يكن هناك روسي في المنزل». قالت السيدة. عندها سوف يكون هناك - بالتأكيد - مشاكل حول جريمة حيازة الأسلحة.

وقفنا لبعض الوقت أمام القبر في الحديقة. قالت الهامبورغية إن كل شيء يجب أن ينتهي كما بدأ. عندما اختفى هتلر من على وجه الأرض في ٢٠ يوليو ١٩٤٤ كان قد قرّر أن يُبقي جزءاً من هالته خلفه. الكثيرون سوف يظلّون مؤمنين بموته. هل مات بالفعل؟ أم أنه هرب في اليو- بوت(*)؟ هناك شائعات مختلفة، لكنْ؛ لا أحد كان يوليها اهتماماً كبيراً.

في المساء، جاءت المرأة ذات الخدّ المُتقرّح؛ لتخبرنا بقصّة حزينة: ذهبت اليوم إلى لوتسو بلاتس؛ لتبحث عن مديرها، محامي عملتْ معه لفترة طويلة. هذا المحامي كان متزوجاً من يهودية، ولا يريد الطلاق، لهذا تحمّل الكثير في الرايخ الثالث، خاصة في السنوات الأخيرة عندما كان - بالكاد - يحصل على قوت يومه. لشهور، كان سعيداً مع زوجته لتحرير برلين، كانا يجلسان ليالي طويلة، إلى جانب الراديو لسماع الإذاعات الأجنبية. وأخيراً عندما اقتحم الروس الأوّل القبو، وكانوا يريدون النساء، كان هناك ارتباك عامّ، وإطلاق نار. رصاصة مرتدّة ضربت الجدار بقوّة، وأصابت المحامي في وركه. قذفت زوجته بنفسها على الروس، وتوسّلت

*) اليو- بوت (U-Boot): هو اختصار لكلمة Unterseeboot غوّاصة في اللغة الألمانية.

بهم بالألمانية أن يساعدوها. لكنهم سحبوها إلى الخارج في الممرّ. ثلاث رجال اغتصبوها، بينما هي تصرخ، بشكل مستمرّ: «أنا يهودية، أنا يهودية حقاً!» في غضون ذلك، كان زوجها في الداخل ينزف حتّى الموت. الرجال دفنوه في الحديقة الأمامية. زوجته اختفت منذ ذلك الوقت، ولا أحد يعرف إلى أين ذهبت. قشعريرة باردة سرتْ في ظهري، بينما أنا أكتب هذه القصّة. مثل هذه القصص لا يمكن أن تتخيّلها، أوتبتكرها، إنها الوحشية الطاغية للحياة، فعل الغضب الأعمى للقدر. المرأة كانت تبكي مع خدّها المتقيّح، دموعها ظلّت معلّقة في القشور الجافة. «لعلّها تنتهي» قالت «هذه الحياة السيئة القصيرة».

السبت، ١٩ مايو ١٩٤٥.

نعيش حياتنا دون صحف، ودون وقت مضبوط، نتوجّه إلى الشمس مثل الزهور. بعد جلب الماء والبحث عن الخشب، ذهبتُ إلى التسوّق. كنتُ أول مَن حصل على الجريش، لحم خنزير، وسُكّر، بالبطاقة الجديدة. الجريش كان مليئاً بقشّ القمح، السّكّر متكتّل؛ لأنه كان رطباً، واللحم كان قاسياً من الملح. لكنه طعام، على أي حال، ونحن سعداء بذلك. «أنا متلهّفة لمعرفة إن كان سيأتي نيكولاي غداً» قالت الأرملة عندما وضعت الأكياس الصغيرة والعلب على طاولة غرفة المعيشة.

بعد الظهر، أقمنا حفلة تنظيف. والمناسبة كانت صرخة الأرملة: «انظري الآن!» في الواقع، نزل من الحنفية بعض قطرات من الماء، قطرات حقيقية سميكة من حنفيتنا الجافة منذ وقت طويل. أدرنا الحنفية قدر استطاعتنا. وتدفّق الماء مندفعاً بقوّة. في البداية، كان لونه بنّيّاً، لكنْ؛ سرعان ما أصبح أبيضَ ونقياً، بعد ذلك. انتهت - الآن - أزمة الماء، والمشي بلا نهاية مع الدلاء. على الأقلّ، إلى الطابق الأول؛ لأننا سمعنا - لاحقاً - أن بَرَكة الماء توقّفت عند الطابق الثالث. لكنْ - الآن - يمكن لسكّان الطوابق الأعلى أن يحصلوا على الماء من فناء بنايتنا، أو من عند معارفهم، بنزول درج طابق واحد. أودّ أن أضيف، أن مجتمع الملجأ، المبنى والوطن قد انهار تدريجياً. على نهج المدن الكبيرة، حبس الجميع أنفسهم بين أربعة جدران، واختاروا مع مَن يتحدّثون، بحذر شديد.

قلبنا الشقّة كلها رأساً على عقب، ونظمنا حملة تنظيف مسعورة. لا

أستطيع أن أحيد نظري عن الماء، أفتح وأغلق الحنفية مرة بعد أخرى. رغم أنه توقّف مساءً، لكنْ؛ عندها كان لدينا حوض الاستحمام الذي ملأناه حتّى آخره بالماء. إنه شعور غريب أن نحصل - الآن - على عجائب التكنولوجيا التي قدّمتها لنا إنجازات العصر الحديث الواحدة تلو الأخرى. أتطلّع - الآن - إلى التيار الكهربائي.

في غضون ذلك، بينما كان كل شيء مبلّل من حولنا، دخلت الشقراء، التي أُلقي القبض على حبيبها من قِبَل الروس أول البارحة. كان عليّ أن أسمع ثلاث قصص عاطفية عن الحب والزواج، «شيء رائع كحبّنا، قال لي، لم يُحبّ من قبل كهذا الحب. يجب أن يكون هذا حباً عظيماً جداً، كما قال لي». ربّما الحديث عن حب عظيم جداً يكون بهذه الطريقة، لكني وجدتُه فظيعاً، على أي حال، كان يبدو مثل مشاهدة فيلم رخيص جداً، أو قراءة رواية عاطفية رخيصة. كانت تمشي خلفي وتنوح ، بينما أنا أفرك الأرضية: «أين يمكن أن يكون الآن؟ ماذا سيفعلون معه؟» أنا - أيضاً - لا أعرف. لم تُسهب في الحديث، وبدأت الحديث فوراً عن نفسها: «هل من الممكن أن يأتوا؛ ليلقوا القبض عليّ؟ ربّما من الأفضل أن أغادر هذا المكان؟ لكنْ؛ إلى أين أذهب؟».

«آخ، هذا غير صحيح. هذا كله لا معنى له، لا يوجد في أي مكان ما يُلزِم أعضاء الحزب الإبلاغ عن أنفسهم». سألتُها: «مَن بَلّغ عنه؟».

رفعتْ كتفَيْها، وقالت: «ربّما زوجته. أُجليَت مع أطفالها إلى شڤيبوس(*) وعلى الرغم من ذلك، عادتْ إلى برلين، إلى منزلهم في تريبتو. هناك سَمعتْ من إحدى جاراتها بأني كنتُ غالباً ما أذهب معه إلى هناك لجلب بعض الحاجيات».

«تعرفين زوجته، إذنْ؟».

---

*) شڤيبوس (Schwiebus بالألمانية): مدينة في غرب بولندا.

«قليلاً، كنتُ سكرتيرته في وقت سابق». إنه «مخيم اللاجئين» العادي، إذنْ، ، كما تسخر النكتة البرلينية من الرجال المتزوّجين الذين يحثون عن اللجوء في سرير آخر، بعد أن أجلوا نساءهم وأطفالهم إلى مكان آمن تنفيذاً لأوامر عليا. رويتُ قصصاً كثيرة - أيضاً - عن الحياة المنحرفة والمغامرات الليلية للنساء الوحيدات اللواتي تم إجلاؤهنّ، الـ «Mu-Ki's» كما يُطلق عليهم، أي: الأمهات مع الأطفال. عن العشّاق الذي يتسلّقون النوافذ. لا يمكنك زرع الإنسان العادي مع أخلاقياته الضعيفة في مكان آخر دون أن يحاول الإفلات من العقاب. البيئة العادية للعائلة، الجيران، الأثاث المصقول والأشكال الحياتية اليومية هي بمثابة مشدّ أخلاقي قوي. التفسير الأكثر احتمالاً - بالنسبة لي - هو أن الزوجة الغاضبة بلّغت عن زوجها؛ ربّما لأنها انطلقت من فكرة أن عشيقة مخيم اللجوء الخاص بزوجها سوف تُعاقَب معه.

«أوه، كم كان لطيفاً!» أكدتْ لي عندما اصطحبتُها - أخيراً - إلى الباب. ومَسَحت دمعتها.

(في يوليو ١٩٤٥ خربشتُ في الهامش: كانت السيدة الأولى التي تقيم علاقة حميمة مع رجل من الـ آمي في المبنى: طبّاخ، بطن كبيرة، رقبة خنزير، يجرّ الصناديق معه).

الأحد، عيد العنصرة، ٢٠ مايو ١٩٤٥.

يوم مشرق. من الصباح الباكر تردّد صوت خُطى، لعدد لا يُحصى من العابرين الذين كانوا في طريقهم إلى الأصدقاء والأقارب في أجزاء أخرى من المدينة. جلسنا حتّى الساعة ١١:٠٠ لتناول الفطور مع الكعك وقهوة من حبوب القهوة وبديل القهوة مخلوطة مع بعضها.

الأرملة روتْ لنا أفضل حكايات العائلة، في أفضل أحوالها. ومن ثمّ؛ كانت هي في أفضل حالاتها. عائلتها مضحكة حقاً؛ لأنها معقّدة تماماً. والد زوجها تزوّج لثلاث مرّات، على فترات متباعدة بين زيجة وأخرى، توفّيت اثنتان من زوجاته. من زيجاته الثلاثة، يمشي حوله عدد لا يُحصى من الأطفال والأحفاد: العمّات كنّ أصغر سنّاً من أبناء الأخ، الأعمام يجلسون مع أبناء إخوانهم في الصف الدراسي نفسه. علاوة على ذلك، روت الأرملة الآن، أن آخر زيجاته الثلاثة بعد وفاة زوجها تزوّجت من رجل يهودي. زوج - زوجة الأب هذا توفي في بداية الرايخ الثالث، لكنه ظلّ مثل وصمة عار في تاريخ العائلة. على أي حال، اليوم تحدّثت الأرملة عنه مع ارتياح معين، وتفاخرت به، كما لو أنه - الآن - قد يكون ذا فائدة، بالنسبة لها.

بعد تناول طعام الغداء، صعدتُ إلى غرفتي في العلّيّة، بين جبال من حجر البناء والجير، سحبتُ دلاء من الأوساخ، ونزلتُ بها الدرج، ونظّفتُ الأرضية. في أُصُص الزهور القديمة، زرعتُ الكزبرة الخضراء، ولسان الثور، أريد القول إني نثرتُ بعض الحبيبات البنّيّة والديدان السوداء في التربة؛

حيث منها يجب أن تنمو حديقة مطبخي. كيف تبدو هذه النباتات، أعرف هذا - فقط - من خلال الصور على الأكياس الصغيرة التي أعطتْها لي الهامبورغية من خزينها القديم. وَضعتُها في الشرفة تحت أشعّة الشمس. ساعة من الرضا العميق. لكنْ؛ بعد ذلك، شعرتُ بشيء من القلق. ثمّة شيء يقلقني، ينخرني. لا أستطيع أن أعيش كنباتية طوال حياتي، يجب أن أتحرّك، أن أفعل أي شيء. لديّ شعور بأني أملك في يدي الأوراق الرابحة للعبة. هل أستطيع اللعب؟ مع مَن؟ أصعب ما في الأمر أننا معزولون الآن.

عندما عدتُ إلى الأرملة - في الطابق الأول - جئتُ في خضمّ فرحة كبيرة. بشكل غير متوقّع، ودون أن تبحث عنه، عثرت الأرملة على دبوس ربطة العنق المفقود لزوجها الراحل. خبّأتْ هذا الشيء الثمين في أصبع قَدَم جورب، رُتق كثيراً. «كيف يمكن أن أنسى شيئاً كهذا!» كانت مندهشة بعد ذلك.

انتهى عيد العنصرة بسلام. في حوالي الساعة الثامنة، انتظرتُ مجيء الملازم الثاني، انتظرتُ نيكولاي، الذي سألني يوم الأربعاء إن كان بإمكانه المجيء اليوم. لم يأتِ، سوف لن يأتي بعد الآن. هير پاولي لم يستطع كتم ملاحظته الساخرة.

الاثنَيْن، ٢١ مايو ١٩٤٥.

لم يكن هناك شيء مختلف في احتفالية يوم الاثنَيْن من عيد العنصرة. لا أحد يعمل بشكل حقيقي. برلين في عطلة. ذهبتُ بحثاً عن الخشب، ورأيتُ - بالصدفة - نشرة، أن على جميع العاملين في «النشاطات الثقافية»، الإبلاغ عن أنفسهم في حوالي الساعة الحادية عشرة في مبنى البلدية: الفنّانين، العاملين في الصحافة، والناشرين. بطاقات الفائدة، أو اختبارات القدرة يجب أن يجلبوها معهم.

ذهبتُ إلى هناك. صفّ انتظار في الطابق الثاني. نعم، هم واضحون. رؤوس مميّزة، وملابس غريبة. فتاة شابة من المسرح تقف إلى جانب رسّامة عجوز، تجرّ معها لوحاتها التي تفوح منها رائحة الألوان الزيتية. هنا امرأة بمظهر رجل، هناك رجل بمظهر امرأة مع رموش طويلة، ربّما هو راقص باليه. كنتُ أقف بينهم، وأستمع إلى الأحاديث من حولي: عن الزميل المشهور الذي شنق نفسه، حتّى قطع هذا الحديث صوت صراخ امرأة: «لا، على العكس. الآن - فقط - اكتشفوا أنه كان نصف يهودي» ربّما كانت على حقّ. "غير الآريين" الذين كانوا يُخفون أنفسهم جيداً بخوف شديد في شجرة الأنساب، عادوا إلى الظهور في كل مكان مع خطّ سميك تحت ألقابهم، والكثير من التلميع.

التسجيل كان مجرّد إجراء شكلي. سيدة كبيرة في السّنّ بعض الشيء مع ملامح يهودية كانت تكتب المعلومات الشخصية في دفتر سميك، وتعطي

كل شخص بطاقة تسجيل، وهذا كل شيء. هل نتوقّع أي شيء من ما حدث هنا، نصيحة للعمل، مساعدة ربّما؟ لا أعتقد ذلك.

لطعام الغداء، فَتحت الأرملةُ واحدةً من أوعيتها لحفظ الدجاج المحفوظة بعناية منذ عام ١٩٤٢. نعم، دجاج، لكنه دجاج بطعم النفتالين. الوعاء كان لسنوات بين السجّاد المرشوش بالكافور في القبو، كان مشبعاً - تماماً - برائحة النفتالين. ضحكنا على هذا، بصوتٍ عالٍ. حتّى الجَشِع هير پاولي لم يأكل منه. الأرملة تناولتْ بعض القطع منه، وتركتْ لي الباقي. وجدتُ طريقة لابتلاع قطع الدجاج، وأنا أغلق أنفي. وبعدها، بقيتُ أتجشّأ النفتالين لساعات.

في حوالي الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر، بدأتُ رحلة إلى شارلوتنبورك سيراً على الأقدام، لزيارة زميلة وصديقة. فراو إلزه إر. كانت مصوّرة أزياء ومحرّرة في مجلة نسائية حتّى زواجها من مهندس متخصّص في صناعة الأسلحة، التي يجب أن يكون الجنرال ڤالتر فون أونرو(*) قد تركها في الوطن.

بعد وداع مطوّل للأرملة، ذهبتُ إلى هناك. شوارع طويلة، مهجورة، ميتة. النفق الذي كانت تتوهّج فيه المصابيح حتّى في النهار، أصبح مظلماً تماماً، وتفوح منه رائحة البراز. كان قلبي يدقّ بقوّة من الخوف عندما ركضتُ خلاله.

باتجاه شونبيرك، التقيتُ شخصَيْن - فقط - طوال ربع ساعة. امرأتان: إحداهما حافية مع دوالٍ سميكة كالحبل في ساقَيْها. كل شيء فيها يبدو مشوّهاً وشبحياً، ربّما هذا بسبب النظّارة الشمسية التي أرتديها تجنّباً للغبار. في مفترق طُرُق، كان هناك روسية، شعرها أسود، وترتدي بدلة عسكرية، تقفز على منصّة خشبية. كانت تلوّح بيدها عندما تمرّ سيارة روسية مع أعلام حمراء وصفراء من أمامها، وتضحك للسائقين. صدرها

---

*) ڤالتر فون أونرو (Walter von Unruh) لُقّب بالبطل المزيف Heldenklau حسب رسم كاريكاتوري ساخر في الصحافة النازية؛ لأنه حلّ تشكيل الخطوط الأمامية. واستخدمت الكاتبة هذا اللقب، للإشارة إليه.

الممتلئ يقفز معها. كان هناك عدد من الألمان يمرّون بمحاذاتها، بخجل، وهم يحملون دلاء الماء.

شوارع فارغة، لا نهاية لها. وفجأة، الكثير من الناس، عشرون، ثلاثون رجلاً، تدفّقوا من سينما، كانت تعرض فيلماً روسياً، «چيپايڤ»(*)، كما هو مبيّن على بعض اللافتات المكتوبة باليد. صوت رجل قال بصوتٍ عالٍ، إلى حدّ ما: «كلام فارغ». الجدران كانت مغطّاة بلافتات ملوّنة، مرسومة بغير إتقان، هذه البرامج المتنوّعة تُقدَّم في مقاهٍ مختلفة من المدينة. الفنانون هم من أوائل الذين عادوا إلى العمل.

الدرّاجات الهوائية كانت تهتزّ في الشارع. كانت تهتزّ، بالفعل؛ لأنها تسير دون إطارات، تسير على قرص معدني، بلا إطارات. طريقة جديدة وفعّالة حتّى لا يستولي عليها الروس دون أن يلاحظ أحد. علاوة على ذلك، عثر الكثير من الألمان على درّاجات هوائية؛ لأن الروس يتركون الدرّاجات الهوائية التي يقودونها على الطريق مع أول ثقب في الإطار، ويتطلّعون إلى درّاجات هوائية أفضل، وجديدة.

واصلتُ السير بالقرب من المساحات الخضراء للمنازل، صمتٌ قاتل في كل مكان. كل شيء يبدو متوقّفاً، ومروّعاً. أحياناً يمشي بسرعة شابّ أو شابّة بالقرب منّي بثياب مرتّبة. يجب أن يكون هناك رقص في مكان ما، الأرملة سمعتْ شيئاً عن هذا عند الخبّاز.

كان حلقي جافّاً من التوتّر عندما وصلتُ إلى زاوية الشارع؛ حيث تسكن صديقتي. عندما لا نرى بعضنا لشهرَيْن - وأي شهرَيْن! - عندها لا تعرف - في الواقع - إن كانت المنازل لا تزال موجودة أم أن الناس لا يزالون يعيشون فيها.

المنزل كان هناك، المنزل موجود، إذنْ، لكنه مُغلَق، ميت. أصرخ،

(*) Chapaev: (باللغة الروسية Чапаев) فيلم سوڤيتي من إنتاج عام ١٩٣٤، من إخراج الأخوة فاسلييڤ ومن إنتاج Lenfilm. قصّة الفيلم تتحدّث عن قائد الجيش الأحمر ڤاسيلي إيڤانوڤيتش شيپايڤ (١٨٨٧- ١٩١٩) الذي أصبح بطلاً في الحرب الأهلية الروسية.

وأُصفّر، وأنا أتجوّل حوله على غير هُدى لحوالي ربع ساعة حتّى التقيتُ إحدى الساكنات، وسمحتْ لي بالدخول. فوق باب المدخل كان لا يزال هناك الاسم المعروف. طرقتُ الباب، وناديتُ عليها. قلتُ مَن أنا. في الداخل، سمعتُ صرخة فرح. ومرّة أخرى، حضنتُ امرأة، كنتُ أصافحها على أكثر تقدير سابقاً. «انظري!» صاح الرجل «ها هي تأتي، كما لو لم يحدث أي شيء!».

بسرعة، تبادلنا أنا وإلزه الجمل الأولى التي لا مفرّ منها: «كم مرّة إلزه؟»، «أربع مرّات، وأنتِ؟»، «ليس لديّ أدنى فكرة، كان عليّ أن أتنقّل بين الرُّتب، من جندي إلى رائد».

جلسنا معاً في المطبخ، شربنا شاياً حقيقياً، أخرجتْه من المخزن، من أجل هذه المناسبة، أكلنا بعض الخبز مع المربىّ، وتبادلنا الأخبار... نعم، لقد أخذ كل منا نصيبه. إلزه كانت الضحية لمرّة واحدة في القبو، المرَّتان التاليتان في الطابق الأول في شقّة فارغة؛ حيث دفعوها من ظهرها إلى الداخل، بأعقاب السلاح. الشاب، قالت إلزه، كان يريد النوم إلى جانبها مع السلاح. عندما أصبحت خائفة، وضّحت له بإيماءات أن عليه وضع سلاحه جانباً، وهو ما فعله الشاب. وبينما نحن نتحدّث في هذا الموضوع، دخل زوج إلزه؛ ليقول أمامي إنه سوف يذهب إلى الجيران؛ ليجلب بعض الأخبار من المستقبل البلوري. إلزه ابتسمت ابتسامة عريضة خلف ظهره: «حسناً، لا يستطيع أن يسمع ذلك». يعذّب نفسه بلوم نفسه؛ لأنه ظل بلا حول ولا قوّة في القبو، بينما زوجته في قبضة الإيقان. في المرّة الأولى، في القبو، كان على مقربة، وسمع ما حدث. يجب أن يكون هذا شعوراً غريباً بالنسبة له.

من ناحية أخرى، استغللنا غياب هير إر. في محادثة نسائية قصيرة. إلزه امرأة مدلّلة، كثيرة الترحال والسفر، مع تمط حياة عصري. ما هو رأيها، بالفرسان الروس؟!

«بائسون»، قالت ذلك، ولوت قسمات وجهها، بشكل مضحك: «ليس

لديهم أيّ خيال. بسطاء وفظّون، كلهم هكذا، بقدر ما سمعتُ هنا في البناية. لكنْ؛ ربمّا أنتِ كان لديك تجربة أفضل مع كبار الضباط؟».

«لا، لا علاقة لهذا».

«من الممكن أنهم في وطنهم لديهم أحدث مخطّط اقتصادي في مجال الاشتراكية» قالت إلزه، «لكنْ؛ في مجال الإباحية، ظلّوا واقفين عند آدم وحواء، على أي حال. ولهذا أنا فخورة جداً بزوجي». غمزتْ، وقالت: «مع شحّة الطعام، من الطبيعي أن مثل هذا الزوج المسكين ليس له قيمة كبيرة. زوجي لاقى صعوبات من ذلك، وكان يتصوّر أن الجيش الأحمر مع جرأته لديه فرصة حقيقية مع نسائنا». ضحكنا بلذّة، واتفقنا على أن تقييمنا لأعدائنا في ٩٩ بالمائة من الحالات في الظروف العادية هو أنهم لن يكون لهم أدنى فرصة معنا. في أحسن الأحوال، سوف نختبر الحالة المئة، ونقيّمها. وهكذا واصلنا الحديث، ثأرنا لأنفسنا بالسخرية منهم، من هؤلاء الذين أذلّونا.

بالتأكيد؛ حمل المهندس بعض الأخبار معه من الجيران. برلين - وفقاً لهذه الأخبار - أصبحت مدينة عالمية لكلّ المنتصرين، ولايبزيغ سوف تكون عاصمة القسم الروسي. ألقوا القبض على هيملر. وعن أدولف، ليس هناك أي شيء معروف على وجه اليقين.

بينما كانت إلزه مسالمة، وأيّدت الظروف بتفوّق أنثوي، كان زوجها غير متوازن، ومرتبك. مسيرته المهنية اقتربت من نهايتها. مصنع الأسلحة الذي كان يعمل فيه، أو ما تبقّى منه بعد قصفه، يتم تفكيكه في الوقت الحاضر. الروس مستمرّون في الاستيلاء على المكائن الألمانية، وأخذها بعيداً. في طريقي، واجهتُ شاحنات مختلفة مع صناديق خشبية ضخمة، عرفتُ - الآن - ماذا كان فيها. هير إر. يخشى من أنه سوف يضطر إلى النزول في السّلّم الاجتماعي، ويبدأ كعامل من جديد. يتجسّس على اتصال وأخبار، خائف على حياته، ومشغول - بشكل محموم - في البحث عن مجال، في

مكان ما؛ ليكسب لقمة عيشه. قدّم طلباً في المستشفى للعمل كمصلح للتدفئة، لا يزال مذهولاً من الهزيمة. وهذا دليل آخر على حقيقة أننا - نحن النساء - نتحمّل مثل هذه الكوارث أفضل، ولا ندوخ بهذه السرعة منها.

إلزه وزوجها يتعلّمان - الآن - اللغة الروسية. زوجها يضع في حساباته، لكنْ؛ على مضض، هجرة محتملة إلى روسيا؛ لأن «هنا يأخذون وسائل الإنتاج بعيداً» هو لايصدّق أن الألمان سوف يحصلون على رخصة لإنتاج كبير ومهمّ في المستقبل المنظور. أيضاً هو سمع من المستقبل البلوري عند الجيران أن ألمانيا سوف تتغيّر؛ لتصبح حقل بطاطا كبير. ليس لنا سوى الانتظار.

وداع طويل، ومتكرّر. لا أحد يعرف متى وأين سوف نلتقي معاً مجدّداً. في طريق عودتي، ذهبتُ لزيارة بنت أخ الأرملة المتزوّجة لبعض الوقت، الأم المستقبلية الشابة التي تسكن مع صديقتها فريدا. كانت مستلقية على ظهرها، تبدو لطيفة، وتشع من الداخل. لكن بطنها المقوّسة على جسدها النحيف جداً كانت تبرز - تماماً - إلى الأمام. كما لو أن بإمكان المرء أن يرى كيف يسحب الجنين النامي العصائر والطاقة كلها من جسم أمّه. وليس هناك أيّ أخبار عن الأب المستقبلي. يبدو أنه قد نُسي - تماماً - في خضمّ الهموم اليومية، من أجل الحصول على الطعام والخشب؛ لأن في الشقّة مدفأة كهربائية واحدة فقط، والآن لا قيمة لها، قامت الفتاتان ببناء مدفأة من بلاط الرصيف في الشرفة، وأحرقنَ فيها - بصعوبة - فروعاً من شجرة التنوب. من أجل أن تنضج القليل من العصيدة، يتطلّب هذا قروناً من الانتظار. وكان على فريدا البقاء جالسة أمام النار؛ لتراقبها، وترمي فيها بعض فروع الأشجار. رائحة الراتنج التي تفوح من فروع الأشجار تُذكّر بأجواء الكريسمس الحقيقية.

في طريق العودة إلى المنزل، مشيتُ، ومشيتُ. وَضّح ملصق باللغتَيْن الروسية والألمانية أن هناك «سوقاً حُرّة» سوف تُفتَتَح قريباً. لمَن؟ مِن أجل مَن؟ وصحيفة جدارية، ذكرت أسماء أعضاء حكومة المدينة الجديدة. كلهم رجال غير معروفين، ربّما هم المهاجرون العائدون من موسكو. صادفتُ في

طريقي مجموعة متنوّعة من الإيطاليين، يغنّون، ويحملون حزماً وحقائب، من الواضح أنهم يستعدّون لرحلة العودة إلى وطنهم. رأيتُ - أيضاً - درّاجات هوائية، بلا إطارات. في شونَبيرك، أصبحت وحيدة أكثر. النفق الشبحي تحت السّكّة الحديدية كان موحشاً ومهجوراً. شعرتُ بالسعادة عندما أصبح خلفي، ورأيتُ مباني حيّنا. عدتُ للمنزل، كما لو أني عدتُ من سفرة طويلة، ونشرتُ أخباري الجديدة.

قدماي متعبتان، كان يوماً عصيباً. الآن، حَملَ لنا المساء الراحة والمطر.

الثلاثاء، ٢٢ مايو ١٩٤٥.

في الصباح الباكر، حوالي الساعة السادسة، كانت الأرملة مثل شبح، تطوف أرجاء المنزل. استلمتْ من رئيس البناية - وهذا ابتكار جديد! زوج الهامبورغية يلعب هذا الدور الآن، بالنسبة لنا - أمراً خطياً، طُبع بالاستينسل، بأن عليها التواجد أمام مبنى البلدية في الساعة الثامنة، للعمل، ولا شيء آخر. تمنّت - الآن - أن تكون مهمتها غرس الهليون. وقبل أن تغادر، أعلنت عن وجبة ثمينة من الهليون.

اليوم لَعبتُ دور ربّة المنزل. طبختُ لي ولهير پاولي شوربة البازلاء. في حوالي الساعة الثانية، نودي بصوتٍ عالٍ في الشارع أمام بنايتنا. كان هذا تنبيهاً من قِبَل المنادي الذي عُيّن رسمياً لهذه المهمة، كما هو الأمر منذ ألف عام. كان يقف تحت شجرة القيقب، ويقرأ بصوت رتيب من ورقة: أن الرجال والنساء كلهم بين سنّ الخامسة عشرة إلى سنّ الخامسة والخمسين، القادرين على العمل، يجب عليهم الإبلاغ عن أنفسهم، في مبنى البلدية.

نقاش طويل على الدرج: هل نذهب؟ أم لا؟ زوجة الكُتُبي كانت مع الذهاب؛ لأنها تخاف من أننا إذا لم نفعل، فسوف يأخذوننا قسراً. أنا أتفق معها. سرنا معاً إلى هناك. سألتُها إن كانت تعرف كيف هو الحال مع محل بيع الكُتُب. «احترق في نهاية أبريل» كان الجواب قصيراً. ورغم ذلك، هي تتطلّع - بتفاؤل - إلى المستقبل. في القبو، لديها صندوق عملاق مليءٌ بالكُتُب - خُزن سرّاً تحت حكم الرايخ الثالث - خاصة كُتُب الأدب الممنوع.

ما كان ممنوعاً عندنا منذ ١٩٣٢: كُتُب اليهود والمهاجرين، وبعد ذلك، كُتُب أعدائنا في الحروب. «الجميع متعطّشون لقراءتها» قالت. «سوف نبني زاوية خاصة بنا، وهناك نُنشئ مكتبة عامة مع رسوم دخول عالية، بالطبع، وإلا نفقد كُتُبنا في الحال». قدّمتُ نفسي كأول زبونة، يجب أن ألحق ما فاتني.

أمام درج مبنى البلدية، احتشد عدد كبير من النساء. كان هناك رجل واحد فقط. رجل شاب، يُعدّ قائمة بأسمائنا مع الكثير من الصراخ والإيماءات. الشارع أمام مبنى البلدية يشبه موقع بناء مزدحم. هناك خندق في منتصف الطريق حفروه في ذلك الوقت لأهداف الحروب الغامضة من قِبَل عدد من الألمان والكثير من الفتيات الروسيات اللواتي يرتدينَ السترات المبطّنة الواقية من الرصاص، والآن نحن نغلقه مرّة أخرى، حقيقة من الواضح أن منطقيتها كافية جداً. كانوا يملؤون القناة بالرمل، الأحجار وركام صُبغ بالأسود. النساء كنّ يدفعنَ العربات وأكوام الركام على حافة الخندق، ويُسقطنَ الحمولة فيه. من تلك الشوارع الجانبية تأتي سلسلة حية من الأيدي التي تنقل دلواً بعد آخر إلى العربات. غداً في حوالي الساعة الثامنة، يجب أن أشارك في هذا العمل. وليس لديّ أي مانع.

بحثتُ عن الأرملة بين النساء دون جدوى. لمرّة واحدة، جاءت سيارة مع مكبّر للصوت إلى المكان، يصرخ بالأخبار، بلغة ألمانية، يشوبها شيء من الروسية.

أكلنا خبزاً مع لحم معلّب مساءً. ولم تعد الأرملة إلى الآن. كانت الساعة التاسعة عندما ظهرت قبّعتها الحمراء في الأسفل أخيراً. كانت متعبة جداً، مرهقة، محطّمة، تلفظ كلمات غاضبة قصيرة، ولا تريد أن تقول أي شيء لنا. وبعد أن اغتسلتْ تماماً، استطعنا أن نحصل منها على بعض الجمل: لم يكن للأمر أي علاقة بغرز الهليون. شاحنة روسية حملت النساء إلى مصنع آلات ومعدّات؛ حيث الأرملة مع مئتَي امرأة أخرى، يُعبّئنَ أشياء في صناديق طوال اليوم تحت إشراف روسي، ثمّ يفتحنها، ويُخرجنَ محتوياتها، ثمّ يُعبّئنها، وإلا

ألقوا القبض على مَن تخالف الأوامر. طوال اليوم كانوا يحثّونهنَّ ويدفعونهنَّ للعمل. وبعد الظهر ، قدموا لهنّ قشور خبز جافّة.

«إذا كان يجب أن نُسمّي هذه مؤسّسة» قالت بسخط. «هذه الفوضى، هذا القَرَف!» وقالت: «قلنا - على الفور - إن الأجزاء الحديدية ثقيلة جداً، بالنسبة للصناديق، ممّا يؤدي إلى كسر قعر الصناديق. لكنهم لم يفعلوا شيئاً سوى الصراخ في وجوهنا: اخرسوا! و: "رابوتا(*)، رابوتا! وعندها، مع رفع أول صندوق سقط قعره، بالفعل. بدأ صراخهم يعلو، وألقوا اللوم علينا، بطبيعة الحال». الأرملة هزّت رأسها: «لا أستطيع أن أفهم، كيف انتصر هؤلاء الناس في الحرب. عقلهم أصغر من عقل حتّى طفل ألماني» وإلخ، وإلخ. ذكرتْ - أيضاً - الكثير من الإجراءات الخاطئة وتفاهات الروس، ولم تستطع أن تهدأ. كان عليها العودة إلى المنزل سيراً على الأقدام لحوالي ساعة ونصف، لم يكن هناك شاحنة، تعيد النساء إلى منازلهنّ بعد انتهاء العمل. والنتيجة فقاعة، على أخمص قدمها: كانت تئنّ منها، تشكو مصيرنا جميعاً، وهزيمة الألمان. لا شيء قادر على تهدئتها، ولا حتّى المطرقة والكمّاشة، الخرقة وعلب القصدير. أشياء أخفتْها الأرملة تحت ثوبها، وخرجت بها خلسة من المصنع.

---

*) "работа: رابوتا كما تُلفظ": تعني العمل أو الواجب بالروسية.

الأربعاء، ٢٣ مايو ١٩٤٥.

سرتُ في صباح ممطر كئيب إلى مبنى البلدية، وأنا مجهّزة بدلو ولقّاطة الكنّاسة. في طريقي، بدأ المطر يهطل بقوّة. يمكنني أن أشعر كيف امتصّ ثوبي الواسع الماءَ.

استمرّ المطر، تحوّل إلى رذاذ الآن، ثمّ تزايد مرّة أخرى. ومع ذلك، غَرَفْنَا الوحلَ، وملأنا الدلو بعد الآخر؛ لكي لا تتوقّف سلسلة الأيادي. كنا حوالي مئة امرأة من مختلف الطبقات والمكانات الاجتماعية. بعضهنّ كنّ كسولات وضعيفات، ويعملنَ - فقط - إذا لاحظ أحد المشرفين الألمانيين ذلك. (الرجال يحصلون - دائماً - على وظائف المشرفين). النساء الأخريات يعملنَ بجدّ وحماس ربّات البيوت، نعم، بضراوة. دفعنا نحن الأربعة العربات بعد ملئها - تماماً - نحو حافة النفق. تعلّمتُ كيف أدير قرص تغيير مسار العربات. في النهاية، أجبرتنا روعة قوس القزح على استراحة قصيرة.

مثل وحوش تجمعنا تحت شرفة. ملابسنا المبلّلة التصقت بأجسادنا. النساء كنّ يرتجفنَ، ويرتعشنَ من البرد. اغتنمنا الفرصة لتناول الطعام، لدرجة أن ما معنا من طعام، خبزنا المبلّل، ولا شيء معه، لم يعد - الآن - «خبزاً جافّاً». إحدى السيدات تذمّرت: «في زمن أدولف، لم أتناول شيئاً كهذا» وجاء الاعتراض من كل جانب: «سجّلي هذا - أيضاً - على حساب أدولف». ردّت السيدة بذهول: «لا أقصد هذا».

بقينا على هذا الحال لأكثر من ساعة. والمطر يتساقط من حولنا. عندما

انحسر المطر بعض الشيء، أخذنا المشرف، وهو شاب مع لكنة ڤيينية واسم تشيكي، وأعادنا إلى العربات. العربة التي أدفعها، تحمل اسم: «العربة الضاحكة». والأخرى اسمها: «العربة الباكية»، لكن أحدهم مسح «الباكية»، واستبدلها «ابتسام متكلّف».

في حوالي الساعة الثالثة، شطب الڤييني أسماءنا في القائمة، وأصبح بإمكاننا الذهاب إلى المنزل الآن. بثقة عالية، لوّحتُ بدلوي عند ذهابي وفقاً للمقولة المأثورة: «ما لا يقتلكَ، يُقوِّيكَ».

في المنزل، وجدتُ الأرملة في حالة انفعال شديد. قالت إنها تشعر بـ «حكّة وحَرْقَة» في الأيام الأخيرة، ولهذا استشارتْ موسوعتها عند كلمة «الزهري». رغم أنها كزوجة صيدلي، لديها معرفة واسعة عن المتاعب البشرية، لكنْ؛ في هذا المجال الخاص، كانت تفتقر إلى الخبرة اللازمة. «لديّ أورام صغيرة» تشعر بأنها قاسية ومشدودة. في الموسوعة، وُصفت هذه الأورام الصغيرة على أنها صفة مميّزة لبداية مرض الزهري. بعد الالتهاب بثلاثة إلى أربعة أسابيع، يجب أن يظهر المرض. الأرملة حسبتْ أن الانتهاك الذي تعرّضت له عند الدرج، من قِبَل الصغير بلا لحية، كان منذ أربعة أسابيع، بالضبط.

«ماذا، ڤانيا، ذلك الطفل؟» لا أستطيع أن أصدّق ذلك. «هو مَن سبّب لكِ هذا...؟».

«ولمَ لا؟ تماماً مثل قرد بليد. علاوة على ذلك، أنا لا أعرف - على وجه التحديد - إن كان ڤانيا أم شخصاً آخر، كان على الدرج ذلك المساء، كيف يمكن للمرء أن يعرف؟ وبعد ذلك البولندي أيضاً...!»

الأرملة بكتْ بيأس. ماذا يجب أن أفعل؟ أفحصها؟ لن ينفع هذا بشيء، ليس لديّ أي معرفة بهذه الأشياء. اقتراحي للتشاور مع هير پاولي قُوبل بإيماءات عنيفة رافضة. إذنْ؛ لم يبقَ سوى الانتظار حتّى اليوم التالي، وزيارة

القسم الذي أُنشئ خصّيصاً للنساء المغتصبات في المستشفى، في أقرب وقت ممكن. تذكّرتُ - الآن - كيف كنتُ أحكّ أذنيَ عندما عالجنا موضوع الأذن البشرية، في ذلك الوقت في المدرسة، على أساس نماذج تشريحية مكبّرة. ربّما ظهرتْ أعراض المرض على الأرملة من اللحظة التي قرأتْ فيها وصف المرض في الموسوعة. علينا الانتظار حتّى الغد. ربّما سيكون من الأفضل لي - أيضاً - أن أذهب إلى هناك، وأفحص نفسي. تأخّر نزول الحيض يوماً واحداً عن موعده.

الخميس، ٢٤ مايو ١٩٤٥.

رنّ جرس المنبّه، نهضتُ لأعمال الجرف. ارتديتُ - اليوم - بنطلوناً رياضياً، وربطتُ مئزراً به من الأمام. السماء كانت غائمة. وعندما بدأنا العمل، كانت تمطر رذاذاً. جَرَفْنَا، بحماس. عمل معنا - اليوم - رجلان، أريد القول إذا نظر لهما المشرف، ماعدا ذلك، لا يفعلان أي شيء. فجأة، في حوالي الساعة العاشرة، سمعنا صوت صراخ، صوت روسي يصيح: «يا امرأة، تعالي، يا امرأة، تعالي!» صرخة مشهورة جداً. اختفت النساء كلهنّ في لحظة، كما لو تمّ كنسهنّ بمكنسة كبيرة. زحفنَ بعيداً خلف الأبواب، العربات، الأنقاض، صَغّرنَ أنفسهنّ قدر المستطاع. لكنْ؛ بعد ذلك، ظهر معظمهنّ، ومن بينهنّ أنا، من جديد. «لا يجرؤون على ذلك! هنا، في وسط الشارع! في الحقيقة هناك واحد فقط».

هذا الرجل مضى قدماً للعمل. كان يظهر أن لديه أوامر؛ لأنه جمع باقي النساء، وشكّلهنّ في مجموعة. كان يركض حولنا مثل كلب، يركض حول قطيع من الأغنام. ملازم يحمل السلاح. سرنا خلال الحدائق العامة، ووصلنا - أخيراً - إلى منطقة، فيها مصنع آلات ومعدّات.

معظم القاعات تحتوي على المئات من مناضد العمل المتروكة. والأمر العسكري الألماني «هيلا - هوب» تردّد صداه بين الجدران. وبعد ذلك - مباشرة - حمّل رجال ألمانيون - بأوامر روسية - أجزاء من حاصدات زراعية أطول من طول رجل عادي، بمساعدة الرافعات. ترى رجالاً في كل مكان

منشغلين بفكّ الأجزاء، تدويرها، دهنها وسحبها إلى العربات. في الخارج، تسير شاحنات البضائع، بعضها تمّ تحميلها من قبل مع قطع غيار الآلات.

ماذا تفعل النساء هنا؟ وقفنا في قاعة العمل، لا نعرف إلى أين يجب أن نذهب. الهروب كان مستحيلاً، رأينا - في الحال - أن الأبواب كلها أصبحت تحت حراسة الجنود. أخيراً، وُجِّه إلينا أمرٌ بجمع الأشياء النحاسية كلها، النحاس الأصفر، أو أي «معدن لامع» في قاعة تجمُّعنا الكبيرة، ووضعها في صناديق، وحملها - أخيراً - إلى إحدى العربات.

بمساعدة السيدة التي أصبحت إلى جانبي عن طريق الصدفة، التي لا تنظر لي، ولم تستجب لمحاولاتي في الحديث معها، سحبتُ صندوقاً خلفي، والتقطتُ - من هنا وهناك - كل ما يلمَع، ألُفّ الأسلاك النحاسية، قضبان النحاس الأصفر، مثل طائر العقعق. فتّشتُ في الخزائن الحديدية لملابس العمّال، ووجدتُ أنابيب، مناديل مُطبقة، ورق الشطائر مطوياً، بدقّة، كما لو أن العمّال قد غادروا المكان البارحة. غنيمتنا، غنيمة طائر العقعق، رميناها - ببساطة - في قاع العربة؛ حيث تفرز سيدتان القطع المستديرة والأجزاء المعدنية، على الطريقة القديمة لربّات البيوت، بدقة وفقاً لحجم القطعة.

بعد الظهر، أُمرنا بالذهاب إلى قاعة أخرى، مستودع. على الرفوف العالية أكوام شاهقة من معدن ذي طبيعة أكثر تنوّعاً: أسلاك وبراغي ومسامير، الأخيرة كانت بحجم قبضة اليد. وقفنا - بلا نهاية - لتمريرها على طول سلسلة من الأيادي. يُصفّ كل شيء في آخر السلسلة في الصناديق حسب الأوامر. فكّرتُ في التجارب التي مرّت بها الأرملة، وتحدّثتْ عنها، وكنتُ أنتظر بقلق لحظة سقوط قاع الصندوق. لكنْ؛ لم يصل الأمر إلى هذا الحدّ. وبالفعل، عندما رُفع الصندوق، اتّضح أنه ثقيل جداً، حتّى إن مراقب العمّال الذي لا يرحم - وهو ضابط صفّ أحول، صدره مثل خزانة ملابس صغيرة - لم يتمكّن من تحريك الصندوق. العربات اليدوية أو ما شابه ذلك، لا وجود لها هنا.

لذا؛ بعد عدد من الشتائم الفظّة، أعطى الأحول أوامره بإخراج محتويات الصناديق كلها عن طريق السلسلة البشرية، ونقلها إلى الخارج، ثم إلى عربات الشحن. وهكذا تمّ الحدّ الأدنى من العمل، بأقصى جهد.

مجاميع جديدة انضمّت لنا، معظمهم من النساء، نساء شابات وكبيرات في السنّ أيضاً. ثمّة شائعة انتشرت بيننا، مفادها أننا سوف نحصل على بعض الطعام. وبالفعل، أُرسلنا في حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر إلى مقصف المصنع. وقُدِّم لنا حساء خبز ساخن، يتصاعد منه البخار. كان هناك عدد قليل جداً من الصحون والملاعق؛ بحيث إن هناك - دائماً - مَن يقف بانتظار أن ينتهي الآخر. لم يكن هناك أيّ امرأة ذهبت إلى الحنفية في الخارج. معظمهنّ كنّ يمسحنَ الملعقة - بسرعة - بالتنّورة، أو بالمئزر، ويأخذنَ الصحون، كما هي ممّنْ سبقهنّ في تناول الطعام مباشرة.

عدنا، رابوتا! كان بانتظارنا مهمّة شاقة في المخزن. هذه المرّة كان يجب علينا أن ننقل قطع تبديلية من الزنك، لساعات وساعات طويلة. أخيراً، لابد أن الساعة كانت حوالي الثامنة عندما ظهر مراقب العمّال الأحول الذي لا يرحم، وصاح: «يا امرأة، إلى المنزل» مع إيماءة ترويع بذراعَيْه، لإبعادنا، كما لو كان يتعامل مع دجاج. براحة صرخ البعض يو- هووو. وقبل أن نذهب، أعطانا رجال في المقصف قطعة أخرى من الخبز، تزن حوالي ١٠٠ غرام. وبعد ذلك، تدحرج برميل إلى الداخل. من ثقب البرميل، تدفّق شراب أبيض، شبيه بدبس السّكّر. نظّمنا أنفسنا في صفّ. «مذاقه رائع» أكّد المتذوق الأول. لم أعرف ما عليّ القيام به معهم حتّى أعطاني أحدهم ورقة خضراء، كانوا قد عثروا عليها في المستودع. اللون الأخضر أصبح باهتاً، لكنه غير سامّ، كما أكّدت النساء جميعهنّ.

أخيراً وصلتُ بفخر في حوالي الساعة العاشرة مع غنيمتي إلى الأرملة. هزّتْ رأسها عندما وضعتُ بعضاً من الشيء اللزج المخضر من الورقة الخضراء

في فمي. أكلتُهُ بالملعقة، ولعقتُها، وامتلأ فمي بالورقة. لا يهمّ، طعمه حلو! بعد بعض الوقت، تذكّرتُ - مرّة أخرى - الموسوعة و«أورام» الأرملة.

«أوه، لا شيء» ردّت على سؤالي. «قال الدكتور، إن كل شيء معي كان على ما يرام».

سألتُ - أيضاً - لأعرف كيف دخلتْ إلى غرفة الفحص.

«كان هناك معي سيدتان» قالت الأرملة. «الطبيب كان لطيفاً جداً. جسّ بيدَيْه قليلاً، ثمّ قال: «أخضر، الطريق آمن». ارتجفت الأرملة: «لا، لقد أصبح من الماضي» بالإضافة إلى ذلك، وُجد هناك تعبير رسمي لحركة الاغتصاب برمّتها: «جماع قسري» هكذا أطلقت عليه السلطات. كلمة - ربّما - سيأخذها المرء بنظر الاعتبار في الإصدار الجديد لقاموس الجنود.

الجمعة، ٢٥ مايو ١٩٤٥.

نهضتُ باكراً، وسرتُ إلى عملي في صباح مشرق. جاءت النساء من كل حدب وصوب. معظم النساء اليوم جلبنَ معهنّ قدوراً. أما أنا؛ فعلّقتُ علبة الجنود على حزامي. كان يجب علينا أن ننتظم في ثلاثة صفوف، ثمّ أربعة صفوف. العَدّ، الاختيار والتسجيل، استغرقوا دهراً. الشاب القُبيني الذي تبعنا من العمل إلى هنا - لابد أنه موسيقي - احتاج إلى ساعة تقريباً؛ ليحصل علينا جميعاً في قائمته. هناك العديد من النساء الجدد انضممنَ لنا اليوم. «يجب أن نعمل» سمعتُ مَن قال هذا «وهنا نتناول الطعام، على الأقلّ».

وبالتأكيد، بدأ يوم عملنا بعصيدة الجريش السميكة. وسرنا - ببطء - بعد ذلك على السّكّة الحديدية نحو قاعات المصنع. عند السّكّة الحديدية، كان السجناء الألمان يعملون بكدّ، رؤوس يعلوها الشيب، ويرتدون ملابس رثّة، من الواضح أنهم من الفولكسشتورم. كانوا يحمّلون العربات بالعجلات المسنّنة الثقيلة بمشقّة، : ينظرون لنا بإلحاح، ويحومون حولنا. لم أفهم ماذا يريدون من ذلك. النساء الأخريات وضعنَ قطعاً من الخبز خفية في أيدي الرجال. هذا ممنوع. لكن الحارس الروسي كان يحدّق في اتجاه آخر. الرجال كانوا غير حليقين، وهزيلين. ينظرون مثل كلاب خائفة. كان لديّ انطباع بأنهم ليسوا ألمانيين على الإطلاق. يشبهون السجناء الروس الذين كانوا يزيلون الأنقاض - هنا - خلال الحرب. وهذا - أيضاً - تحوّل كبير، مقنع من الناحية المنطقية.

في المصنع، مرّة أخرى. اثنان أو ثلاثة منا يسحبون قضباناً حديدية، يتعذّر

حملها، وبعد ذلك، نوصل الصفائح والقضبان الحديدية في سلسلة بشرية إلى الخارج، إلى العربات. روسي ظهر في القاعة، نظر بعين فاحصة لصفّ النساء، وغمز إلى ثلاثة منهنّ؛ ليذهبنَ معه. الثالثة كانت أنا. أسرعنا خلفه. إلى أين؟ خمّنتْ إحدانا: «لتقشير البطاطا، ربمّا؟» لهذا الأمر، كان لديهم أكثر من دزّينة من النساء، جلبوهنّ إلى السّكّة الحديدية؛ حيث توجد المنازل الروسية المتنقّلة مع ستائرها اللطيفة.

لا، أخذنا إلى وجهة أخرى. سرنا - عبر ممرّ مظلم - إلى ثكنة عسكرية. كلّما تقدّمنا في السير بالممرّ، أصبحت رائحة البراز أقوى أكثر فأكثر. إحدى السيدتَيْن الأخريتَيْن اختفت من بيننا، عادت مسرعة ببساطة، وعبرت القضبان الحديدية. الروسي تركنا، وتقدّم أمامنا. ثمّ أخذنا إلى غرفة ذات أرضية من الحجر. كان هناك طشت، حوض استحمام، ألواح غسيل ودلاء. أشار إلى هذه الأشياء، وأومأ لنا بغسل الملابس.

حسناً، إذنْ! لكنْ؛ ليس - هنا - في هذه الزاوية! بمساعدة زميلتي، وهي سيدة صغيرة ذات عينَيْن حيويتين، سحبنا حوض الغسيل الأكبر حجماً إلى الخارج، في الهواء الطلق عبر باب الثكنة؛ حيث كان هناك ما يشبه السقيفة. هناك شعرنا بأننا في أمان، والرائحة ليست نتنة، كما في الداخل. الروسي وجد هذا أفضل. وجلب لنا قطعتَيْن صلبتَيْن من الصابون، وعدداً من المآزر، القمصان والمناشف، كانت جميعها بيضاء، وأمَرَنا مع بعض الإيماءات بتنظيف هذه الأشياء. كان يتحدّث معنا بغضب، لكنْ؛ ليس بفظاظة، ولم يلمسنا، حتّى بعينَيْه.

المرأة التي تغسل الملابس معي قالت إنها جاءت من دانزيغ، وتبادلت مع الروسي بعض الكلمات البولندية. هذا أفضل! لستُ بحاجة إلى الحديث، وأستطيع إخفاء معرفتي باللغة الروسية. لا أحبّ الحديث معهم، كامرأة تحترف غسل الملابس.

كان يأتي بين الحين والآخر مجموعات من الجنود الروس، يتسكّعون حول

حوض الغسيل، ويتحدّثون عنا. اثنان منهما كانا يتشاجران حول أعمارنا. بعد حديث وتردّد طويلَيْن توصّلا إلى أن عمري هو أربعة وعشرون عاماً. لا بأس، أصغر من سنّي بكثير!

الساعات تمرّ ببطء. نقعْنَا الملابس بالصابون، فركناها على ألواح الغسيل، ثمّ عصرنا المياه منها. الماء الساخن من المرجل والبارد من صنبور إطفاء الحريق في الشارع. تضرّرت أصابعي من فرك هذه الملابس القذرة اللعينة. المناشف كانت قاسية جداً من الدهون. كانت - في الأساس - مناشف ألمانية مُرقّمة، إنها من غنائم الحرب. فَرّشتُ الملابس بفرشاة الشعر. عملت بكل جد. وطوال هذا الوقت، كان هناك جنود روس يمشون حولنا، يقرصوننا في الوقت الذي كان بإمكانهم أن يُمسكوا بنا. كنتُ أركل مثل فَرَس، أبلّلهم برمي الماء عليهم بفرشاتي، لكنهم لم يقولوا أي كلمة. حتّى يأتي الآمر، ويطرد هؤلاء العشّاق بعيداً. عندها كان يحمل معه كومة من الألبسة الداخلية، لا يوجد فيها أزرار، كل شيء كان مربوطاً بالأشرطة.

في غضون ذلك، قالت السيدة من دانزيغ بنبرة رتيبة كيف قبض الإيڤان على أمها العجوز. أمها، التي كانت جدّة بالفعل، سألتْهم بلغتها البولندية الدانزيغية، ألا يخجلون من أنفسهم، وهم يعتدون على امرأة عجوز؟! تلقّت الإجابة الكلاسيكية باللغة الألمانية: «أنتِ عجوز، أنتِ بصحة جيدة».

كنتُ على وشك الانهيار فوق حوض الغسيل، عندما ظهر رئيسنا، وأعلن استراحة الغداء. حمل لكل واحدة منا قصعة حساء دسم، وفيه قطع من اللحم، خيار وأوراق الغار، وصحناً قصديرياً، فيه حساء بازلاء سميك، ولحم خنزير مقدّداً مقلياً. اتضح أن رئيسنا كان طبّاخاً، وطبّاخاً جيداً أيضاً. الطعام كان لذيذاً. شعرتُ بطاقة جديدة تتدفّق في داخلي.

واصلنا غسيل الملابس الذي يأبى أن ينتهي. في الساعة الثانية من بعد الظهر، الساعة الثالثة، الساعة الرابعة، الخامسة، الساعة السادسة، واصلنا

العمل دون توقّف، وتحت إشراف مستمرّ. ننقع الملابس في الصابون، نعصرها، نسحب المياه منها. أقدامنا تؤلمنا، مفاصل أيدينا قد تحطّمت من الفرك لفترة طويلة. الروسيون الذين يقفون حولنا يظنون أنهم قد خدعونا بحركة لئيمة مع هذا الغسيل. يفركون أيديهم، ويُظهرون الشماتة: «ها ها، يجب أن تغسلوا ملابسنا، مناسب - تماماً - بالنسبة لكم». المرأة من دانزيغ كانت تضحك فقط. وأنا، تصرّفتُ، كما لو أني صمّاء بكماء، أبتسم للجميع، وأغسل، وأغسل. الرجال ذُهلوا من تصرّفنا. سمعتُ أحدهم يقول للآخر: «تعملان بجدّ. وتظلان سعيدتَيْن».

نشرنا آخر المناشف المغسولة في الساعة السادسة، نظّفنا أحواض الغسيل، وسرنا إلى المقصف؛ حيث حصلنا على صحن جريش. وبعد ذلك، عندما أردنا العودة إلى المنزل مع النساء الأخريات، صرخ رجل كان يقف عند البوّابة: «رابوتا!» تعالت صيحات النساء، واندفعنَ نحو البوّابة، لكن محاولتهنّ باءت بالفشل. بالنسبة للخاضعين، لا يوجد يوم عمل من ثماني ساعات. دفعَنا جندي بسلاحه إلى الوراء: «يا امرأة، رابوتا!» كلمة روسية، تعلّمها الجميع.

يجب أن نعود جميعاً إلى قاعة المصنع لشحن قطع غيار حديدية مرّة أخرى. بصمت وبلادة، أوصلنا قطع الحديد مع بعضها. حمل الحديد البارد مؤلم جداً، إذا كانت يداك منهكتَيْن من الغسيل.

أخيراً، في حوالي الساعة السابعة والنصف، صاح المشرف بأن العربات قد امتلأت تماماً. كانت معبّأة، وتئنّ تحت ثِقَل الوزن عندما سحبتْها القاطرة خارج القاعة. ربّما يسقط القاع قبل أن تصل العربات إلى موسكو. عامل عجوز قفز من القطار المتحرّك، وقال، إن من الأفضل لهم أن يُفرغوا بعض من حمولتها على الفور؛ لأن «ماذا يجب أن نفعل هنا؟» وأشار إلى قاعة المصنع الفارغة. والنساء سألنَ: «ماذا سيفعل رجالنا الآن؟».

وصلتُ إلى المنزل في حوالي الساعة الثامنة، متعبة جداً هذه المرّة، مع يدَيْن قاسيتَيْن، جعلتا من الكتابة اليوم مهمّة شاقة، بالنسبة لي. رغم ذلك، لا أزال منتشية بسبب وجبة الغداء الباذخة، الدسمة. هناك المزيد من الغسيل غداً. رئيسنا جهّز لنا - بالفعل - عملاً جديداً.

السبت، ٢٦ مايو ١٩٤٥.

يوم جديد، وعَدٌّ لا نهاية له للماشية، رغم أن الفييني يجب أن يكون أكثر قدرة على ذلك الان. وأيضاً بدأ اليوم بحساء الجريش الساخن. كانت النساء تعدّ قطع اللحم الطافية فيه برضا. وأنا سعيدة؛ لأني لا أرى هير پاولي أمامي، و يعدّ عليّ كل لقمة، أضعها في فمي.

بحثتُ عن شريكتي في الغسيل، بلا جدوى. لم تظهر تلك الصغيرة المشاغبة. لهذا أقنعتُ امرأتَيْن أخريتَيْن بالعمل معي، امرأة شابة، وأخرى في الأربعين، وجهَيْن لطيفَيْن؛ ليقفا معي عند حوض الغسيل. كانت تنتظرنا قمصان منقوعة من قبل في الدلاء، مليئة ببقع الدهون؛ لأن هذا الغسيل خاصّ بوحدة المحرّكات.

اليوم مثل البارحة. السيدتان معي كانتا جادَّتَيْن ولطيفَتَيْن. ومن جديد، كان يقف بعض الروس حولنا. دافعْنَا عن أنفسنا بكوعنا تارة، وبالضحك السخيف تارة أخرى. واحد منهم، عيناه صغيرتان جداً، وضع في رأسه إزعاجنا. رمى عدداً من القمصان التي كانت معلّقة على الحبل في حوض الغسيل، وأشار إلى عدد من البقع التي لم نتمكّن من إزالتها تماماً. نعم، بالتأكيد، كان لايزال هناك بعض البقع في الغسيل. الصابون كان سيئاً بعض الشيء، وفرشاتنا لم تكن كافية. الرجال الآخرون كانوا أكثر لطفاً، ووضعوا إلى جانب قمصانهم بعض الخبز.

قبل الظهر، بنى رئيسنا في الخارج أمام الثكنة ما يشبه غرفة طعام، تتكوّن

من خزانة وأدراج مقلوبة. طلب منا أن نجلس في أماكننا، وقدّم لنا - ودائماً مع الوجه اللطيف الظريف نفسه - قدراً كبيراً من حساء اللحم الدسم. تناولنا طعامنا بعناية تحت أشعّة الشمس. سألتُ شريكتيَّ في الغسيل السؤال المكرّر نفسه، كم مرّة تعرّضنَ للاغتصاب، وحصلتُ منهما على أجوبة مراوغة. الأكبر سناً، كانت سيدة مفعمة بالحيوية مع أسنان محطّمة، لكنْ؛ مع مرح غير قابل للتحطيم، قالت إن ما حدث كله لا يهمّها، ما يهمّها - بالدرجة الأولى الآن - أن زوجها - عندما سيعود من الجبهة الغربية - لا يلاحظ أي شيء.

علاوة على ذلك، هما متّفقتان مع شعار «روسي فوق بطنك» ليس سيئاً مثل «آمي فوق رأسك». ومن هنا انضمّتا إلى المحادثة، هي - كما تقول - مع سكّان بنايتها، دُفنوا أحياء في القبو، بسبب ضربة جوّيّة مباشرة. كان هناك جرحى وقتلى. وبعد ساعتَيْن، جاء بعض المساعدين؛ لينتشلوهم من بين الأنقاض. عندما كانت تتحدّث عن القتلى، يسيطر عليها انفعال شديد. سيدة عجوز كانت تجلس أمام الجدار، أمام مرآة! المرآة كانت معلّقة على مستوى منخفض جداً؛ لأن القبو كان مخصّصاً - في الأساس - لأطفال الحضانة التي أُنشئت إلى جوار الثكنة. وعندما تمّ إجلاء الأطفال كلهم - تقريباً - من برلين، تمّ السماح لسكّان البناية، باستخدام القبو. «والآن تلقّت العجوز المرآة بأكملها في ألف شظية بظهرها، ومؤخّرة رأسها. وهناك - بهدوء تامّ، ودون أن يلاحظ أي أحد في الظلام، وفي جوّ الفوضى العام - ماتت، وهي تنزف» المتحدّثة حرّكت ملعقتها بحماس في الهواء: «تصوّري! بسبب المرآة!».

موت غريب، بكل تأكيد. أظن أن الغرض من المرآة كان من أجل أن يرتّب الأطفال - الذين كان القبو مخصّصاً لهم - شعرهم أمامها في الصباح بعد ليلة القصف. وبطبيعة الحال، عُلّقت هذه المرآة في بداية الحرب الجوّيّة عندما كنا مرتاحين وواثقين من أداء الدفاعات الجوّيّة.

واصلنا الغسيل طوال فترة بعد الظهر، نفرك القمصان، البنطلونات

والقبّعات على ألواح الغسيل بأيدينا المجعّدة، والمتورّمة. في الساعة السابعة مساءً، تمكّنّا سرّاً من الاختفاء خرجنا عبر بوّابة جانبية إلى الشارع. شعور رائع بالحُرّيّة، مساء الحُرّيّة والهروب من الواجب.

في المنزل، شربنا نحن الثلاثة آخر ما تبقّى من البورغونيه الذي سرقتْهُ في ذلك الوقت من ثكنة الشرطة.

غداً هو يوم الأحد، لكنْ؛ ليس بالنسبة لي. القييني ألقى علينا خطبة، ومفادها، أننا إذا لم نحضر غداً، سوف يجلبنا بالقوّة؛ لنواصل العمل في المصنع.

الأحد، ٢٧ مايو ١٩٤٥.

يوم متعب، طويل ومملّ. أطول أحد في حياتي. عملتُ دون استراحة من الساعة الثامنة صباحاً حتّى الساعة الثامنة مساءً تحت أشعّة الشمس الساطعة. لم نتعامل اليوم مع أحواض الغسيل. الروسيون كان لديهم يوم عطلة. وقفنا في سلسلة حول الفناء الداخلي تحت أشعّة الشمس اللاهبة. ننقل قضبان الزنك والقطع الحادّة من الزنك من يد إلى يد. السلسلة التي طولها حوالي مائة متر تتكوّن من حلقات قليلة. يجب على المرأة حتّى تصل إلى المرأة التالية أن تخطو خطوة أو خطوَتَيْن دائماً، وثلاثة يحملون الأشياء الثقيلة. سرعان ما أُصبتُ بصداع بسبب الشمس الساطعة. وكان ظهري يؤلمني كثيراً، ويداي لا تزالان محطَّمَتَيْن منذ أيام الغسيل.

من حولي، كان هناك ثرثرة ومشاحنة سخيفة. وأخيراً رُتّل ما يشبه النشيد. النساء يردّدن - بلا نهاية - بيت الشعر: « Scheint die liebe Sonne vom Himmel so heiß – sitzt Bache und scheint die liebe Sonne der Bürgermeister am ...» (أشرقت تلك الشمس الحبيبة دافئة جداً في السماء - يجلس العمدة في الظل وتشر--- ق تلك الشمس الحبيبة) وإلخ، يردّدنها برتابة. وهكذا قمعت النساء غضبهنّ حول سرقة يوم الأحد منا.

بين الحين والآخر، تُخرج سيدة طويلة ونحيلة ساعة يد ملفوفة في منديل، من مكان ما تحت ثيابها، وتُخبرنا بالوقت. الساعات تمضي ببطء. في غضون ذلك، تناولنا - بسرعة - حصّتنا من الجريش السميك.

واصلنا العمل في وهج، بلا ظلّ. زنك، زنك، بلا توقّف. في حوالي الساعة الرابعة، امتلأت أول عربة. وميضها فضيّ. ودفعناها جميعاً مع «واحد - اثنان - هوب» بعض الشيء على قضبان السّكّة الحديدية، وجهّزنا عربة البضائع التالية. عربة فرنسية من بوردو مع علامة معروفة جداً، بالنسبة لي SCFN (*). تفوح منها رائحة نتنة. استخدمها الناس كمرحاض. النساء ضحكنّ. صاحت إحداهنّ: «هذا القَرَفُ سيذهب مع البضاعة إلى موسكو».

وزنك بلا نهاية. أخيراً ظهر الانزعاج على كلا المشرفين. نحن نعرف هذَيْن الجنديَّيْن جيداً. أطلقنا عليهما «الدمية» و«الأحول». اليوم لم يكونا جادَّيْن جداً، صاحا لمرَّتَيْن في أثناء العمل الكلمة الألمانية الجميلة «! Pause» (استراحة). بالإضافة إلى ذلك، خاطر «الأحول» نفسه برقصة مع إحدى بناتنا، ونحن زميلاتها صفَّقنا لهما. في حوالي الساعة الخامسة، اختفيا فجأة. استراحة مسائية لهما، لكنْ؛ مع الأسف ليس لنا. عمّ المكان هدوء مخيف. لا صراخ لمشرف العمل، لا ثرثرة، ولا مساعدة، لا شيء على الإطلاق. لا شيء سوى صوت جرّ خطواتنا وتحذير هادئ أحياناً: «انتبهي!» إذا غفلت إحدى النساء. والسؤال المتكرّر عن الوقت، بطبيعة الحال.

من القبو؛ حيث النساء تقف هناك طوال الوقت أيضاً، جاء خبر يقول إن هناك كتلاً من قضبان الزنك، لم يتوقّع وجودها أحد. في حوالي الساعة السابعة، انتشرت شائعة أن العمل قد انتهى لهذا اليوم، واتّضح أن هذا غير صحيح. وواصلنا العمل، زنك، زنك ... أخيراً، في الساعة الثامنة، ظهر روسي، أومأ لنا نحو المقصف. تناولنا الحساء الدسم، ومضينا إلى منازلنا. كدتُ أقع مغشيّاً عليّ من شدّة التعب، وكان لون يديّ رمادياً داكناً. عندما غسلتُ يديّ لاحقاً، طفتْ رقائق رمادية سميكة فوق الماء. اضطجعتُ مسترخية، وسمحتُ للأرملة بأن تدلّلني، وتقدّم لي الشاي والكعك.

(*) SCFN:(Société nationale des chemins de fer français): الشركة الوطنية للسكك الحديدية الفرنسية.

لدينا تيار كهربائي منذ البارحة. انتهى زمن الشموع والطَّرْق على الباب، انتهى الصمت. الراديو بدأ البثّ عن طريق محطّة برلين. أخبار رئيسة وفضائح: رائحة الدم، الجثث والوحشية. في مخيّمات كبيرة في الشرق، حُرق ملايين البشر، اليهود على وجه الخصوص. ويبدو أن الرماد قد استُخدم كَسَمَاد. والأكثر جنوناً هو أن: كل شيء كان يجب أن يُسجَّل في كُتُب سميكة، حسابات الموت. يجب أن يكون هذا صحيحاً، حتّى موضوع الحسابات يبدو صحيحاً. نحن شعب منظّم، على أي حال. في وقت متأخّر من الليل جاء دور بيتهوفن، وسالت دموعي. أغلقتُ الراديو. لا يمكن احتمال هذا الآن.

الاثنَيْن، ٢٨ مايو ١٩٤٥.

عدنا للطشت. اليوم كان الإيڤان مميّزون في همهمتهم. كانوا يقرصوننا، ويحضنوننا، ويكرّرون الحِكم الألمانية القديمة: «لحم خنزير مقدّد، بيض، النوم في البيت» وبعد ذلك، يضعون رؤوسهم على أذرعتهم مثل ملائكة رافائيل للتوضيح.

لحم خنزير مقدّد، بيض، يمكننا استخدام ذلك، بشكل أفضل. رغم أن العرض كان ثميناً، بقدر ما يمكنني أن أرى، لا شيء مؤكد. الاغتصاب في وضح النهار في منطقة مفتوحة، بالقرب من جموع من الناس يجب أن يكون مستحيلاً. الازدحام في كل مكان. لن يجد الرجال زاوية هادئة في أي مكان. لهذا قالوا «النوم في البيت». يريدون أن تصطحبهم إحدى الفتيات الراغبات، المحتاجات إلى لحم الخنزير المقدّد، إلى المنزل. هؤلاء موجودات بيننا - حتماً - في هذا المصنع. لكن الخوف يمنعهنّ.

غسلْنا - من جديد - القمصان، القمصان الداخلية والمناديل. إحدى هذه المناديل اتّضح أنها شرشف صغير لطاولة سرير، شرشف صغير مع مستطيل أحمر، ومطرّز في داخله بالابرة «Schlafe wohl» (نوم العافية) لأول مرّة في حياتي، أغسل مناديل مليئة بمخاط أنوف أناس غرباء. مرعوبة من مخاط العدوّ؟ نعم، أكثر من الألبسة الداخلية، يجب أن أتغلّب على هذا الشعور، وقاومت رغبتي بالتقيؤ.

من الواضح أن شريكتَيّ في الغسيل لم تجدا صعوبة في ذلك، وواصلتا

الغسل بعناد. أعرفهما جيداً. الصغيرة گيرتي، وعمرها تسعة عشر عاماً، ناعمة ومتأمّلة، اعترفتْ بصوت ناعم بعذابات الحب كلها. عن صديق تركها، وآخر قُتل... أرسلت المحادثة إلى آخر أيام أبريل. أخيراً اعترفتْ، وهي تُخفّض طرفها، أن ثلاثة روسيين أخذوها من القبو، و- في البداية واحداً بعد الآخر، وبعد ذلك معاً، على أريكة في شقّة أرضية غريبة - استولوا عليها من قبل. بعد أن قاموا بفعلتهم عدّة مرّات، أظهر هؤلاء الشبان حقيقتهم كمهرّجين. فتّشوا في خزانة المطبخ الغريبة، وعثروا على مربىّ وبديل القهوة فقط - وهو نموذجي بالنسبة لخزانات مطبخ الألمان في ذلك الوقت - المربىّ وضعوها بالملعقة على رأس الصغيرة گيرتي، وبعد ذلك، نثروا بديل القهوة، بإسراف عليها، وهم يضحكون.

حدّقت فيّ الفتاة، بينما كانت تتحدّث بصوت هادئ وخجول عن هذا التاريخ، وهي تنحني على غسيلها، حاولتْ تخيّل هذه الحالة الفظيعة. أبداً، أبداً، لن يستطيع أي كاتب تخيّل شيء مثل هذا.

طوال اليوم من حولنا صراخ مراقبي العمّال الذين لا يرحمون: «داڤاي، پوستاي، رابوتا، سكاريه!» هيا، إلى الأمام، أسرعوا، أَسرَع! فجأة أصبحوا كلهم على عجلة كبيرة من أمرهم. ربما سيغادرون قريباً.

المرحاض كان مشكلة بالنسبة لنا نحن غاسلات الملابس. لدينا شيء قذر متاح لنا، بالكاد يمكننا دخوله، بسبب أكوام الغسيل. في اليوم الأول حاولنا مع ماء الشطف. لكن أنابيب الصرف الصحي قد انسدّت. والأسوأ هو أن الروسيين ينتظروننا هناك. الآن نفعل الآتي: اثنتان منا تنتظران، إذا ذهبت الثالثة إلى هناك، كل واحدة تنتظر في إحدى نهايَتَي الممرّ. يجب أن نأخذ معنا الصابون والفُرش دائماً، وإلا ستختفي.

بعد الظهر، جلسنا لساعة على الدُّرج المقلوب تحت أشعّة الشمس، أكلنا حساءنا الدسم، وغفونا قليلاً. وبعد ذلك الغسيل، الغسيل من جديد.

ذهبنا ونحن مبلّلات من العَرَق إلى منازلنا في الساعة السابعة. تمكّنّا - مرّة أخرى - من الاختفاء سرّاً عبر البوّابة الجانبية.

وفي المنزل، حمّام رائع، وثوب لطيف. كان مساءً هادئاً.

كنتُ بحاجة إلى التفكير. محنتنا الروحية عظيمة. نحن ننتظر كلمة، تُدخَل في قلوبنا، وتُعيدنا إلى الحياة. قلوبنا تبدّدت، نحن بحاجة إلى تغذية، إلى ما تسمّيه الكنيسة الكاثوليكية «المَنّ والسلوى، غذاء الروح». أرغب في زيارة الكنيسة، إذا كان لديّ إجازة في الأحد القادم، وإذا كان - هناك أيضاً - صلواتِ كَنَسِيّة ستُقام من جديد، فقط من أجل أن أرى إن كان الناس - الآن - قد وجدوا هناك خبزاً لأرواحهم. الناس مثلي، الذين لا ينتمون إلى أي كنيسة، يشعرون أنهم في الظُّلمة، وحيدين. المستقبل يضغط علينا، بكل ثقله. أنا أعارض ذلك، وأحاول أن أبقي اللهب مشتعلاً في داخلي. لأجل ماذا؟ لماذا؟ ماذا يتوجّب عليّ أن أفعل؟ أنا يائسة جداً مع هذه الأسئلة كلها.

الثلاثاء، ٢٩ مايو ١٩٤٥.

يوم غسيل جديد، طويل وحار. كأن السماء أمطرت قمصاناً وبنطلونات. اختفى قميص من على حبل الغسيل، على ما يبدو أنه قميص من نوعية جيدة، من ممتلكات أحد الضباط. لا أحد، ولا حتّى السارق نفسه، خطرت له فكرة أن إحدانا يمكن أن يعجبها شيء كهذا. الرجال صرخوا بشيء ما، لكنْ؛ ممكن للمرء أن يلاحظ أنهم يتقبّلوا السرقة على أنها ظاهرة طبيعية. السرقة تكمن عميقاً في دواخلهم. عندما كنتُ في روسيا، خاصة في البداية، لاحظتُ أنهم يسرقون كل شيء - تقريباً - يصلح للسرقة: حقيبة عمل، معطف، قفّازات، منبّه، وحتّى جوارب علّقتها في الحمّام؛ لتجف.

في إحدى المرّات، سرق أحدهم مقصّ أظافري، في مكتب، كان يتواجد فيه ثلاثة موظّفين، تماماً في اللحظة التي انحنيتُ فيها لأخذ صورة من الدُّرج. أحد الموجودين كان مؤهّلاً - ببساطة - ليكون السارق. جميعهم كَتَبَة لطفاء مهذبّون. لم أجرؤ على قول أي شيء عن السرقة، وبحثتُ بصمت حول المكتب، احمرَّ وجهي، كما لو أني أنا السارقة، بينما الرجال الثلاثة في المكتب يواصلون عملهم بحياد تام. إلى الآن لا أعرف مَن كان السارق. كل ما أعرفه أن الروسي في ذلك الوقت لا يمكنه شراء مثل هذا المقصّ. على أي حال، تلك السرقات كانت نتيجة للفقر الذي بدأ يستشري - هنا - أيضاً. لكن الروس لديهم طريقة مميّزة جداً، مخلصة وبديهية في السرقة. «هذا هو الحال. ماذا عليكِ أن تفعلي؟» تلقّيتُ مثل هذه الكلمات في مركز شرطة موسكو عند بلاغي عن أول سرقة، تعرّضتُ لها هناك، حقيبتي اليدوية.

نعم، وعندما عددتُ لهم محتويات الحقيبة كلها: أقلام حبر، مبرد أظافر، سكّين جيب، وإلخ، ضحك رجال الشرطة من قلوبهم. وعندها ذكرت ساعتي اليدوية أيضاً، التي وضعتُها بالصدفة في الحقيبة؛ لأني أردتُ تصلحيها، سالتْ دموعهم على خدودهم من الضحك، حرفياً.

كان الرجال يتملّقون لنا بعرضهم النمطي طوال اليوم: «لحم خنزير مقدّد، بيض، النوم في بيتكِ». أحدهم لم يتركني وشأني، وأظهر لي - سرّاً - ورقة، بعشرين مارك ألماني، ووضع عشرين أخرى إلى جانبها، في حال ذهبتُ معه - بسرعة - إلى الثكنة ... وعد الصغيرة گيرتي - من قبلُ - بالوعد نفسه.

غسلتْ معنا - اليوم - سيدة روسية، زوجة، أو صديقة قبطان، شقراء، وصدرها عالٍ. كانت تغسل قمصان الرجال الحريرية، وتغني لا - لا - لا شلاگر(*) ألماني من المؤكد أنها سمعتْه من أسطوانة فونوغراف. گريتي والسيدة الأخرى غنّتا معها بنبرة نقية. ابتسمت الروسية لنا. ثمّة نسيم من المحبة قد هبّ بيننا.

كان الطقس جافّاً ورائعاً في الخارج، شمس ورياح. غالبية الروس يرقدون - اليوم - في مكان ما من المنطقة. لم يأتِ أيّ أحد؛ ليقرصنا، أو ليحضننا. ونحن غسلنا القليل من الملابس. بطريقة، أو بأخرى، توصلنا إلى الشعر. اتضح أن الصغيرة گيرتي تحفظ نصف كُتُبها المدرسية عن ظهر قلب. شاركتها، ودَوَت قصائد فوق طشت الغسيل لموريكه، أَيشندورف، ليناو وغوته.

گيرتي استشهدتْ بالبيت الآتي، وهي تخفض عينَيْها بخجل: «Warte nur, balde - ruhest du auch» (ليس علينا سوى الانتظار، قريباً. سوف ترتاح أنت أيضاً) وتحسّرتْ: «هل كان الأمر بعيداً إلى هذا الحدّ» المرأة الأخرى هزّت رأسها. هي أكبر بالعمر من الصغيرة گيرتي بمرَّتَيْن ونصف، لكنها لا تبالي بالموت. شعارها الدائم هو: «كل شيء يمضي».

---

*) شلاگر (schlager): من أكثر أشكال الغناء الشعبي الألماني شهرة.

في حوالي الساعة الثامنة، عدتُ متعبة إلى المنزل. اتّضح هناك أن «المنزل» لم يعد كذلك. «عائلتنا الجُزافية» انشقّت عن بعضها البعض. هير پاولي عندما نظر إلى صندوق البطاطا الفارغ - تقريباً - افتعل مشاجرة، كانت مؤجّلة منذ فترة طويلة مع الأرملة، وطلب منها أن لا تسمح لي بالأكل والسَّكَن معهما بعد الآن. حسناً، أوراقي موقفها سيئ منذ أن تبخّر نيكولاي، وليس هناك أي «نائم» جديد، يلوح في الأفق. عندما استقبلتْني الأرملة في المدخل؛ لتخبرني بهذه الأخبار السيئة، كانت لا تعرف أيّ سبيل تسلك؛ لتشرح لي ذلك. من ناحية، هي تريدني معها. الأيام الفظيعة خلقت علاقة وطيدة بيننا. ومن ناحية أخرى، هي تعرف هير پاولي قبل أن تعرفني بفترة طويلة، تشعر نحوه بانسجام معين، وتتوقّع منه في المستقبل أماناً معيناً. لا تجرؤ على إغضابه.

قلتُ: «الحمد لله، أني أعرف أين أقف. منذ فترة طويلة، لم أتذوّق طعم أيّ لقمة هنا. كنتُ سعيدة؛ لأني حصلتُ على طعامي من الروس طوال الأسبوع الماضي». وهذا ما حصل بالفعل. رغم أني لا أعلم - إلى الآن - أين يجب أن أعيشَ في الأسبوع القادم عندما ينتهي العمل عند الروس، وأجلس وحدي في غرفة العلّيّة أمام خزائن فارغة، يعتمد هذا على تخصيص بعض الأشياء التي يجب أن نحصل عليها، لكننا لم نحصل عليها حتّى الآن. حزمت أغراضي، عدد قليل من الملاعق وخرق، ومشيتُ بتثاقل إلى فوق. ومع ذلك، نمتُ لآخر مرّة في شقّة الأرملة؛ حيث أكتب هذا الآن. الطفل اليتيم يجب أن يواصل تجواله. الأكثر مرارة في حياة امرأة عزباء، هو أنها - في كل مرّة، تحصل فيها على ما يشبه الحياة الأسرية - تعاني بعد فترة من الزمن من أنها دخيلة، شخص ما يتذمّر؛ لأنها تحبّ الآخر، وفي النهاية، يتمّ طردها للحفاظ على السلام. الآن - هنا أيضاً - بقع من دموعي على هذه الورقة...

الأربعاء، ٣٠ مايو ١٩٤٥.

اليوم هو يوم الغسيل الأخير. من الغد، نحن أحرار، جميعاً. الروس حزموا حقائبهم، وسادت مشاعر الرحيل، في كل مكان. في داخل السقيفة أشعلوا النار تحت مرجل الغسيل؛ لأن الضابط يريد الاستحمام. الجنود غسلوا أنفسهم في الخارج، غرفوا الماء بالطاسات، فركوا صدورهم العريضة بمناشف مبلّلة، وهم يجلسون على الكراسي.

لقد حقّقتُ انتصاراً اليوم: بإيماءات وبعض الكلمات بألمانية مكسّرة، فهمتُ من الشاب الذي كان يتملّق لنا أن «هو هناك» قد وقع في حبي، وهو مستعدّ أن يفعل أي شيء لي، إذا أنا وهو... «هو هناك» ظهر أنه جندي ضخم عريض، وجهه برونزي، وعيناه زرقاوان بريئتان، وشعره أشيب. كان ينظر بحرج إلى الجانب الآخر، عندما نظرتُ له، اقترب - بعدها - منّي خطوة بعد خطوة، أخذ منّي دلو الماء الثقيل، وحمله عنّي إلى الحوض. نوع جديد تماماً! لم يفكر أحد بهذه الفكرة المجنونة. وبعد هذا، كان هناك مفاجأة أكبر، قال بالألمانية، دون أي لهجة روسية: «غداً سوف نذهب بعيداً، بعيداً عن هنا». قال هنا (هير)، وليس «شير». فهمتُ على الفور. هو من العِرْق الألماني. وبنفسه، أكد لي ذلك أيضاً، جاء من ڤولگا، اللغة الألمانية - مع بعض الصدأ - هي لغته الأم. طوال اليوم يحوم حولي، ويقترب منّي مع عينَيْه الودودتَيْن. ليس لديه هَوَسُ العناق، بل هو خجول، فلاح خجول. مجرّد نظرة الكلب المخلص المستمرّة التي يحاول بها التعبير عن ما يريد. طالما هو في جواري، يتوقّف الشدّ والجذب مع الرجال حول طشتنا.

نحن الثلاثة، عدنا نمازح بعضنا. الصغيرة گيرتي كانت - اليوم - سعيدة، غنّتْ، وترنمّتْ، بلا توقّف. هي سعيدة؛ لأنها عرفت هذا الصباح، بأنه لن يكون هناك روسي صغير منذ ما حدث على الأريكة. عندها فكّرتُ أن الآن قد مضى أسبوع بالضبط على الوقت المعتاد لدورتي الشهرية، شيء غير طبيعي، بالنسبة لي. رغم أني لا أصدّق بأي من هذه الهواجس، ولا أزال أؤمن بأني عن طريق صوتي الداخلي الذي يقول لي «لا» قادرة على إسكات هذه الهواجس.

المحظوظة گيرتي كان لديها ألم شديد، حاولنا أن نهوّنه عليها، ونجحنا في ذلك. كان يوماً قائظاً وكئيباً، والساعات تمضي بتثاقل. في المساء، وصل الروس واحداً بعد الآخر، وأخذوا - في غضون ذلك - ملابسهم الجافّة. أحدهم ضغط منديلاً نسائياً أنيقاً، ومحيطه مطرّز بالكروشيه على قلبه، وقال مع عينَيْن هائمتَيْن حالمتَيْن، كلمة واحدة فقط، اسم مكان «لاندسبيرك». روميو آخر، قلتُ لنفسي. ربمّا پيتكا سوف يُهمهم باسمي في غابات سيبيريا ذات مرّة، وهو يضغط مخالبه، مخالب الحطّاب، على قلبه مع مثل هاتَيْن العينَيْن الحائرتَيْن تماماً، هذا إذا لم يشتمني، وهو يقطع الخشب.

بسبب ارتباك الرحيل، لم يجلب لنا الطبّاخ اليوم شيئاً من طعام الجنود. كان علينا الذهاب إلى المقصف، وهناك احتسينا شوربة الجريش. وسمعنا بالقصّة التي تروي أن أجورنا من ثمانية مارك لليوم الواحد، والتي وعدنا بها في الأسبوع الماضي، سوف لن تُدفَع لنا على الإطلاق، وأن كل الأموال قد دُسَّت في جيوب الروس. وهناك قصّة ثانية أكثر وحشية: كما بثّ الراديو: أن غزواً مغولياً سوف يجتاح برلين، وحتّى ستالين نفسه لا يستطيع كبحه، وللغزاة الحُرّيّة في ممّارسة النهب والسلب لمدّة ثلاثة أيام.

وأوصوا بإخفاء النساء في المنازل ... محض هراء، بطبيعة الحال. لكن النساء صدّقنَ بذلك، وثرثرنَ، وتباكينَ مع بعضهنّ حتّى تدخلتْ مترجمة في ما بينهنّ. سيدة ذات شخصية قوية، نموذج لفارسة. تصرخ

بأنتِ، وهي علينا جميعاً، وتعمل مع مراقبي العمّال. ليس لديها أوامر بذلك، لكنْ؛ كعاملة أُرغمت على المجيء إلى هنا مثلنا جميعاً، حتّى ارتقت إلى مترجمة، بفضل بعض الكلمات الروسية التي تعرفها (أصلها من الجزء البولندي لسيليزيا العليا). ما تعرفه من اللغة أعرفه منذ فترة طويلة. أنا سعيدة جداً، على أي حال؛ لأني لم أضطر إلى الحديث، بما أعرفه، لم أترجم سوى أوامر وصراخ مراقبي العمل على مَضَض. نحن نخاف جميعاً من هذه المترجمة. أنيابها مدبّبة، ونظرتها خبيثة جداً. هكذا أتصوّر الحارسات في معسكرات الاعتقال، الكاپو(*).

في المساء، بُلغنا باستقالتنا من العمل في المقصف. وبالنسبة لأجورنا، قال أحدهم، إننا يجب أن نستفسر عن ذلك في مبنى البلدية، غرفة رَقْم كذا، الصندوق. ربّما هناك أجور بالفعل، وربّما لا. يجب أن ننتظر، على أي حال. صافحت الصغيرة گيرتي والغاسلة الأخرى - بحذر شديد؛ لأن أيدينا نحن الثلاثة كانت متشقّقة من الغسيل - وتمنّيتُ لهنّ التوفيق. گيرتي كانت تريد العودة إلى سيليزيا؛ حيث يسكن والداها. أو كانوا يسكنون. لا أحد يعرف أبداً.

---

*) الكاپو (Kapo): هو سجين في المعسكر النازي في الحرب العالمية الثانية، يُشرف على السجناء الآخرين. الكاپو يعمل لصالح الـ إس إس، ويشرف على عمل السجناء، ويكون مسؤولاً عن نتيجة أعمالهم.

الخميس، ٣١ مايو ١٩٤٥.

اليوم بدأت حياة الجوع المستقلّة في العلّيّة. أظن أن تناولي الطعام بعيداً عن الأرملة من منطلق طموح غريزي قد حدث. كنتُ أعرف أن ذلك لن يدوم طويلاً. لهذا تناولتُ الكثير من الطعام تحسّباً لهذا اليوم. لا أحد يستطيع أن يُضعفَني الآن. الانتقال من حياة كريمة إلى حياة العدم - تقريباً - صعب جداً. ليس لديّ خزين. من حصّتي التموينية لم يبقَ شيء تقريباً. من بقايا الخبز الذي نحصل عليه في الوقت المحدّد، بالضبط. بالنسبة لي، أحصل على ٣٠٠ غرام كل يوم؛ أي ما يساوي ستّ شرائح من خبز الشيلم الأسمر، آكلها بسهولة كإفطار. لكن اليوم نفدت قطع الخبز الصغيرة، لذا؛ كان عليّ أخذ رغيف من الخبز، وزنه كيلو واحد. رشمتُ علامة الصليب عليه، مثلما كانت تفعل جدّتي المؤمنة. ليأذن بأن لا أفتقر إلى الخبز هنا. عَلّمتُ ثلاث شقوق على قشرة الرغيف، حصّة لكل وجبة على مدار اليوم. ليس هناك دهن لدهن الخبز. والبطاطا الجافة وبقايا طحين البازلاء التي أعطتْها الأرملة لي تكفي لوجبتَي غداء. لكنْ؛ للعشاء ليس هناك أي شيء، بصرف النظر عن نبات القرّيص الذي يُفقدكَ شهيتكَ عند تناوله. الآن وأنا أكتب هذا، أشعر كما لو أن رأسي بالون هوائي، يمكن أن يطير بعيداً في أي لحظة. وعندما أنحني، أشعر بالدوار على الفور. الانتقال صعب جداً. ومع ذلك، أنا سعيدة بالأسابيع الدسمة القليلة التي عشتُها. لا يزال لديّ بعض القوّة منها. ذات يوم سوف يوزّع التموين. لا يمكنني الاعتماد على الراعي الروسي. هذا العهد قد مضى.

عملتُ بجدّ طوال اليوم في غرفتي في العلّيّة. يوم من الصمت التام والوحدة، الأول منذ فترة طويلة. اكتشفتُ أن راديو صاحب الغرفة قد اختفى. في المكان الذي كان يُوضَع عليه يمكنكَ أن ترى حتّى بصمات يد من الجير، بصمات أصابع حقيقية. المواد اللازمة لشيرلوك هولمز. توصّلتُ إلى أن بنّائي السقف قد اغتنوا من هذا المكان، والآن سوف يرون ما لا يسرّهم منّي! العنوان حصلتُ عليه من مدبّرة منزل مالك البناية الذي اختفى باتجاه ألمانيا الغربية. وهي تلعب دور المالك مكانه في البناية، وكانت مشغولة بجمع الإيجارات لشهر يونيو. إيجارات شهر مايو تمّ إسقاطها رسمياً. شهر مايو ١٩٤٥ لم يُدرَج في السجلات المدنية.

الجمعة، ١ يونيو ١٩٤٥.

تبرعمت من أُصُص الزهور الكزبرة الخضراء متموّجة، ولسان الثور بأوراق دائرية. ابتهجتُ هذا الصباح بالحياة الخضراء الصغيرة. تناولتُ في الفطور ثلاث شرائح من الخبز ودهنتُها بخلطة، صنعتُها بنفسي من خميرة جافّة وماء. هانز البخيل هو سيد المطبخ(*). لقد بدأتُ بمسيرة طويلة، هذه المرّة إلى شتيگلتز إلى السكرتيرة الشابة لدار النشر التي كنتْ أعمل فيها.

برلين نظّفت نفسها. الأطفال يبدون نظيفين من جديد. يرى المرء - في كل مكان - قوافل من العوائل مع عربات صغيرة، مهاجرون من محيط المدينة، يحاولون العودة إلى الوطن. هنا وهناك أُلصقت نشرات على الجدران، وأعمدة الإنارة يدعون فيها مواطني سيليزيا وبروسيا الشرقية كلهم إلى نقل جماعي لوطنهم الأم. في الاتجاه الغربي، يجب أن يكون الوضع أصعب للعودة إلى الوطن. هناك يجتمع الآمي مع الروسي، هناك لا يزالون يحيون، كما ذكر الراديو، احتفالات التآخي.

في طريقي، مررتُ بسلاسل طويلة جداً من النساء، زرقاء ورمادية تتأرجح فوق الأنقاض. دلاء تنتقل من يد إلى يد. عدنا إلى زمن الأهرامات. لكننا لا نبني، نحن نهدم فقط.

المنزل كان لا يزال قائماً، لكنْ؛ يبدو أنه قد تعرّض لقصف شديد. في

---

*) هانز البخيل هو رئيس المطبخ، أو كبير الطُّهاة عندهم، والقَصْد من هذا المثل: أننا سنأكل اليوم وجبة فقيرة، سواء كان ذلك في المنزل، أو في مطعم الشركة، وإلخ. اشتهر المثل في ١٩٤١، وهانز هو اسم مشترك في الأوصاف العامة (مثل زيد وعمر في الأمثلة العربية).

الداخل، كانت آثار الحريق والشقوق لا تزال واضحة للعيان. ورق الجدران يتدلّى كجذاذات إلى الأسفل. لكنْ: في غرفة هيلدا، كان هناك زهور وفروع مزهرة في المزهريات. بدأتُ حديثاً تلو آخر - بسرعة - مع هيلدا عندما ظلّت صامتة، بشكل غريب، وبحثت عن أشياء كوميدية مختلفة، حدثت بيننا؛ لأجعلها تضحك. حتّى بدأتْ هي في الحديث. عندها صَمتٌّ مذعورة.

هيلدا كانت ترتدي ثوباً أزرقَ غامقاً؛ لأنها لا تملك ثوباً أسود. في ٢٦ أبريل، فقدت شقيقها الوحيد. خرج ليرى ما يحدث في الشارع، وترك أمّه وأخته في القبو. شظية قنبلة يديويةِ مزّقت رأسه. عدد من الألمان سلبوه كل شيء. وآخرون حملوا الجثّة العارية إلى داخل سينما مجاورة. بعد يومَيْن، وجدت هيلدا - التي كانت تبحث عنه في كل مكان - جثّة أخيها هناك. الأم والأخت حملتاه بعربة صغيرة إلى حديقة عامة، حفرتا بمجرفة حفرة صغيرة، ووضعتا فيها الشاب ذا السبعة عشر عاماً ملفوفاً بسترته المطرية. لا يزال مدفوناً هناك. أمها ذهبت للتوّ إلى هناك؛ لتضع على قبره زهور الليلك.

لم يتعرّض الروس لا للابنة ولا للأم. كانوا يحمون السلالم الأربعة المؤدّية إلى شقّتهما، كانت بمثابة حماية لهنّ. كان درابزين درج الطابق الثالث مكسوراً، ولذا؛ لا يظن المرء أن هناك أي شخص يسكن في الطابق الرابع. قالت هيلدا، إن فتاة نحيفة كانت معهم في القبو، عمرها اثنا عشر عاماً، قد «التقطت» من بينهم. من حسن الحظّ، كان هناك طبيب في الجوار، تمكّن من مساعدتها لاحقاً. سيدة أخرى اقتحم الروس منزلها، وتركوا منديلاً قذراً، مطرّز، فيه أنواع مختلفة من المجوهرات، كنز، وعن قيمته الرائعة، انتشرت شائعات مجنونة في البناية. هذا كله قالته هيلدا، وهي ساكنة تماماً.

تغيّر وجهها كثيراً، يبدو كما لو لفحتْه النار. هذه هي ندوب الحياة.

في طريق العودة، مررتُ بصديقتي گيزلا لزيارتها. الطالبتان السابقتان المتروكتان من ڤروتسواف لا تزالان معها. الفتيات الثلاثة كنّ قذرات جداً،

كان عليهنّ العمل لبضع ساعات هذا الصباح في سلسلة النساء، لإزالة الأنقاض. الشقراء هيرتا كانت مستلقية محمومة على الأريكة. الطبيب النسائي الذي يسكن في البيت المجاور شَخّص حالتها على أنها التهاب المبيض. وهناك احتمال كبير أن هيرتا حامل. تتقيّأ كل صباح الخبز الجافّ القليل الذي تتناوله. المعتوه الذي اغتصبها، فعل ذلك، لأربع مرّات متتالية.

النساء الثلاثة تناولنَ حساء الدقيق في وجبة الغداء. كان عليّ تناول الطعام معهنّ حتّى لا أسبّبَ لهنّ الأذى. كنتُ جائعة جداً أيضاً. قصّتْ گيزلا بعض القرّيص الذي ينمو بقوّة في أُصص الزهور، ووضعتُه في الحساء.

إلى البناية، وإلى غرفتي في العلّيّة. في طريق عودتي، رأيتُ تابوتاً أسود، تفوح منه رائحة القطران، مربوط بحبل على عربة يد. يدفعها رجل وامرأة، وطفل يجلس فوقه. صورة أخرى: شاحنة القمامة لمدينة برلين، تحمل ستّ توابيت، أحدها استخدمه سوّاق الشاحنة كمقعد. كانوا يُفطرون في أثناء القيادة، يمرّرون زجاجة بيرة بينهم، ويتناوبون وضعها في أفواههم.

السبت، ٢ يونيو ١٩٤٥.

قمتُ بزيارة لأحد بنائيّ السقف، وبهدوء، وضّحتُ عند الباب أني جئتُ لاسترداد الراديو الذي اختفى من غرفتي. في البداية، تصرف الرجل الطيب، كما لو أنه لا يعرف أي شيء عن الموضوع. لا يعرف أي شيء عن الراديو، يجب أن أكون مخطئة. عندها لجأتُ إلى خدعة قذرة: أريتُه ورقة البلدية القديمة التي يُذكَر فيها أني قد أُلحِقْتُ كمترجمة للقائد المحلي، وأقسمتُ أن لديّ - دائماً - روسيّ متاح لتفتيش أي منزل. عاد بذاكرته إلى الوراء: أوه، نعم، ربّما زميله الذي كان يسكن في البناية نفسها أخذ معه الجهاز الذي كان هناك دون أن يُعرَف صاحبه؛ ليحميه من السرقة. طلب منّي أن أنتظر قليلاً، صعد درجاً، وعاد بعد ثلاث دقائق مع الراديو، مغلّف، والحبل ملفوف حوله. حتّى الورق المغلّف به، أخذوه من غرفتي، رأيتُه على الفور.

السلطة كوسيلة للضغط. بفضل ورقة صغيرة، تصرّفتُ، كما لو كان لديّ سُلطة. ومع ذلك، ترك عندي هذا شعوراً مزعجاً. لكنْ: من المفترض أن يلتزم الجميع بآليات الحياة - الزواج، الشركات، المدن، الجيوش - بمساعدة مثل هذه الحيل في موقف معين.

بعد الظهر، استلقيتُ في شرفة غرفتي في العلّيّة تحت أشعّة الشمس. يمكنني أن أنظر إلى الداخل من خلال النافذة أمامي. سيدة كانت تعمل على ماكينة الخياطة، وتخيط شرائط حمراء وزرقاء مع بعضها. وبعد ذلك، تقصّ دوائر من قماش أبيض، وتحفّرها على شكل نجوم. نجوم وشرائط. يجب أن

يكون هذا عَلَماً أمريكياً. على الدرج، سألتْني - أيضاً - السيدة ذات الخدّ المتقيّح عن عدد نجوم العَلَم الأمريكي. لا أعرف - بالضبط - إن كانت ٤٨ أم ٤٩ نجمة، ونصحتُها بموسوعة الأرملة. إنه عَلَم معقّد، بالنسبة للخياطات الألمانيات، معقّد في اللون، وأكثر تعقيداً في التصميم. في مقابل ذلك، بساطة العَلَم الروسي: يحتاج المرء - فقط - إلى علم الصليب المعقوف القديم، الموجود في كل بيت، لم يتعرّض للقصف، ومن ثمّ؛ يفكّ غرز خياطة الصليب المعقوف. وبعد ذلك، تُخاط مطرقة، هلال ونجمة صفراء على اللون الأحمر. رأيتُ مطارق منحنية، ومناجل خفية. الأفضل نجاحاً هو عَلَم الثلاثة ألوان؛ لأن الفرنسيين منتصرين أيضاً. أزرق وأبيض وأحمر، ثلاثة شرائط تُخاط عمودياً مع بعضها، ويكون جاهزاً هكذا ببساطة. معظم الخيّاطات يستخدمنَ الأحمر من بقايا الأعلام النازية. الشراشف القديمة للأبيض، من السهل إيجادها. المشكلة هنا - أيضاً - في الأزرق. رأيتُ أن الناس يقصّون ملابس الأطفال ومفارش المائدة لذلك. الأرملة ضَحّتْ ببلوزة صفراء قديمة، من أجل المطرقة، الهلال والنجمة. وبمساعدة موسوعتها جَمّعت عَلَمَ جاك الاتحاد البريطاني، لكنه لا يرفرف، يقف مثل لوح على سارية العَلَم، متصلّب بسبب كثرة الطبقات؛ لأنها استخدمت عدّة أمتار من الأربطة، وخاطتها على قماش مئزر المطبخ الأزرق الذي كان بمثابة الطبقة الأولى حتّى تُثبّت الصليب الأحمر والشرائط القطرية الحمراء. شيء مثل هذا ممكن - فقط - في هذه البلاد. وجاء أمر - لا أعرف مصدره - بأن تُرفَع أعلام الدول الأربع المنتصرة. وترى أن ربّة المنزل الألمانية تُحدث معجزة بخياطة الأعلام، من لا شيء. لو كنتُ صيّاداً وجامع تذكارات من البلد المنتصر، سوف أقوم بجولة لجمع هذه الخرق الرائعة المختلفة في اللون، الشكل والمادة، وفي مهارة صنعها، مثلما أجمع التُّحف النادرة. في كل مكان، طوال فترة بعد الظهر، كانت الخُرق المثيرة الغريبة، الباهتة، تظهر مثل الدُّمى من المنازل. في شارعنا، على مَدّ النظر، البنايات كلها رفعت الأعلام.

في الساعة الخامسة، ظهرت - بشكل غير متوقّع - فراو إلزه إر. التي زرتُها

منذ أسبوعَيْن - تقريباً - في شارلوتنبورك. مَشَتِ الطريق كله، وهي ترتدي كعباً عالياً؛ لأنها لا تملك أحذية أخرى، سيدة أنيقة، كما كانت في الماضي. جاءت، ومعها خطّة. زوجها يعرف رجلاً مَجريّاً، وصل إلى ألمانيا قبل الحرب بفترة قصيرة. قالت إن المجري لديه حزمة كاملة من الدولارات الأمريكية، ويريد أن يبدأ العمل في مشروع. هو يفضّل أن يكون ناشراً، ينشر الصحف، المجلات، والكُتُب؛ لأن - كما يقول – كل الناشرين السابقين فقدوا مكانتهم؛ لأنهم تعاونوا مع النازيين. لهذا ينتمي هذا المجال إلى الأول الذي ليس في رصيده أي شيء، ويعرف كيف يتعامل مع الورق. يريدون أن أكون معهم؛ لأن لديّ خبرة الناشرين، وفَهْماً في كيفية الإعداد للطباعة. لا أعرف المجري، ولم أسمع عنه من قبل، بدا لي كلامها مثل مكيدة. لكنْ؛ ربّما أكون مخطئة. قلتُ نعم على أي حال. سرعان ما تقف الشركة على قدمَيْها، سأحصل على شهادة عمل، وبعد ذلك، على بطاقة فئة II و٥٠٠ غرام من الخبز كل يوم بدلاً من ٣٠٠ غرام. شيء لا يُصدَّق!

بينما كانت فراو إر. في زيارتي، جاءت الأرملة أيضاً. جلسنا نثرثر نحن الثلاثة مع بعضنا، كما يحدث - عادة - في أي تجمّع من النساء، كان ينقصنا - فقط - القهوة مع الكعك. ليس لديّ أي شيء؛ لأقدّمه. لكننا كنا سعيدات بالفعل، إلزه أيضاً، وتفوّقنا على بعضنا في ما يتعلّق بشغب الفكاهة.

مساء هادئ، بالنسبة لي، يُجمّله الراديو الذي انتزعتُه من بنائي السقف. لكنني أطفأتُه بسرعة. بعد الجاز، الفضائح، هاينرخ هاينه، والجنس البشري جاءت كلمات تأبين الجيش الأحمر، التي تبدو لي سكرية المذاق بشكل مبالغ فيه. من الأفضل أن لا يقولوا أي شيء، ويعلنون بشكل صريح: «يوضع خطٌّ تحتها، والآن نبدأ صفحة جديدة».

الأحد، ٣ يونيو ١٩٤٥.

صباح هادئ، والشمس حارة. الأعلام البائسة المصنَّعة في المنازل مثل بقع ملوّنة في الشارع. عملتُ بجدّ في جميع أنحاء غرفتي، وطبختُ حساء الجريش على الموقد الكهربائي الذي يتوقّف مراراً وتكراراً. وجبتان - بعد - من الشوربة، وتنفد حصّتي من الجريش. ليس لديّ أيّ دهن. لم يُوزّع بعد. لكن رجلاً قال لي في الدكان إن زيت عباد الشمس الروسي على وشك الوصول. لا أزال أذكر حقول عباد الشمس الواسعة بلونها الذهبي الدافئ في أوكرانيا. Schön wär's (حبّذا لو) ، هكذا يقول البرلينيون.

بعد تناول الطعام، بدأتُ بمسيرتي الثانية إلى شارلوتنبورك، اجتزتُ برلين الضبابية المهجورة. ساقاي تتحرّكان، بشكل تلقائي. . أنا نوع من آلات المشي.

عند إلزه إر. وزوجها التقيتُ المجريَّ. وبالفعل، كانت لديه رغبة كبيرة في البدء بأي مشروع. نوع داكن، وجبهته مربّعة، كان يرتدي قميصاً مكوياً للتوّ. يبدو أن تغذيته جيدة جداً، وهذا ما يجعلني أُصدّق بدولاراته.

ألقى ما يشبه الخطبة بألمانية هزيلة حول حقيقة إنه فكّر في أن يكونَ أول مَن يُؤسس لصحيفة. هذه الصحيفة المستقبلية العالمية يريد أن يسمّيها «Die neue Tat»(*) (في الوقت الحالي، كل شيء "جديد" هنا). ناقشنا احتمالات وتوجّه مثل هذه الصحيفة. هناك رسّام أيضاً، صمّم العنوان الرئيس للصحيفة، بالفعل، وهو جريء جداً. يريد المجريّ - بالإضافة إلى ذلك - نشر

*) الفعل الجديد، أو الحقيقة الجديدة.

عدد من المجلات، واحدة للنساء، وأخرى للشباب الناضج. صُحُف تُركز على إعادة التأهيل الديموقراطي. سألتُه إلى أين وصلت المفاوضات مع الروس. أجاب، أن هذا يحتاج إلى بعض الوقت. الشرط الأساسي لشراء الورق اللازم كان هو بقاء الصحف في برلين، للقضاء على أي منافسة محتملة مقدّماً. وممّا لاشكّ فيه أن المجريّ يريد أن يصل إلى مستوى دار نشر أولشتاين، ودار نشر هيست. هو يرى أبراج المكاتب، بينما نحن نرى الأنقاض، ويحلم بشركة ضخمة. بهذا الحماس، يريد أن يدير المشروع بالدولارات الأمريكية.

رغم قلقي وتحفّظاتي، ذهبتُ - فوراً - للجلوس مع الرسّام إلى الطاولة، من أجل تصميم تخطيط للصفحة الرئيسة. المجريّ يريد حجماً كبيراً وصوراً كثيرة. في ما يخصّ المطابع، هير إر. كمهندس يعرف كيفية الوصول إلى ذلك. هو يعرف مطبعة لا يزال نصفها تحت الركام. ما أخفاه الركام هو المكائن، كما قال، وبمعالجة خبير، يمكن استخدامها بسهولة مرّة أخرى..

أجبتُ أن تخليص المكائن يمكن أن يتمّ - فقط - عند خروج القوّات الروسية. لكن هير إر. ضحك وقال إن هذه المكائن قديمة جداً بالنسبة للمنتصرين، وإن لديهم مهنيين منتشرين في كل مكان، لا يطمعون إلا بالجديد والأفضل.

وصلتُ بأمان إلى البيت، وما تزال ساقاي متصلبتين من المشي السريع. أشعر أني سعيدة، وأشم رائحة فرصة متاحة. الأمر يتعلق بي الآن. غداً سوف أبدأ بالأعمال التحضيرية للمجلات. وكمكتب، سوف نستخدم منزل المهندس بشكل مؤقّت. غدائي أتناوله هناك. إلزه تدبرت كيساً من البازلاء. جيد جداً.

للمساء، فكّرتُ في طعام للتحلية. من بقايا السّكّر في الكيس، ملأتُ نصف ملعقة، ووضعتُها في كأس شراب. غمستُ طرف سبّابتي في الحلو، ببطء وعناية شديدَيْن. أتطلّع إلى كل لحسة، وأستمتع ببلورات السّكّر أكثر من استمتاعي بعلبة كاملة من حلوى زمن السِّلْم.

الاثنَيْن، ٤ يونيو ١٩٤٥.

مسيرة في الصباح الباكر نحو شارلوتنبورك. يوم قائظ. مجلاتنا اتخذت شكلها بالفعل. أوجدت النصوص قدر المستطاع من أعمال كتّاب محظورين. تتوفّر في مكان قريب، في مكتبة هير إر. أو في أي مكان آخر في البناية. مكسيم غوركي، جاك لندن، جول رومان، توماس فولف، وكتّاب قدماء - أيضاً - مثل موباسان، ديكنز وتولستوي. السؤال هو كيفية الوصول إلى حقوق هذه الأعمال، طالما أنها ليست مجانية؛ لأن لا أحد من الناشرين القدامى يعمل مرّة أخرى. المجريّ لا يتدخل في مثل هذه التفصيلات الصغيرة أبداً. هدفه الطباعة. «إذا جاء أي أحد للمطالبة بالمال، ندفع له ببساطة» وضرب على جيب بنطلونه. لديه درّاجة هوائية، ظهرت فجأة. وقدّمها - بكرم - لتكون متاحة لـ «دار النشر». هي موجودة على الورق فقط.

بعد الظهر، كان هناك شوربة البازلاء، بالتأكيد. لم تكن حسب الوصفة مع الأسف؛ لأن البازلاء - كما قالت إلزه - لم نحصل عليها مطبوخة. لذا؛ وضعتُ الكمّيّة كلها في مفرمة اللحم. طعمها خشن مثل الرمل، لكني تناولتُها، على أي حال. ولجعل الطعم مستساغاً، طَبختُ معها قطعة من لحم الخنزير المقدّد، حصلت على قشر لحم الخنزير، لأني سأمشي لمسافة طويلة. يجب أن أزن نفسي أيضاً، لديّ شعور بأني قد فقدتُ وزني بسرعة. تنّوراتي كلها أصبحت واسعة جداً.

في حوالي الساعة السادسة، مشيتُ إلى المنزل. كان الشارع مزدحماً بالكثير من المجموعات الصغيرة المتعبة. من أين؟ إلى أين؟ لا أعرف.

معظمهم كانوا متوجّهين نحو الشرق. المركبات متشابهة مع بعضها: عربات يد بائسة محمّلة بأكياس، خزانات وحقائب. امرأة، أو شاب نحيف أمامها مع حبل سحب على الكتف. خلفها أطفال صغار، أو جدّ يدفع. ودائماً - تقريباً - فوق كومة الأشياء على العربة هناك - أيضاً - كائنات بشرية، أطفال صغار جداً، أو عجوز. كبار السنّ هؤلاء - إن كانوا رجالاً أو نساء - يبدون بحالة فظيعة بين هذه الأغراض كلها. شاحبون، متعبون، شبه موتى، حُزم عظام ضعيفة. عند الشعوب البدوية مثل اللابيين والهنود الحمر كان كبار السّنّ العاجزين يعلّقون أنفسهم على فرع شجرة، أو يجثمون في مكان ما في الثلج حتّى يموتوا. الغرب المسيحي يجرّهم معه، طالما لا يزالون يتنفّسون. في الطريق، كثيرون منهم سوف ينتهي بهم الأمر إلى دفنهم تحت الأرض.

«تقدير كبار السّنّ»، نعم، لكنْ؛ ليس على عربات اللاجئين، ليس هذا هو المكان، ولا الزمان المناسب. فكّرتُ في المكانة الاجتماعية لكبار السّنّ، في قيمتهم وكرامتهم، هؤلاء الذين يعيشون طويلاً. كبار السّنّ كانوا - هم - المالكين، هم الذين يسيطرون على الممتلكات. في مجتمع الفقراء، الذي ننتمي إليه جميعاً - تقريباً - في الوقت الحالي، كبار السّنّ لا قيمة لهم. كبار السّنّ لا يوقّرون، لكنْ؛ يثيرون الشفقة. ويبدو - في الواقع - أن هذا المأزق يثير همّة كبار السّنّ، ويحفز رغبتهم في الحياة. الهارب من الخدمة العسكرية في بنايتنا قال للأرملة، إنه يخفي كل قليل من الطعام عن حماته العجوز؛ لأنها تسرق كل ما يمكن أن تصل إليه، وتأكله في الخفاء، تأكل دون اعتراض حصص ابنتها وحفيدها. إذا قال أحد أي شيء عن ذلك، تصرخ بصوتٍ عالٍ، وتقول بأنهم يريدون تركها تموت جوعاً، يتركونها تموت، وبهذه الطريقة يرثون شقّتها... وبهذا تصبح السيدات المسنّات مثل حيوانات، يثبّتنَ مخالبهنّ بما تبقّى من حياتهنّ بجشع.

الثلاثاء، ٥ يونيو ١٩٤٥.

لم أنم جيداً، أسناني كانت تؤلمني. رغم ذلك، نهضتُ مبكّراً، وسرتُ إلى شارلوتنبورك. اليوم - أيضاً - كانت الأعلام ترفرف في كل مكان، لماذا؟ لا أعرف بالضبط. الحلفاء هبطوا في المطار، الإنگليزيون، الأمريكيون، الفرنسيون. ربّما ترفرف هذه الأعلام الظريفة، المتفاوتة، منتجات حماس نهاية الأسبوع للمرأة الألمانية تكريماً لهم. في غضون ذلك، ظلت الشاحنات الروسية تهرب بمكائننا بعيداً.

مشيتُ، ومشيتُ، مثل آلة مشي. على أيّ حال، أسير ٢٠ كيلومتر في اليوم، مع تغذية شحيحة. أحببتُ العمل. في كل يوم، يبتكر المجريّ شيئاً جديداً. سمع في مكان ما بأن الفترة الأولى سوف تخصّص لورق كُتُب المدارس. لهذا أدخل في برنامج النشر كُتُب المدارس. هو يعوّل على الحاجة الملحّة لكُتيّبات اللغة الألمانية الحديثة للمبتدئين، وقواعد اللغة الروسية، وطلب منّي قدح زناد الفكر في هذا الموضوع. في أثناء ذلك، قدّمتْ إلزه لنا قهوة حقيقية. في الساعة السادسة، ذهبتُ إلى البيت. نعال حذائي أصبح رقيقاً جداً مثل ورقة تدريجياً. صادفتُ في طريقي أول مركبة ألمانية، دخلت موضع التنفيذ من جديد، باص يسير كل نصف ساعة. لكنه مكتظٌ بشكل، يصعب الدخول فيه. رأيتُ - أيضاً - شرطة ألمانية من الذين تمّ تعيينهم حديثاً، فتية صغاراً غريبي الأطوار، يبذلون قصارى جهدهم؛ لكي لا يلفتوا الأنظار.

وصلتُ مبلّلة من العَرَق، وقدماي تحرقاني إلى البناية. على الدرج،

استقبلتْني الأرملة بمفاجأة: نيكولاي كان هنا، وسأل عنّي! نيكولاي؟ كان يجب عليّ أن أفكر لبعض الوقت حتّى أتذكّره، الملازم الثاني ومفتّش البنك من الأيام الماضية. نيكولاي، الذي يريد أن يأتي، ولم يأتِ. «سيعود في الساعة الثامنة» قالت الأرملة. «سوف يصعد - مباشرة - إلى غرفتكِ، ويطرق على بابكِ. هل أنتِ سعيدة؟».

«Je ne sais pas» (لا أعرف) قلتُ، تذكّرتُ معرفة نيكولاي باللغة الفرنسية. لا أعرف - في الواقع - إن كان عليّ أن أفرح أم لا. بعد أن تبخّر نيكولاي كالدخان لمرَّتَيْن، جاءت زيارته بلحمه ودمه غير متوقّعة تماماً. ومضى وقت طويل على ذلك أيضاً. أُفضّل أن لا أتذكّر شيئاً الآن. كنتُ متعبة، متعبة جداً.

كنتُ قد اغتسلتُ بسرعة للتو، ومثلما أفعل - دائماً - بعد هذه المسيرة القسرية، أتمدّد، وأنام لساعة، عندها دقّ جرس الباب. نيكولاي، حقاً. في المدخل شبه المظلم تبادلنا بعض الجمل بالفرنسية. وعندما سألتُه إن كان يريد الدخول، وعندما رآني في الضوء، صُدم بشكل واضح: «ماذا حدث؟ كم تبدين بحالة سيئة؟» وجدني قد نحفتُ كثيراً، وبحالة بائسة، وكان يريد أن يعرف كيف يمكن أن يحدث هذا في وقت قصير جداً. حسناً، عمل كثير، ومشي لا نهاية له إلى جانب الجوع، مع القليل من الخبز الجاف، عندها تفقد وزنكَ. من الغريب أن هذا التغيير الذي حدث لي لم ألاحظه على الإطلاق. ليس لديكَ فرصة لوزن نفسكَ، وتنظر إلى نفسكَ على عجل في المرآة. لكنْ؛ هل كان حالي سيئاً إلى هذا الحدّ!

جلسنا متقابلَيْن إلى طاولة التدخين الصغيرة. لم أستطع منع نفسي من التثاؤب، كنتُ متعبة جداً، ولم أجد أيّ كلمات في رأسي، نعسانة جداً، إلى درجة أني لم أفهم عن ماذا كان يتحدّث نيكولاي. كان لطيفاً جداً، لكنْ؛ من بعيد. من الواضح أنه كان يتوقّع استقبالاً آخر. أو أن الشبح الشاحب الذي تغيّرت له، لم يعد يعجبه ببساطة. أخيراً عرفتُ أن نيكولاي جاء - هذه المرّة

أيضاً - ليودّعني، مقرّه قد انتقل - بالفعل - إلى خارج برلين، واليوم جاء إلى برلين ليوم واحد فقط، وللمرّة الأخيرة، كما قال. لذا؛ لم أكن بحاجة لإرغام نفسي على إظهار وجه لطيف له، لستُ بحاجة إلى ادّعاء الاهتمام به. ومع ذلك، شعرتُ طوال الوقت بخيبة حول حقيقة أن الأمور جرت على هذا النحو مع نيكولاي. لديه وجه جميل. عند الوداع في المدخل، وضع في يدي شيئاً ما، وهمس: «En camarades, n'est-ce pas ?» (أصدقاء، أ ليس كذلك؟) كانت ورقة نقدية، أكثر من مئتَي مارك. ومقابل هذا، ماعدا بعض الجمل المشوّهة من جانبي، لم يحصل على أي شيء. سوف أشتري بهذه النقود شيئاً لآكله، بالطبع، القليل من الخبز فقط لهذا المساء. لكنْ؛ في مثل هذا الوقت، يتمسّك كل شخص بما لديه. لهذا السبب، ماتت السوق السوداء.

الأربعاء، ٦ يونيو ١٩٤٥.

المساء من جديد، وآلة المشي، وصلتُ إلى المنزل. في الخارج، هطل المطر. في الداخل، يا للروعة! تدفّقت المياه من الحنفية في غرفة العلّيّة. ملأتُ حوض الاستحمام، واختبأتُ تحت الماء المتدفّق بغزارة. انتهى زمن صعود ونزول الدرج المُجهد مع دلاء الماء الثقيلة.

يوم جديد من العمل المضني. أنا والمجريّ في الطريق للبحث عن مكان عمل للإيجار. ذهبنا - أولاً - إلى مبنى البلدية؛ حيث قدّم المجريّ الأوراق، الختم والتواقيع التي يجب أن تمنح الشرعية لخطّته. هناك رأيتُ مختلف الأشكال الرائعة. راقصات شابات، سيدة كانت يهودية في الخفاء حتّى اليوم، تحدّثت عن عملية أنفها، رجل تقليدي مع لحية آشورية قرمزية، رسّام للوحات «منحطة». زحفوا من جحورهم المختلفة؛ ليظهروا، أنواع لم يرها المرء منذ سنوات.

كنتُ مع إلزه إر وزوجها، عندما دار نقاش عنيف بينهما بعد كوب قهوة حقيقية حول السؤال التالي: هل على هير إر، تقبل العرض والذهاب إلى موسكو؟ رجل ما عرض عليه وظيفةً قياديةً ومالاً كثيراً... لكن إلزه عارضت، بكل قوّتها، فقط لأن زوجها يجب أن يذهب وحده أولاً. لكنْ: هو لا يريد ذلك أيضاً. هو يُفضّل أن يظل يتنفّس الهواء الغربي، وبفضل خطط الناشر، استعاد شجاعته، ويتمنّى أن يكون قادراً - مرّة أخرى - على لعب لعبة الرجال الكبار، من أجل المال، السلطة والسيارات الفخمة.

اليوم تفاوضنا مع الحلفاء. الراديو بصق الخُطب التي فاضت بكلمات جميلة واحتفاء أعدائنا السابقين ببعضهم. فهمتُ - فقط - أننا، نحن الألمان، علينا دفع الثمن، سُنصبح مستعمرة. إنه الاستسلام. لا يمكنني أن أغيّر أي شيء، يجب أن أتقبّل الأمر، كنتُ أحاول توجيه سفينتي الصغيرة بين هذه الأحداث كلها. عمل مضنٍ، خبز شحيح ، لكن الشمس الرائعة القديمة لا تزال في السماء، وربّما هناك فرصة أخرى لقلبي. لقد حصلت على أشياء كثيرة في حياتي - كثيرة جداً!

الخميس، ٧ يونيو ١٩٤٥.

اليوم عطلة آلة المشي. منذ الصباح الباكر، وأنا أقف في صفّ عند بائع الخضار من أجل القرع. مع الأسف، اتّضح - في ما بعد - أنه مليء بمحلول ملحي، ولا يمكنني أكله. كنتُ سعيدة جداً بعلبتَيْن من الخضروات المجفّفة، «الأسلاك الشائكة» إذا جاز التعبير، وحصلت على كيس من البطاطا المجفّفة. بالإضافة إلى ذلك، قطفتُ القرّيص من الحدائق الأمامية للبنايات المدمّرة، وملأتُ كيساً منه، بأناقة شديدة مع قفّازات جلد سمك القرش خاصّتي التي احتفظتُ بها في حقيبة سفري في القبو. التهمتُ الأشياء الخضراء بشراهة، شربتُ المرق الأخضر أيضاً، وشعرتُ أني منتعشة تماماً.

بعد ذلك، كنتُ أحسب كم من الوقت مضى على موعد الحيض، واتّضح أن موعده قد مضى عليه أسبوعان. مشيتُ مسافة سبع بنايات إلى لوحة معلّقة لطبيبة نسائية، رغم أني لم أذهب من قبل، وليس لديّ أي فكرة ما إذا كانت لا تزال تمارس مهنتها. قابلتُ امرأة شقراء، لا تكبرني كثيراً في السّنّ، تحدّثنا في غرفة، تملؤها ثقوب الرصاص. بدلاً من زجاج النوافذ، وضعتْ ورق أشعّة قديماً مع أقفاص صدرية غريبة. لم تُسهب في الحديث، لكنْ؛ توجّهت إلى الهدف فوراً. «لا» قالت بعد الفحص، «لا شيء يدعو إلى القلق، كل شيء على ما يرام».

«لكنْ؛ مضى على وقت الحيض أسبوعان. لم يحدث هذا من قبل».

«ما رأيكِ أن هذا يحدث للكثير من النساء الآن! أنا نفسي مضى على

موعد حيضي فترة من الزمن. هذا بسبب التغذية. لهذا يحتفظ الجسم بالدم. من الأفضل أن تحرصي على أن يغطي عظامك بعض اللحم. عندها - أيضاً - سوف يأتي الحيض في موعده».

طلبتْ منّي عشرة ماركات، وأعطيتُها النقود مع شيء من تأنيب الضمير. ماذا تريد أن تفعل بهذه النقود؟ وأخيراً خاطرتُ بالسؤال إن كان هناك نساء قد حملنَ من الروس، وجئنَ إليها طلباً للمساعدة.

«من الأفضل أن لا نتحدّث في هذا الموضوع» قالت بحدّة، وسمحت لي بالخروج.

مساء هادئ، لي وحدي تماماً. الرياح اندفعت بقوّة، من خلال إطارات النوافذ الفارغة والغبار يتحرّك في دوّامات داخل الغرفة. إلى أين يجب أن أذهب، لو عاد صاحب الغرفة؟ من المؤكد - على أي حال - أني لو لم أكن موجودة في الغرفة كانت ستُنهَب من قِبَل بنّائي السقف ومواطنين آخرين. مثل هذا الأثاث الغريب من الأفضل أن يحترق بدلاً من امتلاكه.

الجمعة، ٨ يونيو ١٩٤٥.

من جديد، كانت آلة المشي في طريقها إلى العمل. اليوم كان تجربة رائعة: في أثناء ذلك، بدأ تشغيل جزء من خطّ السّكّة الحديدية في المدينة، بشكل تجريبي. رأيتُ عربات حمراء وصفراء تقف على الرصيف، صعدتُ الدرج، اشتريتُ بطاقة بكروشنينّ(*) ودخلتُ. جلس الناس - بشكل احتفالي- على المقاعد. فوراً تحرّك اثنان جانباً لإفساح المجال لي. كانت جولة سريعة تحت أشعّة الشمس وبين أنقاض المدينة. دقائق المشي المضني كلها بلا نهاية أصبحت من الماضي الآن. شعرتُ بالأسف؛ لأني يجب أن أنزل بهذه السرعة. الجولة كانت لطيفة جداً، مثل هدية.

عملتُ بجدّ اليوم. أعددتُ مع إلزه رسماً تخطيطياً للعدد الأول من المجلة النسائية. لكنْ؛ لا تزال عناوين صفحاتنا غير ثابتة إلى حدّ الآن. جميعنا مشغولون بهذا الأمر. على أي حال، يجب أن تظهر كلمة «جديد» في الاسم؛ لأن كل شيء يحدث اليوم جديد، بالنسبة لنا. يوم يشبه حكاية غريبة. كما لو أني رأيتُ أناساً وأشياء من خلال ستار. عدتُ أتعثّر على قدمَيّ، خائرة القوى من الجوع. عند إلزه إر. نحصل - الآن - على طبق واحد - فقط - من حساء البازلاء، لكل منا ملعقتان مليئتان بالحساء؛ لكي يدوم الخزين لفترة أطول. كنتُ أشعر كما لو أن المارين كلهم ينظرون لي بعيون جوفاء جائعة. غداً سوف أبحث عن نبات القرّيص مرّة أخرى. في طريقي أتطلّع إلى كل بقعة خضراء.

---

*) كروشن (Groschen): أو قرش، عملة فضية ألمانية.

في كل مكان، يلاحظ المرء - الآن - الخوف بشأن الخبز، الحياة، العمل، الراتب، بشأن اليوم التالي. والشعور بالمرارة، مرارة الهزيمة.

السبت، ٩ يونيو ١٩٤٥.

يوم آخر للراحة. اتفقنا على أني لن أمشي مسيرة العشرين كيلو متراً المجهدة في اليوم التالي، طالما ليس لديّ طعام. لذا؛ أقوم بهذه الرحلة الثقيلة مرة واحدة كل يومَيْن. وقفتُ في الدكان المُسجّلة فيه، وحصلت على جريش وسُكّر ببطاقاتي، كافية لوجبتَيْن، أو ثلاث. بالإضافة إلى ذلك، التقطتُ كومة كبيرة من القرّيص بقفّازي الأنيق الذي عليه اسمي الأول ، بحثتُ - أيضاً - عن أوراق الرغل والطرخشقون المخزني.

بعد الظهر، كنتُ - لأول مرّة منذ زمن سحيق - عند مصفّف الشعر. غسل من شعري رطلاً من الأوساخ، وموّج خصلاته. الشيطان وحده يعرف من أين جاء مصفّف الشعر هذا، هو مقيم في دكان متضرّر لزميلة، ضاع كل أثر لها، آخر مرّة رآها فيها كانت قد اقتيدت من قِبَل الفولكسشتورم، ويبدو أن العائلة قد تمّ إجلاؤها إلى تورينن. مرآة واحدة - فقط - لا تزال سليمة، ومجفّف شعر مجوّف صالح للاستخدام إلى حدّ ما. قبل الحرب كانت أحاديث مصفّف الشعر: «نعم، فراو "كذا"، بالتأكيد، بكل سرور فراو "كذا"...» لا أشعر بالارتياح مع هذه الجمل المبالغ فيها. فراو "كذا" بمعنى قيمة داخلية، عملة تصلح بيننا - فقط - للاستخدام. بالنسبة للعالم، نحن أنقاض، وقذارة.

الأحد، ١٠ يونيو ١٩٤٥.

أعلن الراديو أن الإدارة العسكرية الروسية ستتخذ من برلين مقرا لها، وأن روسيا - في المستقبل - سوف تصل إلى باين، هانوڤر وهولشتاين، وأن الإنگليز حصلوا على نهر الراين، وحوض الرور، والأمريكيين حصلوا على باين. عالم مضطرب، بلد مقطع إلى أجزاء. بعد مضي شهر حصلنا - الآن - على السلام.

أمضيتُ الصباح في التفكير مع الشمس والموسيقى. قرأتُ ريلكه، غوته، هاوبتمان. فكرة تدعو للفخر، أن هؤلاء ينتمون لنا - أيضاً - ومن نوعنا.

في الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر، بدأتُ المسيرة في برلين الفارغة الصامتة إلى شارلوتنبيرك في جوّ قائظ. حيث جلسنا مع بعضنا مرّة أخرى، وعقدنا اجتماعاً. رجل جديد انضمّ لنا، خبير في مجال الطباعة. هو يعتقد بأن لا معنى من إعطاء الأولوية لتوفير الورق. مَن يملك الورق يحتفظ به، حتّى إنه يخفيه؛ لأنه يخشى الاستيلاء عليه. وإذا كان ينوي أحد ما تسليم شيء منه، فنحن نفتقر إلى سيارة ومساحة لخزن الورق حتّى نستطيع العمل في الطباعة؛ لأن أسطول شركتنا يتألف - حالياً - من درّاجتَيْن هوائيّتَيْن، وهو ما تملكه معظم الشركات من مركبات في الوقت الحاضر. يعتقد الخبير أن كل شيء يجب أن يكون له ترخيص، ومن ثمّ؛ إقناع السلطة - بصعوبة - للحصول على رخصة رسمية. المهندس قام بجولة من قبلُ في جميع المكاتب الروسية والألمانية الممكنة، كان متشائماً بعض الشيء من ما جناه هناك. المجريّ

وحده مَن كان يملؤه التفاؤل. هو رجل داهية. عندما قلتُ - بشكل عَرَضي - إن في قبو مديري السابق لا يزال هناك خزانة مليئة بصور مؤطّرة للصليب الحديدي، وُضعَتْ خصيصاً؛ لتُمنح كوسام لبعض المسابقات، لكنْ؛ لم يكن هناك إمكانية لنقلها، استيقظ على الفور، وسألني: «صور؟ خلف الزجاج؟».

«نعم، مؤطّرة بدقّة، خلف الزجاج!».

«سوف نجلب هذا الزجاج» قال آمراً. تدبّر مساحة تصلح لمكتب في مكان ما، وبالطبع دون ألواح زجاجية للنوافذ، مثل معظم المباني في برلين. ما يقلقني - الآن - هو محاولته السطو على المكان. لكني لم ألاحظ أي شيء من ذلك. يفترض أن كل شيء قد نُهب منذ فترة طويلة.

في طريق العودة، زرت گيزلا. الشقراء هيرتا لا تزال ترقد مريضة على الأريكة، لكنْ؛ هذه المرّة لم يكن وجهها أحمر متوهّجاً، بل أبيض كالثلج. تعرّضت للإجهاض، كما قالت گيزلا. لم أسأل أكثر، أعطيتُ لكل واحدة من الفتيات الثلاثة قطعة حلوى، قدّمها لي المجريّ كشكر على نصيحتي حول الزجاج قبل رحلة العودة إلى المنزل. الحلوى محشوّة بحبوب الموكا، مذاقها رائع. كان من دواعي سروري رؤية كيف استرخت هذه الوجوه الثلاثة المتشنّجة، الساخطة عندما تذوّقنَ حشوة الحلوى اللذيذة.

تحدّثتُ مع گيزلا عن خططنا في النشر. سرعان ما يكون هناك شأن لإحدى مجلاتنا يمكن لگيزلا العمل معنا. تجلس قبالتي متشكّكة، لا يمكنها تصوّر أن في بلدنا سوف يُسمَح بنشر مجلات مستقلّة، هي تظنّ أن الصحف بروح موسكو هي وحدها التي سوف يُسمَح لها بالنشر. لا تزال تشعر بخجل شديد من لفظ كلمة «الرّبّ»، لكن كل شيء تقوله يصبّ في هذا الاتجاه. أنا مقتنعة بأنها تصلّي، ومن ذلك تستمدّ القوّة. هي لا تأكل أكثر منّي. تحت عينَيْها ظلال عميقة. لكن تلك العينَيْن تتوهّجان، بينما عيناي خاليتان من التعبير. لا يمكننا مساعدة بعضنا الآن. لكنّ حقيقة أن الآخرين يعانون من الجوع مثلي، تدعمني، وتجعلني متماسكة.

الاثنَيْن، ١١ يونيو ١٩٤٥.

يوم آخر لنفسي. كنتُ في مركز الشرطة في محاولة للحصول على ترخيص لاستخدام الحديقة المهجورة خلف منزل البروفيسور كا. المحترق، وهو صديق مقرّب من الماضي. عرضتُ رسالة من السيد العجوز كان قد أرسلها لي في مارس من ملجئه في براندنبورك، وطلب منّي فيها العناية بحديقته. كل واحد منهم، يرسلني إلى الآخر. لم يكن فيهم أحد مؤهّلاً لمنح الرخصة. رائحة كريهة تفوح في كل مكان، وكان هناك مشاحنات في المكاتب المظلمة ذات الطاولات المحترقة. لم يتغيّر شيء.

في طريقي، قطفتُ كمّيّة من القرّيص. كنتُ واهنة جداً نتيجة افتقاري للدهون. دائماً هناك دفق من ضباب خفيف أمام عيني، وشعور بالتحليق، كما لو أني أصبحتُ أخفّ وزناً. كتابة هذه السطور هي - بحدّ ذاتها - جهد، لكنه راحة لي في وحدتي على أي حال، نوع من المحادثة، أُفرغ ما في قلبي على الورق. الأرملة أخبرتْني أحلامها المخيفة بالروس. بالنسبة لي لا شيء من ذلك، ربّما لأني أبصق كل شيء على الورق.

حال البطاطا سيّئ. لقد منحونا الحصص حتّى نهاية يوليو، مجبرين، يجب علينا استلامها. لماذا يشمّ الجميع: الدرنات التي أُخرجَتْ للتوّ من حفرها متعفّنة، ونصفها لبّ ذو رائحة كريهة. الرائحة في المطبخ لا تُحتمَل، لكنْ؛ في الشرفة، أخشى أنها سوف تتعفّن بعد وقت قريب جداً. على ماذا يجب أن نعيش في يوليو؟ علاوة على ذلك، يتحمّل غاز التدفئة جزءاً

من المشكلة. لو كان هناك ما يكفي من ضغط الغاز، فسوف يتدفّق في الأنابيب مثل إطلاقات نارية. والموقد الكهربائي الذي تم إصلاحه لعدّة مرّات، لم يعد يعمل.

يجب أن أحرس الخبز لنفسي. أكلتُ ١٠٠ غرام - بالفعل - من حصّتي ليوم غد، ليس عليّ أن لا أعتاد على هذه الأفعال.

الثلاثاء، ١٢ يونيو ١٩٤٥.

آلة المشي في طريقها إلى شارلوتنبورك من جديد. التنقّل السريع بالقطار، قد انتهى. فوراً بعد التجربة الأولى، حدث عطل ما. عملنا بجدّ. تصاميمنا ومقترحاتنا يجب أن تُسلَّم إلى المكاتب المتوفّرة كلها الآن.

في الطريق، واجهتُ تجربة جديدة. في أرض عشبية، دُفنت فيها الجثث لإعادة دفنها في مقبرة، هناك - بالفعل - جثّة ملقاة على الركام. حزمة طويلة موحلة في قماش الأشرعة. مَن حفر القبر هو مواطن عجوز، كان يمسح العَرَق من وجهه، بأكمام قميصه، ولوّح لي بقبّعته بكل برود. شممتُ - لأول مرّة - رائحة جيفة الإنسان. في الأوصاف الممكنة كلها عثرتُ على التعبير «رائحة جثث حلوة». أجد أن الحال «حلوة» غير دقيق وكافٍ بأي حال من الأحوال. أجد أن هذه الرائحة النتنة، لا تشبه أي رائحة أخرى. تشبه - بالأحرى - شيئاً صلباً، شيئاً سميكاً، هواء ثقيل، بخاراً ساخناً، يتراكم على الوجه والخياشيم، قوية جداً، وقريبة جداً؛ ليتمّ استنشاقها. تأخذ أنفاسكَ. تدفعكَ إلى الخلف، كما لو أنها لكمتكَ بقبضتَيْها.

في الواقع، في أرجاء برلين كلها - حالياً - تفوح رائحة نتنة جداً. انتشر مرض التيفوئيد، والزحار لم ينجُ أحد منه تقريباً. هير پاولي عانى منه بشدّة. والمرأة ذات الخدّ المُتقرّح، كما سمعتُ ذات مساء، أُخذَتْ إلى مصحّة للتيفوئيد، ويجب أن ترقد - الآن - هناك. طنينِ الذباب في كل مكان حول أكوام القمامة. مجاميع الذباب، أزرق، أسود وسمين. يجب أن تكون هذه

حياة رائعة لتلك الوحوش! كل قطعة صغيرة من السماد تعجّ بأزيز هذه الكائنات السوداء الممتلئة.

الأرملة سمعتْ خبراً انتشر في برلين حالياً: «سوف يعاقبوننا بالجوع؛ لأن عدداً من «المستذئبون»(*) أطلقوا النار على الروسيين في هذه الأيام». لم أصدّق الخبر. في حيّنا، لم نعد نرى أي روسي، ومن ثمّ؛ ليس هناك فريسة لـ « المستذئبون». لا أعرف أين هم الآن. الأرملة أقسمتْ أن إحدى الأختَيْن المرحتَيْن التي بقيتا في البناية، آنياً مع ابنها اللطيف، لا يزال يتردّد على شقّتها زائرون روس، يحملون معهم الطعام لها. مَن يدري إن كانت الأمور تسير على ما يرام؟! تخيّلتُ رقبة آنيا البيضاء مقطوعة على ذراع الأريكة.

(في نهاية يونيو، خربشتُ في الهامش التالي: لم تكن آنيا، ولا رقبتها، لكنها إنّا، تبعد ببنايتَيْن عن بنايتنا، بعد ليلة سُكْر مع أربعة غرباء، لم يُكشف عنهم إلى حدّ الآن، عثروا عليها صباحاً، وجمجمتها محطّمة. ضُربَتْ حتّى الموت بزجاجة بيرة، فارغة بالتأكيد. لم يكن القتل بدافع الحقد، أو سفك الدماء، لكنْ؛ ببساطة، ربمّا في شجار حول مَن كان دوره. أو ربمّا خدعت هذه الـ إنّا ضيوفها. الروسيون السُّكَارى خطرون جداً، يثورون بسرعة، ويغضبون بشدّة على أنفسهم، وعلى الجميع عندما ينزعجون).

(*) Werwölfe: حركة مقاومة سرّيّة ألمانية ضد الحلفاء في نهاية الحرب.

الأربعاء، ١٣ يونيو ١٩٤٥.

يوم جديد لنفسي. بحثتُ مع الأرملة عن القرّيص والرغل. تجوّلنا في حديقة البروفيسور المدمّرة والجرداء. حتّى لو حصلتُ على رخصة رسمية لمراعاة الحدائق، المجيء إلى هنا، وإنقاذها كان متأخّراً جداً. أيد غريبة نزعت فروع شجرة الكرز كلها، وقطفت حتّى الكرز الأصفر. ومن ثمّ؛ لن ينضج أي شيء هنا، حصاد الجائعين سابق لأوانه.

يوم بارد، رياح ومطر. لأول مرّة يسير القطار مرّة أخرى في شارعنا. ركبتُه فوراً، ركبتُه - فقط - دون أن أفكّر في وجهة محدّدة، لكنْ؛ في الطريق، فكّرتُ أن من الأفضل الذهاب إلى مبنى البلدية للسؤال إن كان علينا الانتظار للحصول - بالفعل - على أجورنا في الخدمة الروسية لأسبوع العمل في المصنع. وبالتأكيد، وجدتُ اسمي في القائمة. كان كل يوم مكتوباً بدقّة، بالنسبة لي ولجميع النساء الأخريات. حتّى الخصم الضريبي مكتوب في الأسفل، حصلتُ على ٥٦ مارك... أريد القول لو كان هناك مال في خزينة المدينة. طلب منّي الموظّف المجيء في الأسبوع القادم، والسؤال مرّة أخرى. على أيّ حال، أصبح هناك ما تمّ تسجيله وحسابه وصرفه. ومن ثمّ؛ سوف أحصل على شيء ما في يوم ما.

بينما أنا أنتظر القطار في جوّ عاصف وممطر للعودة إلى المنزل، تحدّثتُ مع زوجَيْن هاربَيْن. استغرقتْ رحلتهما أربعة عشر يوماً، جاءا من تشيكوسلوفاكيا، ولديهما أخبار سيئة. «التشيكوسلوفاكيون ينزعون قمصان

الألمانيين عند الحدود، ويضربونهم بالسوط». قال الرجل. المرأة قالت بضجر: «لا يمكننا أن نشكو. نحن مَن فعلنا هذا بأنفسنا». الطرق كلها إلى الشمال تزخر باللاجئين.

في طريق العودة بالقطار، رأيتُ أناساً، يخرجون من السينما. نزلتُ من القطار، على الفور، وذهبتُ إلى العرض القادم في الصالة. فيلم روسي عنوانه: «الساعة السادسة مساءً بعد نهاية الحرب». كان شعوراً غريباً، بعد الكثير من الخبرة مع الأفلام الرومانسية الهابطة، تجلس في السينما، من جديد، وتشاهد فيلماً، يُعرض أمامكَ. كان هناك الكثير من الجنود بين المتفرّجين، بضع عشرات من الألمان، غالبيّتهم من الأطفال. وامرأة واحدة فقط، النساء لا يتجرّأن على المغامرة في الظلام بين هذه البدلات العسكرية كلها. رغم عدم اهتمام الرجال بنا، هم ينظرون - فقط - إلى القماش، ومشغولون بالضحك. تجرّعتُ الفيلم. تدور أحداثه حول أنواع حيوية: فتيات قويات، ورجال أصحّاء. كان فيلماً صوتياً، باللغة الروسية؛ لأن أحداثه تدور حول أناس بسطاء، فهمتُ الكثير من حواراتهم. وانتهى - أخيراً - بنهاية سعيدة مع الألعاب النارية فوق أبراج موسكو. ومن ثمّ؛ يجب أن يكون هذا الفيلم قد تمّ تصويره في ١٩٤٤؛ لأن قادتنا لا يخاطرون بذلك رغم أبواق النصر كلها التي صدحت قبل أوانها.

حوادث ألمانيا تُشعرني بالحزن. خرجتُ حزينة من السينما، وواسيتُ نفسي بذِكْر كل شيء يُحرّم رغبتي في الحياة. هكذا فعلتُ مع مقطع لشكسبير، كتبتُه في دفتر يومياتي في باريس، عندما اكتشفتُ أوسفالد شبنگلر، وأحزنني كتابه «Untergang des bendlandes»[*] المقطع هو: «A tale told by an idiot, full of sound and fury, and signifying nothing». (الرواية التي يرويها الأحمق، مليئة بالصخب والعنف، ولا تدلّ على أي شيء). لعنة خسارة حربَيْن عالميَّتَيْن أثّرت فينا تأثيراً عميقاً.

---

*) سقوط الغرب. تُرجم إلى اللغة العربية تحت عنوان: "تدهور الحضارة الغربية".

الخميس، ١٤ يونيو ١٩٤٥.

آلة المشي كانت في طريقها إلى شالوتنبورك، من جديد. عندما تتأسّس شركتنا، وأحصل على بطاقة II، مع ٥٠٠ غرام من الخبز لكل يوم، يمكنني أن أُبقي القليل إلى المساء. كما هو الحال الآن، يجب أن أتناول - دائماً - ستّ شرائح من خبز الجاودار الذي أجلبه كل صباح - فوراً - في وجبة الإفطار. أريد القول، إني آخذ شريحتَيْن معي للطريق، وآكلها في استراحتيّ العمل التي خصصتُهما لنفسي، وإلا سوف يُغمى عليّ. رغم أني أحمّصها في بديل القهوة، أتناولها - بصعوبة - بسبب طعمها الذي يشبه طعم البطاطا المتعفّنة. يجب أن أرمي عدداً منها مرّة أخرى، الكومة تتضاءل، بشكل، يدعو إلى القلق.

في مدخل منزل المهندس، يوجد - اليوم - العشرات من الهواتف. جُمعت من كل مكان الآن، من أجل الروس، كما هو مفترض. برلين بلا هواتف! يبدو أننا سنعود إلى عصر سكّان الكهوف.

في المساء، حدث شيء جميل: أخيراً حصلتُ على حصّتي لعشرين يوماً من الدكان في الزاوية، الحصّة التموينية من الدهون لعشرين مرّة من ٧ غرام لليوم الواحد، وهي ١٤٠ غرام من زيت عبّاد الشمس. حملتُ الزجاجة بوَرَع، الزجاجة التي كنتُ أعود بها فارغة إلى المنزل طوال الأسبوع. الآن رائحة مطبخي تشبه رائحة مطعم بلدية موسكو الرخيص (ماسكوير ستالوڤا).

الجمعة، ١٥ يونيو ١٩٤٥.

في وقت مبكّر جداً، جلبتُ شرائح الخبز الستّة، لا أستطيع الانتظار. كان الخبز رطباً وداكناً، لم يكن هكذا في السابق. لا أجرؤ على شراء المزيد من الخبز؛ لأني عندها سوف أنتهك الكمّيّة المخصّصة لليوم التالي.

اليوم تمّ السطو على قبو مديري السابق. المجريّ، المهندس وأنا، دخلنا إلى المنزل، من الخلف، عن طريق مخزن المطبخ. كنا قد فتحنا - بالفعل - الخزانة التي لا تزال على حالها، لم تُمسّ في المخزن، عندما ظهرتْ على الدرج زوجة وكيل الشركة السابق التي تسكن هنا دائماً. تلعثمتْ بشيء عن أوراق ووثائق، وضعتُها هنا. الرجلان كانا يحاولان فكّ كل شيء خلف الخزانة. كسرنا إطارات الصور، مزّقنا الصور - الصور مع توقيع الشباب الحاصلين على وسام الصليب المقعوف - فصلنا وكدّسنا الألواح الزجاجية فوق بعضها. أخذنا معنا ورق تغليف وحبلاً. ودون أن يلاحظ أحد، استطعنا الهروب بسرعة من المدخل الخلفي. بالنسبة لي، لم يعد مهماً، إذا لاحظوا الضرر. أنا - أيضاً - فقدتُ كاميرتي مع مرفقاتها التي أبقيتُها في مكان العمل بناءً على طلب من المدير عندما تعرّضت البناية للقصف، وتدمّرتْ، بالكامل. ما قيمة بضعة ألواح زجاجية مقابل ذلك. هربنا مع مسروقاتنا، بأسرع ما نستطيع. كل واحد منا حمل عدداً من الألواح الزجاجية إلى منزلي؛ حيث استخدم الرجلان درّاجاتنا الهوائية الثمينة المخصّصة للعمل لتنفيذ هذه المهمة. حصلتُ أنا على أربعة ألواح كعمولة لإصلاح نافذة غرفتي، لو كان عندي معجون لتثبيت زجاج النوافذ!

في المساء، قرأتُ - من هنا وهناك - ما جمعتُه، بشكل اعتباطي وسريع، من مكتبة صاحب الغرفة. وجدتُ «Polikei» (پوليكوشكا) لتولستوي، وقرأتُه لعدّة مرّات. حفرتُ في الأعمال الدرامية لـ إسخيلوس، واكتشفتُ «الفرس». رثاؤه للمنهزمين سوف يكون مناسباً جداً لهزيمتنا - وغير مناسب - تماماً - في الواقع. محنة الألمان مذاقها بنكهة الاشمئزاز، المرض والجنون، ولا يمكن مقارنتها بأي شيء حدث في التاريخ. بثّ الراديو - منذ قليل - تقريراً عن معسكر الاعتقال. الأفظع من هذا كله هو النظام والمصاريف التي استُخدمت في إدارة هذه المخيمات: ملايين الناس استُخدموا للسماد، لحشو الفراش، الصابون الأخضر، ولبّاد السجّاد. هذه الأشياء لم يشهدها إسخيلوس، بكل تأكيد.

من السبت ١٦ يونيو إلى الجمعة ٢٢ يونيو ١٩٤٥.

لم أكتب شيئاً، ولن أكتب المزيد، هذا الزمن قد ولّى. كان اليوم هو السبت حوالي الساعة الخامسة عندما دقّ جرس الباب. «الأرملة» قلتُ لنفسي. لكنْ: لا، كان گيرد، في ملابس مَدَنية، احمرّت بشرته من الشمس، وشعره أشقر أكثر من أيّ وقت مضى. وقفنا لبعض الوقت في المدخل المضاء بإضاءة خافتة، نحدّق ببعضنا دون أن نقول كلمة واحدة.

«من أين أتيتَ؟ هل تسرَّحتَ من الخدمة العسكرية؟».

«لا، هربتُ. دعيني أدخل أولاً». كان يجرّ خلفه مزلجة على عجلات صغيرة مع حقيبة وكيس فوقها.

كنتُ محمومة من الفرح. لا، لم يأتِ گيرد من الجبهة الغربية. وحدة المدفعية المضادّة للطائرات التي كان فيها، نُقلت إلى الشمال، في آخر لحظة. بعد ضربة مباشرة من العدوّ على وحدته التي كانت في وضع الهجوم، استطاع هو واثنان معه من الهروب، ولجؤوا إلى ڤيلا مهجورة، عثروا فيها على ملابس، أحذية، بالة من التبغ، وطعام كافٍ. حتّى أصبحت المسألة حرجة عندما فتّشت السلطات المحلية المكوّنة من الروس والبولنديين السكّان. انضم الرجال الثلاثة إلى مجموعة من البرلينيين النازحين، وعادوا معهم إلى الوطن. عنواني الجديد كان يعرفه گيرد؛ لأنه استلم آخر بريد في الميدان مع بطاقة بريدية حمراء، وقصّة تعرّض مسكني للقصف. هو تصوّر - أيضاً - خراب ملجئي الجديد، والبحث عنّي. تفاجأ عندما وجدني سليمة. هزّ

رأسه بخصوص مجاعتي، وأقسم أنه - من الآن فصاعداً - سوف يجلب كل ما أحتاجه. في الكيس، حمل معه بطاطا رائعة ولحم خنزير مقدّداً. بدأتُ القلي فوراً، ودعوتُ الأرملة أيضاً. هي تعرف گيرد من قصصي عنه، وسلّمتْ عليه. رغم أنها لم تره من قبل. باحتضانه، بحماس شديد، وتدفّقت كلماتها كالسيل بسرعة مع حيلة الإبهام والسبّابة: «النساء الأوكرانيات هكذا - وأنتِ هكذا».

رأيتُ أن گيرد كان مندهشاً. من جملة إلى جملة يجمد، تصرّف كما لو أنه كان متعباً. تسلّلنا حول بعضنا، إذا جاز التعبير، وتجنّبنا الكلام الشخصي. ومن سوء الحظ، أن گيرد ليس لديه شيء؛ ليدخّنه. كان يتصوّر أن السوق السوداء بالقرب منا قد ازدهرت في ظل السلطة القديمة.

شعرتُ بالدفء والثقة المفرطة بالنفس بعد وجبة طعام دسمة غير عادية. لكني كنتُ باردة كالثلج ليلاً بين ذراعَي گيرد، وكنتُ سعيدة عندما تركني وشأني. أنا غير صالحة لأي رجل في الوقت الحاضر.

أيام غير منتظمة، ليال قلقة. الرجال كلهم الذين هربوا مع گيرد كانوا يأتون لزيارتنا. وتسبّب هذا بخلاف مستمرّ في ما بيننا. گيرد يريد أن يُرحّب بالضيوف، كما يجب. وأنا أريد ادّخار البطاطا ولحم الخنزير، بقدر المستطاع لنا نحن الاثنان. كان يوبّخني عندما أجلس صامتة. وعندما أكون مرحة، وأحكي قصصاً في أحسن الأحوال عشناها في الأسابيع الأخيرة، نصل - دائماً - إلى الشجار أخيراً. گيرد: «لقد أصبحتنّ دون حياء كإناث، الجميع هنا في البناية. أ لم تلاحظن ذلك أيضاً؟» كان يتجهّم وجهه من النفور: «من الصعب جداً التعامل معكنّ. لقد أضعتُنّ المعايير كلها».

ماذا يجب أن أقول؟ أزحف إلى زاوية من الغرفة، وأُعبس. لا يمكنني البكاء، كل شيء يبدو لي بلا معنى، وتافهاً جداً.

گيرد، هل تتذكّر؟ كان هذا في يوم الثلاثاء، ٢٩ أغسطس ١٩٣٩ الساعة العاشرة صباحاً، عندما اتصلتَ بي على مكتبي، وطلبت مني بإلحاح أن آخذ

إجازة لبقية اليوم دون شروط؛ لنتجوّل في المدينة. سألتُكَ بدهشة لماذا؟ وكيف؟ همهمتَ بشيء عن ضرورة المغادرة، وألححتَ مرّة أخرى: «تعالي، تعالي، أرجوكِ». وهكذا غادرنا في منتصف يوم عمل مشرق إلى غابات الصنوبر في ماكس. كان الطقس حاراً. كانت تفوح منكَ رائحة الراتنج. سرنا إلى بحيرة الغابة، وظهرت سُحب من الفراشات. سمّيتُها بأسمائها: النحاسية، وفراشات الليمون، طيور النار، الفراشة الطاووسية، والفراشة الخطّافية الذيل، والكثير من الفراشات الملوّنة الأخرى. في منتصف الطريق، ظهرت فراشة كبيرة، تمدّ جناحَيْها اللذَيْن كانا يرتجفان بنعومة، قلتَ إن اسمها عباءة الملك، لونها بنّي مخمليّ مع طبقات صفراء وزرقاء. وبعد ذلك، بفترة قصيرة، استرحنا على جذع شجرة، وكنتَ تلعب بأصابعي، وأنت صامت جداً، سألتُكَ: «هل لديكَ دعوة في جيبكَ؟»، «ليستْ في جيبي» قلتُ، لكنكَ استلمتَها في صباح ذلك اليوم، وعرفنا أن هذا يعني الحرب. قضينا الليلة في فندق معزول في الغابة. غادرتَ بعد ذلك بثلاثة أيام، ونشبت الحرب. نجونا منها أنا وأنت. هل كان ذلك من حُسن حظنا؟!

في غضون ذلك، قدّمتُ لـ گيرد دفاتر مذكّراتي (ثلاثة دفاتر كاملة). گيرد جلس، وفي يدَيْه الدفاتر، لبعض الوقت، ثمّ أعادها لي، أقسم أنه لا يستطيع فَهْم خربشاتي مع الكثير من السطور المختزلة والاختصارات. «ماذا يعني هذا مثلاً؟» سألني، وأشار إلى «vkng». كان يجب أن أضحك: «حسناً، الاغتصاب، بالتأكيد!» نظر لي، كما لو أنني مجنونة، ولم يقل أي شيء بعد ذلك.

غادر منذ البارحة. يريد الانتقال إلى پوميرن مع زميل كان معه في الجيش، يسكن والداه هناك. يريد جلب بعض الطعام. لا أعرف إن كان سيعود أم لا. هذا سيئ، لكني أشعر أني مرتاحة البال، لا أستطيع تحمّل هذا التوق المستمرّ إلى الشراب والتدخين بعد الآن.

وماذا بعد؟! لم يتقدّم مشروع المطبعة أيّ خطوة إلى الأمام. نحن ننتظر

جواب السلطات. المجريّ أظهر أول علامات التعب، ويتحدّث منذ فترة قصيرة عن ملهى سياسي، سيتم إنشاؤه فوراً. ومع ذلك، نحن نواصل العمل بجد لتنفيذ خططنا، وعمل ما نستطيع لمقاومة الشعور العام بالعجز. أنا واثقة من أن هناك مجموعات صغيرة من الناس بدت في التحرّك هنا وهناك، لكنْ؛ في مدينة الجُزر هذه، نحن لا نعرف أي شيء عن بعضنا.

في المجال السياسي، ثمّة أشياء بدأت تتغيّر. المهاجرون الألمان العائدون من موسكو سوف يتقلّدون المناصب الرئيسة. من الصحف، لن تعرف الكثير، هذا إن وجدت واحدة. اعتدتُ على قراءة صحيفة "روندشاو" على لوحة معلّقة بدبابيس إلى جانب السينما، موجّهة لعموم الشعب. الإدارة المحلية لقطاعنا لديها برامج طريفة، هم يحاولون النأي بأنفسهم عن نظام الاقتصاد السوفييتي، يسمّون أنفسهم ديموقراطيين، ويسعون للوصول إلى كل "معادي الفاشية" للعمل معاً.

منذ أسبوع، انتشرتْ إشاعة، مفادها أن الجزء الجنوبي من المدينة سوف يحتلّه الأمريكيون والجزء الغربي من حصّة الإنكليز. الأرملة تحت تأثير هير باولي، ومن رأيه في أن الاقتصاد سوف يزدهر في القريب العاجل. لا أعرف. هذا الأمر - بالنسبة لنا بالكاد - يُحدث فَرْقاً بعد أن رمى هؤلاء السادة أنفسهم في أحضانهم في إلبه. ننتظر، ونرى. لن أدع نفسي لقمة سائغة لأحد بعد الآن.

أحياناً أستغرب من أني لم أعد أعاني نفسياً من الخلاف مع گيرد، الذي كان يعني كل شيء، بالنسبة لي. من المحتمل أن الجوع يُخرِس المشاعر، ويُقلّل إحساس الروح بالألم. لدي الكثير لأفعله، لا بد لي العثور على حجر ولاعة للموقد، نفذت أعواد الثقاب كلها. يجب أن أتخلّص من برك الماء في العليّة. السقف يرشح من جديد، تسقط منه قطرات الماء؛ لتقع في عدد من الصحون القديمة التي وضعتها تحته. أتجوّل وأبحث عن بعض الأعشاب الخضراء على طول رصيف الشارع. وأقف في طابور الجريش. ليس لدي الوقت لتغذية روحي. صعوباتي الشخصية ذابت في البؤس العام.

لا أستطيع أن أعطي لحياتي الخاصة - الآن - أهمّيّة كبيرة. أصبحتْ غرائزي هي الأكثر حيوية. تتجسّس، وتخبرني - بهدوء - عن كل الجهات التي يُحتمَل أن يكون فيها طعام. تُجبرني البقاء على قيد الحياة؛ لأستعيد نفسي، ربّما ليس بأيّ ثمن، أنا لستُ على الحافة القصوى المهدّدة للحياة، لكنْ؛ ربّما مقابل ثمن باهظ.

البارحة حدث شيء مضحك. وقفتْ عربة أمام بنايتنا، تحمل حصاناً عجوزاً، لم يبقَ من الحيوان سوى عظم وجلد. لوتس ليمان، ذات الأربعة أعوام، جاءت وأمها تمُسك بيدها، ظلّت واقفة أمام العربة، وتحدّق بالحصان، ثم سألت: "ماما، هل يمكنكِ أكل هذا الحصان؟"

الربّ وحده يعرف ماذا سنأكل بعد. ما أعرفه كله أني أريد أن أظل على قيد الحياة ـ ضد كل منطق وعقل، مجرّد أن أعيش مثل حيوان.

شيء واحد، أودّ القيام به. استعرتُ من الأرملة آلة الطباعة القديمة. أكتب بها - الآن - مذكّراتي، ببطء شديد، حسب ما تسمح لي قدرتي، بخطٍّ واضح جميل، وبدون «vkng» وعبارات الاختزال. ومع أشياء كثيرة أخرى، ظهرت لي عند إعادة الكتابة. يجب أن يقرأها گيرد عند عودته. ربّما نجد بعضنا من جديد.

«لثمانية أسابيع من العام ١٩٤٥، عندما سقطت برلين في يد الجيش الروسي، سجلت سيدة شابة يومياتها في المبنى الذي فيه شقتها وما حوله. الكاتبة «المجهولة» صوّرت البرلينيين في كل طبائعهم البشرية، في جُبنهم، وفسادهم، أولاً بسبب الجوع وثانياً بسبب الجنود الروس. «امرأة في برلين» يحكي عن العلاقات المعقدة بين المدنيين والجيش المحتل، والمعاملة المهينة للنساء في مدينة محتلة والذي هو دائماً موضوع الاغتصاب الجماعي الذي عانت منه جميع النساء، بغض النظر عن السن والعجز. «امرأة في برلين» واحد من الكتب الأساسية لفهم الحرب والحياة.» **الكاتبة البريطانية أنتونيا سوزان بيات.**

صدرت الطبعة الأولى للكتاب باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة عام ١٩٥٤. بعد وفات هيلرس بعامَيْن؛ أي في العام ٢٠٠٣، صدرت طبعة جديدة للكتاب في ألمانيا، وكانت من أفضل الكتُب مبيعاً.

كشف ينس بيكسي، وهو محرّر أدبي ألماني، عن هوية الكاتبة بعد صدور الكتاب في العام ٢٠٠٣، ولكنه صدر، مرّة أخرى، في طبعة جديدة، باللغة الإنكليزية في العام ٢٠٠٥، وباسم «مجهول». إضافة إلى صدوره، في سبع لغات أخرى. كما أن الكتاب حُوّل إلى فيلم في العام ٢٠٠٨ بالعنوان ذاته، باللغة الألمانية، وأخرجه ماكس فيربرُك، وقامت بدور البطولة فيه نينا هوس.


ISBN 978-88-99687-25-0
9 788899 687250

المتوسط